علم الأنسان
و
الدراسة السيسيوأنثروبولوجية

ثروت أسحق

استاذ مساعد علم اجتماع

كلية الآداب جامعة عين شمس

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

علم الإنسان

والدراسة السوسيوانثربولوجية

ثروت إسحق

أستاذ مساعد علم الاجتماع

كلية الآداب — جامعة عين شمس

اهـــــــداء

الى طلابى الذين اســـــعد بحـــوارى معهم ٠
الذين ارى من خـــــلال عيـــــونهم ، واجـــــد
فى عذوبة ابتساماتهم ، وانصـــــور من معايشتى
لحياتهم وجه مصر المشرق دائما ٠

ثروت اسحق

مقـــــــدمة

شكرا لله فقد ساعدنى على تقـديم هذه المجموعة من المقـــالات التى يمكن أن تعطى فكرة للقارىء عن علم الانثروبولوجيا وتاريخه وفروعه الأساسية بينما استأثرت الانثروبولوجيا الثقافيةو الاجتماعية وأبرز مجالات الدراسة على اهتمام واضح فى هذا المؤلف .

وقد حرص الباحث على أن تتبع المقالات النظرية بدراسات حقليـة فى علم الانســان ــ لمجتمعنا أو لمجتمعـات اخرى ــ وقد اسهمت هـذه لدراسات الحقلية المقارنة فى القاء الضوء على المقولات النظرية والمنهجية كما اسهمت فى توضيح الجوانب المختلفة للبنـاء الاجتماعى فى المجتمعات المدروسة موضوع الدراسة وقد اجتهد الباحث أن يقدم المقالات النظرية صورة مبسطة والدراسات الحقلية فى صـورة مختصرة دونما الاغراق ى تفاصيل تؤدى الى ملل القارىء أو تزيد من حجم الكتاب ككل .

وقد خرج الكتاب فى صورته النهائية فى ٣ أبواب و ١٠ فصـــول تعرض الباب الأول لنشـأة العلم وأبرز فروعه (الفصلين الاول والثانى) يتعـرض البـاب الثانى لمجـالات الانثروبولوجيا وفروعهـا فيعـرض لانثروبولوجيا الثقافيـة كما يعرض نموذجا لاحـد الظواهر الثقافيـة لتى تم دراستها (الفصل الثالث) كما يتعـرض الباحث فى الفصـول تالية لأبرز المجـالات فيعرض الفصل الرابع للانثروبولوجيـا الريفية ، الخامس للانثروبولوجيا الحضرية والسادس للانثروبولوجيا الصـناعية السابع للأنثروبولوجيا الاقتصادية والثامن للأنثروبولوجيا السـياسية . قد استشهد الباحث هنا بالعديد من الدراسات الحقلية للبناء وللاتساق لاجتماعية .

وقد تضمن الباب الثالث والاخـير عرضا للاتجـــاه السوسيو ــ انثروبولوجى وأبرز أدواته كما عرض لاحدى الدراسات الحقلية .

وينتهى الكتاب بعرض للأنثروبولوجيا الراديكالية .

وأتمشم فى النهاية أن يفيد الطـــلاب من هذا المؤلف — الذى تبتزج فيه النظـــرية بالدراسات الحقلية — فى اجراء دراساتهم فى المســـــتقبل لخدمة وطننا الحبيب .

والله ولى التوفيـــــــق ...

ثروت اسحق

١٩٨٨/٩/١١

الباب الأول

علم الانسان

« ظروف النشأة وفروعه الأساسية »

الفصل الأول : نشأة علم الأنثروبولوجيا

الفصل الثانى : علم الانسان وفروعه

الفصـــــل الأول

« نشـــــأة علم الأنثروبولوجيـــــا »

لا تختلف ظروف نشأة هذا العلم عن ظروف نشأة غيره من العـــلوم غير اننـــا نبدأ بطرح التساؤلات التالية لفهم طبيعة هذا العـــلم وتقاليده وظروف نشأته .

ما هى الانثروبولوجيا ؟ لمـــاذا ظهـــر هـــذا العلم ؟ وكيف ظهـــر ؟ وما هى اهدافه ؟ وما هى فروعه الاســـاسية ؟ وما هى ابرز مدارسه ؟

الأنثروبولوجيا هى علم دراســـــة الانســـان فنحن كما يذكر عالم الانثروبولوجيا الامريكى روبرت ميرفى كائنـــــات تظهر بصورة مؤقتة — وسريعة — على مسرح التاريخ الانسانى ودور عالم الانثروبولوجيـــا هو وصف او ايضـــاح الطرق الانسانية التى ننتهجها فى حياتنا فاذا كان الكثير من العلماء يدرسون السلوك الانسانى فان الدراسة الانثروبولوجية هى الدراســـة الاكثر شمولا لهذا السلوك فى ضـــوء الزمان والمكان او على حد تعبير ميرفى :

«Only anthropology tries to see the Full panorama, in time and space».

وكلمة انثروبولوجيا Anthropology مشتقة من الكلمة الاغريقية Anthropo اى الانسان و logy بمعنى علم ويعنى المصطلح حرفيـــا العـــلم الذى يدرس الانســـان حيث تهتم **الانثروبولوجيـــا الفيزيقيـــة** physical Anthropology بدراسة الانســـان كنتاج لعملية التطـــور وتدرس الفروق بين السلالات البشرية ، كما تدرس **الانثروبولوجيا** الثقافية الثقـــافة المـــادية material culture وغير المـــادية un material culture بينما تهتم **الانثروبولوجيا الاجتماعية** Social Anthropology بدراسة البناء الاجتماعى Social Strucrure وشبكة العلاقات الاجتماعية Net work of social relation ship.

وهكذا تتولى الانثروبولوجيا دراسة الانسان من كافة جوانب حياته .

ومن الواضح أن عالم الانثروبولوجيا الفيزيقية يستند للتاريخ من جهة وللدراسة المقارنة بين الجماعات البشرية من جهة ثانية ، ويتعاون مع العديد من أصحاب التخصصات الاخرى فى دراسته الحقلية بينما يهتم عالم الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافة والثقافات الفرعية بالنسبة للشرائح السكانية والفئات المختلفة . أما عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية فيتولى دراسة العلاقات الاجتماعية على مستوى المجتمع المحلى والمجتمع الكبير .

اذن ان الانثروبولوجيا هى العلم الذى يحاول توضيح الطرق التى تنتظم خلالها المجتمعات المختلفة ويتناول تحليل نظمها
«It attempts to explain the ways in which various societies are organized and to analyze their institutions».

ومن الواضح أنه رغم التعدد المذهل للسلوك المقبول والاعراف فى العالم الذى نعيش فيه فان هناك ميلا مؤكدا لتشابه العديد من العادات وأنماط السلوك فى مجتمعات مختلفة ، ولعل سير ادوارد تايلور sir Edward Tylor عالم الانثروبولوجيا البريطانى كان رائدا فى تطبيق هذه النظرية المنهجية المقارنة خلال القرن التاسع عشر وقد نهج فيما بعد على نهجه الانثروبولوجى الأمريكى جوليان ستيوارد Julian Steward حين حاول القاء الضوء على العلاقة الوثيقة بين الانساق الاجتماعية والمواقع التى تشب فيها .

وتهدف الانثروبولوجيا الى تعليمنا كيفية ادراك المنطق الداخلى للثقافات وبخاصة تلك البعيدة والغريبة عنا .
Anthropology teaches us how to comprehend the internal logic of the cultures».

فاذا استوعبنا هذا الدرس جيدا فان ما يبدو « لا عقلانى » أو « طائش » أو « خليع » فى جماعة (أخرى) يمكن أن يرى — كما يذكر ميرفى — باعتباره عقلانى أو له معنى ، كما أننا نتعلم على أقل تقدير أن نمسك أنفسنا عن الحكم على العادات الغريبة من واقع مفاهيمنا القبلية وهى الظاهرة المعروفة باسم التعصب السلالى Ethno Centerism لدى علماء الانثروبولوجيا(٣) .

وقد ظهر هذا العلم أســـاسا نتيجة **لحب الاستطلاع المتصـــل** بالعادات الغريبة للشعوب فهـو قديم قدم التاريخ نفســه ، ولذلك فان الارهاصات الاولى ترجع الى مئات السنوات التى شهدت محاولات دراسة الانسان وتحليل سلوكه فى مصر القـديمة والصـين واليونان وبابل بدأ الانسان يعمل جاهدا لدراسة مجتمعه وقد عبر عن ذلك من خـلال الرسم والنقوش والكتابات والصور والتماثيل .

وعندما بدأت **الفتوح الكبرى** على يد الاغريق والرومان والفـرس والعرب كانت هناك فرصا كبيرة لكى يتعرف الانسان على سكان البلدان الاخرى ،هكذا ظهرت كتابات هيرودوت اليـونانى ولوكريتوس الرومانى والأسقف أيزدور ومؤلفات **الرحالة العـرب** كابن خلدون ، والحمـوى والمسعودى ... الخ (٤) ، كما شهدت العصور الوسطى رحـلات مارك بولو وكارينى وغيرهم .

ويطلق اسم **عصر التنـوير** على العصر الذى سادت خلاله الفلسفة الناقدة للمجتمع الاقطاعى فى القرن السابع عشر اذ تم فى هذا القـرن التاليف بين تيارين فلسفيين سائدين هما التيار العقلانى « الديكارتى » والتيـار التجريبى لدى بيكون من خلال فلاسفة ورواد وضـعوا ثقتهم فى العقل والملاحظة الابيريقية ، وشهد هذا القرن والقرن الذى يليـه فلسفة نقـدية — قادها لوك وهيوم وكانت — تعرضت للمجتمع الاقطاعى الذى كان يرى أن ليس فى الامكان أبدع مما كان وأن لا جدوى من محـاولات التغيير القائمة وهكذا وضعت فلسفة التنوير الانسانى تحت مجهر العقل والملاحظة والدراسة المتعمقة .

وقد أدت **الثورة الفرنسية والثورة الصناعية** الى ردود أفعال واسعة كما استمرت شعلة فلسفة التنوير التى قادها هيجل وماركس فى مجـال الفكر ، ومن ثمة ازدادت سرعة التغييرات الفكرية والمـادية من خـلال نمو الاحزاب الاشتراكية ونقابات العمال فى الغرب .

وخلال القـــرن التاسع عشر صاحب عصر التنوير بما حمله من « لبرالية فكرية » تمثلت فى الغـاء العبودية — بمناداة شارب وفورتس وغيرهما — قيام رحلات علمية اتجهت الى افريقيا على يد بارثولفنجستون منذ سنة ١٨٥٠ وسبق ذلك تاسيس الجمعية الاثنولوجية فى باريس سنة ١٨٣٩ والجمعيـة الاثنولوجية فى لنـدن سنة ١٨٤٣ غير أن كتـابات هؤلاء الرحالة قد شابها الخيلاء والتباهى وكان لسان حالهم « نأتى اليهم بصفتنا منتمين لعرق متفوق ... من أجل عرق ما زال فى الحضيض » .

وشهدت الفترة من ١٨٦٠ — ١٨٨٠ ازدهار ما يعـــرف « بالنزعة التطورية » على يد باخوفن وتايلور ومورجان ممن اعتمدوا على ما يعرف « بالتاريخ الظنى » لتتبع تطور النظم الاجتماعية فى المرحلة البربرية السابقة لمرحلة التمدن والحضارة Civilisation .

وخلال الحقبة الممتدة من ثمانينيات القـرن اللتاسع عشر حتى قيام الحرب الاولى اظهرت المستعمرات مقاومتها للاستعمار واضحى واضـحا بالنسبة لأبنـاء هذه المستعمرات صعوبة تبنى ثقافة المستعمر (دون قيد او شرط) غير أن هذه الحقيقـة نفسها لم تزيد الحـكام الا اصرارا على احكام القبضـة على السكان ومصـداق هذا أن بعض الحكام فى افريقيـا امثال كلوزال ولوغارد قد قاموا بتكليف بعض الرحالة أمثـال دلاموس وكالامرون بدراسة سكان هذه المستعمرات لضمان زيادة التأثير والمـــ الاستعمارى والابقاء عليها .

وقد شهدت **الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠** محـاولة تأهيل الاداريين والانثروبولوجيين بهدف اجراء أبحاث خاصـــة واكاديمية وهكذا لم تتمكن الانثروبولوجيا الكلاسيكية — رغم نفيها — انكار أن الاسـتعمار لم يدعم خلفيتها النظرية والحقلية كذلك(٥) .

ويؤرخ البعض(٦) لعلم الانثروبولوجيا بظهور **اميل دور كايم** فى فرنسا وبواز فى أمريكا ومن بعـدهما جيمس فريزر ومارسيل موس ومالينوفسكى وبعبـارة اخرى فان النشأة الاكاديمية لهذا العلم لا تتعـــدى مائة عام ولا يعنى هذا أن هؤلاء الرواد قد انفصلوا عن التراث الذى رســـخه الآباء الأول أمثـــال مونتسكيو وتايلور ومن قبلهم الرحالة الذين قدموا اسهامات أساسية فالمعرفة العلمية تراكمية وقد استمرت المسيرة وقادها حتى منتصف القرن الحالى رأدكليف براون وايفانز برتشارد وغيرهما .

غير ان الدراسة الحقليـة المتعمقة التى تعـد قداس أقداس علم الانثروبولوجيا لم تبدأ بصورة جادة الا منذ نحو نصف قرن من الزمان ولكم كان أنصار هذا العـلم يتوقعون أن تكون البداية سابقة لهذا بعدة قرون اذ يذكر شتراوس أن المرء يستطيع أن يتخيل أن عام ١٥٥٨ كان هو العام المناسب لانشاء كرسى الانثروبولوجيا بالكوليج دى فرانس (حيث تأسس هذا الكرسى سنة ١٩٥٨) ففى سنة ١٥٥٨ وضع جان لرى أول كتاب له بعد عودته من رحلة البرازيل وظهر كذلك لاندريا تيفى مؤلفـا عن فرنسا القطبية الجنوبية(٧) .

ونحن نؤكد مع جيرارد لكليرك Gerard leclerk أن الحقيقة المتدة من صدور كتاب روسو حول أصل اللامساواة سنة ١٧٥٤ حتى صدور كتابات **كوندرسية** سنة ١٩٧٤ قد شهدت رؤية تقدمية فى الصراع ضد الاقطاع ، وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاما هاجم الكتاب بربرية الاسبان فى الامريكتين وصفقوا للجمهورية الناشئة فى الولايات المتحدة والتى كانت تنشد الحرية والمساواة لاتباعها .

وقد شهدت الفترة الفاصلة بين القرن الثانى عشر والتاسع عشر ظهور بعض الكتابات التى قدمها البعض من أمثال دى جرندو عن المجتمعات الانسانية ومن هذه الوجهة يوسعنا أن ندرك سر اهتمام أوربا بالقبائل البدائية بقصد التعرف على النوع الانسانى لاعادة تصور وتركيب التاريخ البشرى بأكمله نتيجة لذلك وتتبع تقدم الانسان ومراحل هذا التطور ويوضح ذلك كوندرسيه بقوله : « اننا حين نحاول البحث فيما هو مشترك بين مختلف أفراد الجنس البشرى ، وحين نتتبع ذلك من جيل الى جيل فذلك يعنى الاهتمام بتقدم العقل الانسانى والتقدم هذا خاضع للقوانين العامة ... الخ » .

وهكذا لم يخامر المفكرين فى نهاية القرن الثامن عشر ادنى شك فى أن أفراد الشعوب البدائية المتوحشة هم الممثلون المعاصرون للانسان الاول ، بل لقد بذل الرحالة جهودهم لاظهار **الطرائف** فى سلوك سكان المجتمعات البدائية وابراز التناقضات فى تصرفاتهم وأفكارهم التى تبدو أشد غرابة مما ألفوه أنفسهم أو درجوا على اتباعه وبينما حاول البعض السخرية أو تقديم الحلول الكفيلة بتقدم هؤلاء القوم من أمثال دى بومارای P. de pumeraye الذى كان يتهكم على ديانة شعوب داهموت « حين يذكر بأن « الههم هو حيوان اسمه دابوى Daboue وهو يزحف على الارض .. ويتدسونه من سواه » .

ذكر البعض الآخر اننا يجب أن ننكر أنه كان بامكان هذه الشعوب أن تكون أكثر سعادة — وبغض النظر عن ديانتها — لو لم نأت نحن (الاستعمار الغربى) اليها ... (٨) .

ويذكر حسين فهيم أنه اذا كان عصر النهضة فى أوربا هو « كشف للعالم والانسان » ففى هذا يكمن موضوع الانثروبولوجيا وهدفها لذلك يجد المؤرخ لتاريخ الانثروبولوجيا أن لعصر النهضة ينابيعه الانثروبولوجية الاصيلة والعميقة التى تتمثل فى تحصيل المعرفة عن ثقافات لم يكن قد كشف النقاب عنها من قبل أو التوصل لنظرية تفسر أوجه الاختلافات

والتشابهات بين السلالات البشرية وبين الناتج الحضـــارى للشعوب ، كما اسهم عصر النهضة فى دفع حركة الكشوف الجغرافية فى عصر النهضة ومن المعروف أن رحلة كرستوفوكولبس كان لها تأثيرها البارز على التراث الانثروبولوجى حيث حفلت مذكرات هـــذا الرحالة بالتفاصيل الاثنوجرافية التى يغلب عليها الطابع الموضوعى وتخلى عن آلقاء الاتهام على عواهنه فهـــو يذكر « ومع أنه ليس لديهم دين لكنهم ليســـوا وثنيين فهم يؤمنـــون أن القوة والخير توجدان فى السماء ... الخ » .

ولقد أوضحت **الكشوف الجغرافية** بجلاء حقيقة تنوع الجنس اللبشرى وانعكس هذا على ظهور نظريات عن أصل الانسان الاحادى Monogenetic وعن تعدد الاصول الانسانية Polugenetic وتبلورت فكرة العودة الى الماضى لفهم الحاضر وظهـــر ما يعـــرف بالمذهب الانســـانى Humanism وشهد القرن التاسع عشر أيضا ازدهار التبادل التجارى وظهور الرأسمالية الحديثة التى دفعت حركة الاستعمار دفعات قوية حتى كادت الحضـــارة الاوربية تبسط ظلها على أنحـــاء المعمورة كلها وادت الثورة الثقافيـــة الى خضوع التفكير للرؤية الواقعيـــة المـــادية العلميـــة الصبغة التى انعكست على الفلسفة الوضعية والفن الواقعى ، وولد علم الاجتمـــاع على يد كونت بينما أسهمت الجمعيات العلمية مثل جمعيـــة « ملاحظوا الانســـان Les deservateurs de Lhomm فى باريس — والتى اهتمت بتنظيم رحلات الى الخارج لملاحظة الشعوب الاخـــرى سنة ١٨٠٠ — والجمعية الاثنولوجية البريطانية سنة ١٨٤٣ التى تحولت فيما بعـــد الى المعهد الملكى الانثروبولوجى البريطانى وغيرها من الجمعيـــات المختلفة «Royal Anthropological institute of Great Britain and Ireland»

فى بلورة علم الانسان (الانثروبولوجيا) وظهرت مراكز البحـــوث الانسانية بدعم من الحكومات ومن بينها مؤسسة سمسونيان الشـــهيرة سنة ١٩٤٦ بالولايات المتحـــدة الامريكية التى لعبت دورا بارزا فى هـــذا الشأن .

كما أسهمت **المتـــاحف** فى ظهور الانثروبولوجيا ففى الولايات المتحـــدة أسست جامعـــة هارفارد متحفـــا للاركيولوجى والاثنولوجيا تحت اشراف فردرك بوتنام .

أما اندور الاكبر فقد لعبه الرحالة الذين كانوا يسعون لوصف تقاليد الشعوب اثنى زاروها فقد وصف الاب جيروم الاحبـــاش وبوركهـــارت أهالى الشام وألمـــرب بصفة عامة وتاثر الرحالة بالنظريات قوائم تحوى أسئلة عن المعلومات التى يريدون الاطلاع عليها الى الاشخاص المقيمـــين

بين الشـــعوب البـدائية للاجابة عليهـا ولعـل من اهم هـذه القوائم ما يعرف بمذكرات واستقصاءات فى الانثروبولوجيا Notes and queries in Anthropology والتى نشرت سنة ١٨٧٤ (٩) .

ويعـد اميل دوركايم الاب الروحى لعلماء الاجتماع والانثروبولوجيـا معـا فقد درس اميل دوركايم الانثروبولوجيـا الثقـافية والفولكلور ويمثل مؤلفـه عن « الصور الاوليـة للحياة الدينية سنة ١٩١٢ آخر اعمـاله الهـامة ، وقد حاول تطبيق مفاهيمه عن دور القـوى المجتمعية فى الدين — فى اكثر مظاهره الاولية — حيث وقع اختياره على قبيلة « الارونتـا » فى استراليا لدراسة الدين مع ربطه بباقى نظم المجتمع وانساقه الاجتماعية.

وقد نفذت بصـيرة دوركايم الى هالبواس Halbwachs وجان هاريسون J. Herrison وفرانسيس كورنفورد Cornford والانثروبولوجى كولودليفى ستراوس Strauss وديميزيل Dumezil الى الحـد الذى جعل كوزر يؤكد : «He is, if not the father, then the grandfather of us all».

ومن المسلم به أن هناك ارتباطا وثيقا بين الانثروبولوجيا والدراسات الحقلية غير أن هذا لا يتنافى وما يؤكده ايفانز برتشارد كذلك من انه بدور النظريات والفروض « فلن يمكن القيام بأى بحث انثروبولوجى لان الكشف عن الاشياء والعثور عليها لا يتم الا بالبحث عنها » (١٠) . فالدراسة الحقلية غير الموجهة نظريا هى حشد غير منظم للوقائع لا فائدة ترجى منه .

وهكذا بدأ هذا العلم من خلال كتابات الرحالة الذين أهتموا بالقبائل والثقافات والشـعوب الغريبة عنهم فاهتموا بتسجيل كل ما يقع تحت أيديهم عن هؤلاء القوم وكانت أخلاق الرحالة وأمزجتهم واتجاهاتهم تصيغ رؤيتهم وكتاباتهم عن البشر .

غير أننا لا نوافق ايفانز برتشارد فى أن هـذه الكتابات المتعمقـة عن تلك الشعوب قد تبلورت منذ منتصف القرن السـابع عشر(١١) ، فالكتابات التى قدمها **الرحالة العرب** لم يزح الستار عنها حتى الآن(١٢) . ويستشهد البعض بما ذكره « كراتشوفسكى » عن فضل العرب فى تطوير جميع العلوم ، حيث يصل الى نتيجـة مؤداها بأن دور العرب واسهامهم فى الصرح للانثروبولوجيا ما زال مغبونا اشد الغبن ويكتنفه الغموض اذ أن كارانتون كون يؤكد أن الرحالة العرب هم الذين مهدوا الطريق أمام الرحالة الغربيين وأمام الكشوف الجغرافية نفسها ومن هؤلاء العـرب

ابن فضلان الذى زار العديد من الاقطار ، والبيرونى الذى زاد الهند وقارن عاداتهم بادات الفرس واليونان والعرب واليهود والمحبوس . وابن خلدون الذى تحدث عن العديد من عادات الشعوب والقبائه التى طاف بها ، وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة الخلافة الاسلامية فى تلك الحقبة . قد وصف هؤلاء الرحالة اخلاق هؤلاء الشعوب وممارساتهم للسحر والتوتمية ، والافراح ، والاحتفالات الجنائزية وغيرها وربما اتفق هؤلاء الرحالة فى ربط العادات الاجتماعية بالثقافة العمة أو بالبناء الاجتماعى — باستثناء حالات قليلة كما فى حالات ابن فضلان فى وصفه لعادات الزواج فى البلاد التركية وبلاد الصقالبة والروس — غير أنهم استخدموا فى جمع مادتهم الاثنوجرافية بعض الاساليب الانثروبولوجية كالملاحظة والاستعانة بالشخصيات الاخبارية فضلا عن انهم قد أبرزوا الكثير من الانماط الثقافية لهذه البلدان .

ويتضح جدوى اسهام هؤلاء الرحالة العرب اذا عرفنا أنه لم يكن أحد من الآباء الاول لعلم الانثروبولوجيا حتى نهاية القرن التاسع عشر قد قام بأى دراسة حقلية حتى أطلق عليهم اصحاب المقاعد الوثيرة Archair Anthropolosists (باستثناء مورجان) ويذكر ايفانز برتشارد على لسان وليام جيمس للتدليل على ذلك أنه حين سأل جيمس فريزر sir James frazer عن الشعوب البدائية التى زارها صاح قائل « العياذ بالله » (١٣) .

ولقد بدأت الرحلات الانثروبولوجية فى الاصل فى أمريكا وذلك حين قام **بواز** Boas بدراسة قبائل البافين فى كولومبيا البريطانية ثم فى انجلترا حين قام **هادون** Haddon على راس بعثة جامعة كمبردج بدراسة منطقة مضايق توريس Torres فى المحيط الهادى الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال استراليا وترتب على هذه الرحلة أمرين :

١ — **بدء ظهور الانثروبولوجيا** كعلم يحتاج للتخصص .

٢ — **اعتبار الدراسة الحقلية عنصرا جوهريا** فى هذا العلم(١٤) .

ويرى غالبية علماء الانثروبولوجيا بأن المجتمعات « **انساق طبيعية** » تعتمد مكوناتها بعضها على البعض الآخر ويدخل كل جزء فى عدد من العلاقات فالبناء الاجتماعى يتكون من انساق Systems **والحياة الاجتماعية يسودها نوع من الترتيب** لا يتيسر أن تسير الحياة الاجتماعية بدونه . فكان للنظم والانساق الاجتماعية وظائف فى البناء الاجتماعى

الذى يتكون من علاقات اجتماعية مقررة(١٥) وعلى الرغم من أن البعض أمثال ايفانز برتشارد وشابيرا Schapera ولوسى مير Mair يعتمدون بصورة واضحة على التاريخ فان مظم علماء **الانثروبولوجيا « الوظيفية »** الذين يركزون على الدراسة الآنية أو التزامنية Synchronic أمثال مالينوفسكى Malinowski كانوا ينفرون من ذلك مما جعل تركيزهم الاساسى على العلاقات الاجتماعية أكثر من التحول Transition الذى تتعرض له الثقافة المادية وغير المادية اذ أن مالينوفسكى يؤكد على التصور الستى للوحدة والاداء الوظيفى دون الاهتمام بالبحث عن جذورها التاريخية ، ويعتقد البعض (١٦) أن الانثروبولوجيا قد اصطبغت فى الحقبة من منتصف عشرينيات هذا القرن الى منتصف الاربعينيات بالفكر « الوظيفى » حتى أن مصطلح الانثروبولوجيا أصبح مرادفا للانثروبولوجيا الوظيفية وأدى ذلك لنتائج ايجابية وسلبية فى الوقت نفسه فقد ازداد الاهتمام بمسألة التبادل بين النظم داخل الوحدة الاجتماعية فى اطار زمانى ومكانى واحد وتلاشى الاهتمام باعادة بناء العملية التاريخية .

ولا يعنى هذا أن على العالم الانثروبولوجى استبعاد التاريخ تماما فنحن نستبعد فقط جواز العودة الى أساس الحضارة الانسانية أو للافكار التطورية الظنية المتصلة بظاهرة معينة كما أن التركيز الآن يؤكد على العمليات التى تتم أمام أعيننا بالنسبة للحاضر .

ومن المتفق عليه الآن أننا نلجأ الى **التاريخ** طالما نحن ندرس مجتمعات لها تاريخها المكتوب وآثارها التى يمكن دراستها أو الرجوع اليها(١٧) .

ويعد مالينوفسكى كما أسلفنا من أوائل الذين حددوا شروط هذا العلم الجديد وقد اعتبر الانثروبولوجيا دراسة للمجتمعات الاخرى غير الغربية فى مواجهة الحضارة الغربية ، وهذه المواجهة الصريحة بما تحمله من احترام **لبنيات الشعوب الاخرى** كانت الشكل الاساسى لقيام هذا العلم فلا يسوغ أن نصف سلوكهم بالغرابة أو « اللاعقلانية »(١٨) .

وهكذا انطلقت الانثروبولوجيا لتصبح نظرية تحليلية للمجتمع وأنساقه لا مجرد تجميع لوقائع مجزئة أو خيالية ، وبدأ علماء الانثروبولوجيا يعلنون ما ذكره لوبرسيه دى لاريفير Dela Riviere أن اهتمامات المجتمعات البدائية ومصالحها لا تختلف كليا عن اهتماماتنا وعن مصالحنا ... « أدخلوا الى الشعوب التى ما زالت مجهولة .. وقدموا أنفسكم لها بطريقة لا تثيرهم ... الخ » . وتذكر لوسى مير فى مؤلفها عن الانثربولوجيا

الاجتماعية أن على علماء الانثروبولوجى — تمشيا مع رأى ايفانزبرتشارد — أن يهتموا بالكشف عن انتظام الحياة الاجتماعية لا الوصول الى القوانين التى يخضع لها الناس .

كما أن لوسى مير توافق ليفى شتراوس على أننا ينبغى ايضا أن نهتم بالتاريخ وشواهد الماضى التى لها اثرها فى تطور الانساق الاجتماعية فى الحاضر فالتاريخ هنا يعد وسيلة لالقاء الضوء على الحاضر دون ان نضيف له من عندياتنا العديد من التأويلات والتصورات .

واذا كانت الانثروبولوجيا شأنها فى ذلك شأن علم الاجتماع قد نظرت الى الشعوب المتنزلة فى العالم الثالث نظرة تعكس تدنى هذه الشعوب — فى مقابل تقدم شعوب أوربا الغربية والولايات المتحدة — وحاولت دراستها لضمان استغلالها فان الحاجة ماسة اليوم لاستخدام مناهجها المفيدة والنوعية فى **الدراسة الحقلية المتعمقة** التى تجمع بين المنهج العلمى الرصين والنزعة الانسانية غير المتحيزة وهى النزعة التى تناهض الاستعمار والتفرقة العنصرية وتسعى لفهم الانسان المعاصر ومشكلاته **فى اطار شمولى** من خلال الدراسة المقارنة للثقافات .

وغير خاف أن النظرة الكلاسيكية العنصرية التى خيمت على الدراسة الانثروبولوجية والتى كان من شأنها فيما بعد أن تربط بين هذا العلم وبين الاستعمار (الذى كان يجثم على معظم أنحاء افريقيا وآسيا) قد بدأت تنتشع مع بواكير ستينيات هذا القرن فقد انطلق علماء الانثروبولوجيا من وجهات نظر مخالفة تماما للاسس التى قامت على اساسها النظريات **الانثروبولوجية المحافظة** بينما بدا علماء العالم يتساطون عن دور هذا العلم فى بناء مجتمعاتهم لتلحق بركب الحضارة الانسانية حيث قاموا بدراسة تراث المستشرقين دراسة نقدية واعية كما اهتموا بعمل وجهد مماثلين فى دراسة مجتمعاتهم المحلية(٢٠) .

وتعرف الانثروبولوجيا بأنها علم الانسان الذى يدرس المجتمعات الانسانية وبصفة خاصة **المجتمعات البسيطة والمتعزلة** .

ولقد أدرك علماء الانثروبولوجيا منذ زمن طويل أن هناك علاقة قوية تفاعلية بين كل نظم المجتمع وانساقه الاجتماعية ، وأن دورهم يتلخص فى مجرد وصف هذا التفاعل — من خلال الاحداث اليومية والعادات والتقاليد وصفا دقيقا — غير أنهم قد أدركوا فى مرحلة لاحقة انه لابد من وجود فروض نظرية توجه الدراسة واذ ذاك فان الاحداث

والوقائع ليس لها اى معنى او اهمية فى حد ذاتها وانما تكتسب معناها الاجتماعى فى ضوء **نظرية عامة** تسوس الدراسة وتوجهها بل ان الانثروبولوجيا لابد أن تتم على مستوى معين من **التجريد** الذى يرتفع بالباحث عن مستوى الحقائق الجزئية والوقائع المحسوسة الى **التحليل البنائى**(٢١) .

ومن الواضح أن الكثير من علماء الانثروبولوجيا اصبح شغلهم الشاغل الآن **العلاقات الاجتماعية المستقرة والدائمة والجماعات الاجتماعية التى تتميز بدرجة عالية من التماسك** ، وهم يصرفون النظر بالتالى عن العلاقات بين الافراد والجماعات القابلة للتغير أو الجماعات التى سرعان ما تتغير (بتغير الافراد الذين يؤلفونها) ومن أبرز الدراسات التى تعبر عن هذا الاتجاه دراسات مالينوفسكى،وسلجمان وايفانزبرتشارد وغيرهم من الرواد .

ومن الواضح أنه لابد من وجود درجة معينة من الاتساق فى الحياة الاجتماعية وهذا الاتساق يمكننا من الحديث عن بنية عامة للمجتمع ومهمة الانثروبولوجى الاجتماعى عادة الكشف عن هذا البناء الذى ينطوى بدوره على عدد من الابنية أو الانساق الداخلة فى تكوينه كالنسق القرابى والنظم الاجتماعية التى تضمها هذه الانساق .

ومن الواضح ان الاهتمام الراهن لعالم الانثروبولوجيا يدور حول العلاقات **والقضايا والظواهر** — لا للشعوب والقبائل نفسها — التى تبرز ملامح الحياة الاجتماعية واتساقها ومشاكلها .

وللعمل الميدانى وللدراسة الانثروبولوجية الحقلية الجادة شروطا محددة فالدارس لانثروبولوجى اليوم يترك مكانه الوثير راضيا وسلاحه هو ايمانه بعمله وقلمه الرصاص ودفتر صغير حيث يجمع ما يقوله الرواه ، ويسجل الاخبار ويرتاد القرى والشواطىء والادغال يزور ويرحل .. ويبحر .. — ليرى كيف يعمل الناس — ويراقب ويدرس وتأتيه البيانات فى نكهتها الحقيقية من خلال الدراسة المتعمقة التى لا يقنع فيها بالمعلومات المنقوصة والاخبار القليلة والمحادثات اليسيرة فالقيام بأبحاث انثروبولوجية عمل شاق غير أن فائدته على ما يذكر ريفرز كبيرة ومؤكدة اذ تكمن فيها ارادة فهم حياة المجتمعات مكا هى ، وقد أجاد مالينوفسكى ايضاح هذه النقطة ابان عمله فى ماليزيا حين قال : « أن الطريقة التى يتكلم بها البعض الذين أمدونى بالمعلومات عن السكان الاصليين .. تتم عن

ذهن غير مجرب وقد كانت آراؤهم فى الغـالب مثقلة بالاخطـاء والاحكام المسبقة .. فالعالم فى هذا الميدان يحاول ان تكون وجهة نظره موضوعية ، وهو يدرس بنفسه دون تحيز أو ترفع (٢٢) .

المدارس الانثروبولوجيـــة :

لا يخفى على الدراس الانثروبولوجى أن هناك من يرى الانثروبولوجيا اقرب فى طبيتها الى الفن Art منها الى العـلم Science — مثلهـا مثـل الخدمة الاجتماعية على سبيل المثال — وانها تلجأ الى الدراسة **الاثنوجرافية الوصفية** غير أن الجانب الاكبر من العلماء يعارضون هذه النظرة ويعتبرون الانثروبولوجيا الاجتماعية علما تستخدم العلماء فيه الطريقة « الاستقرائية » التى تعتمـد على الملاحظة والمقـارنة وتصنيف الجمـاعات التى تتميز بدرجة عالية من التماسك والاستمرار (٢٣) ويمكن القول بأن **الاتجـاه الثقـافى** Cultural يغلب على الدراسات الانثروبولوجيـة فى امريكا بينما يغلب **الاتجـاه البنائى** Structural الذى يركز على دراسـة البناء الاجتمـاعى Social structure على علماء الانثروبولوجيـا فى بريطانيا والواقع أن الظروف العامة التى لابست نشأة الانثروبولوجيا فى القـرن التاسع عشر فى كل من بريطانيا وأمريكا مسئولة الى حد كبير عن قيام هذين الاتجاهين فقد اتجه علمـاء الانثروبولوجيا الانجليز الى دراسـة المجتمعـات المحلية (المجتمعات القبليـة) الخاضعة تحت سيطرتهم فى أفريقيا بينما اتجه العلمـاء الامريكيون لدراسـة قبـائل الهنود الحمر فى أمريكا ذاتها وهذه القبائل — كما يرى ايفـانز برتشارد — ليس لهـا بالضرورة تقاليد موغلة فى القـدم كما أنها تشكل بصـورة أو بأخرى مجتمعات مجزأة غير متماسكة مما يسهل دراسة ثقافاتهـا اكثر مما يتيح سبرغور ابنيتها الاجتمـاعية ، وهذا الاختلاف هـو الذى أفرز لنـا هذه التفـرقة « الكلاسـيكية » — الشكلية — بين المدخـل « البنائى » والمدخل « الثقافى » فى الانثروبولوجيا (٢٤) .

ويعتقد دافيد بيدنى Bidney (٢٥) أن ايفانز برتشارد قد اختزل فكرة الخـلاف بين المدرسـة الامريكية والبريطانية حين ذكر أن الجناح الاول قد تأثر **بتـايلور** Tylor وغيره من الآباء الاول لاهتمامهم بالهنـود الحمر وأن الجناح الثانى قد تأثر **بمورجان وسبنسر وكايم** مع تركيزهم على القبائل والمجتمعات المحلية التى خضعت للاستعمار البريطـانى وهو بهذه الصورة قد تجاهل أعمال بواز Boas وكروبر وسـابير Sapir ، ولوى Lowie ولنتـون Linton وسبير وهى الاعمال التى كان يمكن

— اذا أمعن النظر اليها — أن تعطى له مبررات أخرى أشد واقعية للفرق بين المدرسة الامريكية والبريطانية .

ويشير بيدنى (٢٦) الى أن **الصراع بين الجناح الاول والثانى** قد حدا بالبعض أمثال ميردوك أن يتهم المدرسة الانجليزية بأنها ليست مدرسة أنثروبولوجية على وجه الاطلاق أو حد قوله :

«The British school are actually not anthropologists but professionals of another category».

والامر الذى لا شك فيه كما يذكر البعض أن الدراسة الانثروبولوجية للبناء الاجتماعى مع اغفال الاشارة للثقافة أو العكس هى دراسة مجحفة تماما ومتحيزة علميا ، وقد تبنى هذه النظرة البعض أمثال فيرث Firth ، ونادل Nadel ، وفورتس Fortes .

واذا كان ميردوك — قد أظهر تحيزه للثقافة بقوله :

The special province of Anthropology in relation to its sister disciplines is the study of «culture».

فان البعض على الطرف الآخر يعتقد أن تركيز الانثروبولوجيا على النظم والعلاقات الاجتماعية يجعل التشابه بينها وبين علم الاجتماع كبيرا حتى أن رادكليف براون Brown يرى أنه ليس هناك ما يمنع عن تسمية الانثروبولوجيا الاجتماعية بعلم الاجتماع المقارن Comparative Sociology والحقيقة أنه مع وجود الاتفاق بينهما فى الاتجاهات والادوات الا أن لكل منهما صبغة متميزة كما أن وجودهما معا سيعمق دون شك من نظرتنا وفهمنا للمجتمعات الانسانية ، ومن هنا فان علماء الانثروبولوجيا أصبحوا اليوم ينفرون من الفصل بين الجانب الثقافى والبنائى كما أن **التكامل بينهما** أكثر وضوحا عن ذى قبل (٢٧) .

ويعتقد شتراوس أن الانثروبولوجيا تتسم بالشمول ، والتجانس فضلا عن اتفاق العلماء فيها على المبادى الاساسية (رغم اختلافاتهم الثانوية) كما أنها تهتم بدراسة المجتمعات الانسانية فى شتى أشكالها كما تنظر للمجتمعات المختلفة اليوم على أنها ليست مسئولة — بصورة أو بأخرى — عن تخلفها ، ولقد أصبح راسخا فى ذهن عالم الانثروبولوجيا اليوم الا يصف هذه القبائل المنعزلة بالخمول أو اللابالاة أو السذاجة

فالامر كله تلخصه الفـــروق الثقافية بين ثقافة هؤلاء القـــوم وثقافة الانثروبولوجى (اذا كان اجنبيا عن المجتمع) حيث يورد شتراوس على سبيل المثـــال ما يسجله مؤخرا احد علمـــاء الانثروبونوجى عن قبـــائل « الفاهوكى ــ كاما » فى غينيا الجديدة فقد تعـــلم هؤلاء الاهالى لعبـــة كرة القـــدم وشرعوا قرب نهاية المباراة يضاعفون عدد الجـــولات حتى يصبح عدد الهزائم والانتصارات متساوية تماما فاللعبة تنتهى عندهم ــ بخلاف ما يشيع عندنا ــ بالتعادل ، والتاكد من انه ليس هنـــــاك من ينتصر على الآخر (٣٨) .

ويعنى هذا أن عالم الانثروبولوجيا يتعمق فى فهم السلوك المجتمعى وتفسيره مهما بدا هذا السلوك غريبا او طريفا او غير متماشيمع ما يالفه الباحث نفسه فى مجتمعه وهكذا تدرس الانثروبولوجيا الانســـان بصورة شاملة من كافة جوانب حياته (٢٩) .

وينبغى أن ننوه فى نهاية هذا المبحث أن الانثروبولوجيا الاجتماعية نفسها تضم **العـــديد من الفروع** من ابرزها الانثروبولوجيا الاقتصـــــادية والريفية والحضرية والسياسية والدينية والطبية والصناعية وانثروبولوجيا التنمية .

« المصـــــادر »

١ — R. F. Murphy, Cultural and social Anthropology, New Jersey., 1986, P. 231

٢ — Nbid. pp. 7-8.

* يظهـر هذا النـوع من التعصب عندما ينظر الفـرد أو الجمـاعة الى ثقافته على انها الثقافة الراقية بالفطرة ويتضمن هذا الاتجـاه حكما بالدونيـة على الثقافات الاخرى . ويعكس التعصب السلالى عدم المقدرة على تقدير وجهة نظر الآخرين ذوى الثقافات المختلفـة بما تتضمنه من لغة ودين وأخلاق كما يعكس الانتقـار الى النظـرة الانسانية الشمولية وفهم المشاكل التى تواجه البشر فى المجتمع » .

محمد عاطف غيث — قاموس علم الاجتماع — الهيئة العـامة للكتاب ١٩٧٩ ص ١٦٣ ، ص ١٦٤ .

٣ — Op. Cit. p. 6.

٤ — حسين فهيم — قصة الانثروبولوجيا — عالم المعرفة ص ٩٨ — الكويت — ١٩٨٦ — ص ٤٠ ، ص ٧٩ .

٥ — محمود عودة — تاريخ علم الاجتماع — دار النهضة العـربية — بيروت — بدون . الفصل الاول وانظـر أيضـا جيرار لكلوك — الانثروبولوجيا والاستعمار ترجمة جورج كتوره — معهـد الانمـاء العربى — بيروت ١٩٨٢ ص ٢٢ ؛ ص ٤٥ وص ٢٠٥ ؛ ٢١٥ .

٦ — ايفانز برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة أحمـد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٩ ، ص ٢٠ .

٧ — ك.ل.شـتراوس — مقالات فى الاناسة — اختـارها ونقلهـا للعربية حسن قبيسى — سلسلة الفكر المعاصر — بيروت ١٩٨٣ —

٨ — لكلرك — المصدر السابق ص ٢٠٩ : ص ٢١٦ .

٩ — حسين فهيم — المصدر السابق ص ٨٠ : ص ٨٦ ، ص ١١٧ : ص ١٣٠ .

١٠— ايفانز برتشارد — المصدر السابق — مقدمة المترجم .

١١— المصدر نفسه — ص ٨٦ : ص ١٠٤ .

١٢— أحمد الربايعة — اسهامات بعض الرحالة العرب فى الدراسات الانثروبولوجية المبكرة فى مجلة دراسات — المجلد العاشر عمان ١٩٨٣ — ص ٢٨ وما بعدها .

١٣— ايفانز برتشارد — المصدر السابق ص ٢٧ ، ص ٥٣ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

١٤— المصدر نفسه ص ٧٣ : ص ٧٥ .

١٥— على ليلة — البنائية الوظيفية — دار المعارف — القاهرة ١٩٨٠ — ص ١١٣ : ص ١٢٣ .

١٦— نبيل صبحى — الانثروبولوجيا الاجتماعية — دار المعرفة الجامعية — ١٩٨٥ ص ٤٨ : ص ٥٢ .

١٧— ليفى شتراوس — المصدر السابق ص ١٥٠ : ص ١٥٥ .

١٨— حسين فهيم — المصدر السابق — ص ١١٦ : ص ١٣٠ .

١٩— لكلرك — ص ٦١ ، ص ٢٠٥ : ص ٢١٧ .
وانظر أيضا مير — الانثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة علياء شكرى وحسن الخولى ، مراجعة محمد الجوهرى — القاهرة — سنة ١٩٨٥ — الفصل الثالث .

٢٠— حسين فهيم — المصدر نفسه ص ٩٥ والخاتمة .

٢١— شتراوس — المصدر نفسه — ص ١٠١ .

٢٢— لكلرك — المصدر نفسه — ص ٥٦ : ص ٥٩ .

٢٣— أحمد أبو زيد — البناء من ص ٣١ : ص ٦٦ .

٢٤— المصدر نفسه من ص ١٧٦ : ص ١٧٩ .

٢٥— The Theoretical Anthropology N.Y. 1967.pp. 98 : 101.

٢٦— Ibid. p. 102.

٢٧— محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٧ — ص ٤٦ .

٢٨— ل.شتراوس — المصدر السابق ص ١٠٦ ، ص ١٢٤ ، ص ٢٤ .

٢٩— محمد الجوهرى — علم الانثروبولوجيا — دار المعارف — ١٩٨٠ — الفصل الاول .

الفصـــــل الثـــانى

« علم الانســـــان وفروعه »

١ ــ الانثروبولوجيا الفيزيقيـــة :

يذكر جابريل لاســكر G.W. Lasker (١) فى معــرض حــديثه عن الانثروبولوجيا الفيزيقية Physical Anthropology الحديثة ان هـــذا المصطلح يعنى دراسة ميكانزمات التطور الانسانى . فهى فى نظره تعنى بدراسة مشكلات خاصــة بجسم الانسان غير أن هذه المشــكلات لا تفهم بدورها الا من خلال الجماعة الانسانية حيث يحرص الانثروبولوجى على دراســة التشــابه والاختلاف بين الجماعات الانسانية بحسب خصائص السن والنوع ومحل الميلاد وطرق الحياة ، ومن هنــا فانه لا يدرس هذه الخصائص الا من خلال اتصالها بالثقافة Culture (التى عاش أو يعيش فيها الانســان) ، ومن هنا فان الثقافة نفسها هى التى تفسر صـــور الاختلاف فى أساليب الحياة وفى السلوك المتعلم ويذكر لاسكر أن دراســة التركيب الجسمى ، والبنية ، والسلالات ، والنمو الانسانى ، والوراثة والهندسة الانسانية ، والعوامل البيولوجية الكيميائية ، واشكال العظام والاسنان ضرورية للدراسة فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقة .

ويرى بيلز Beals وهويجــر H. Hoijer (٢) ان هذا الفــرع من فروع الانثروبولوجيا قد تعرض لقدر كبــير من الاهتمــام والرعاية منذ مطلع الحرب الثانية وهذا الاهتمام يفوق ما شهدته الفروع الاخــرى فقد زاد الانتفــاع من المورفولوجيا الجسمية وقيــاس الهياكل العظميــة والابعاد الجسمية وأحجام الجمجمة وقامة الجسم وبرزت دراسات حديثة فى مجالات الوراثة والبيولوجيا وغيرها حيث يزداد الاهتمام بدراسة وتحليل الجماعات الانسانية ودراسة الانسان نفسه من خلال عملية التطور اذ أن البشر المعاصرين يتشابهون بعضهم مع بعض تشابها كاملا فى أبنــاء الاساسى حيث ينتمون الى ما يعرف بالانسان العاقل رغم الفوارق الموجودة بينهم فى المظهر الخارجى .

وتتضمن الدراســة فى هذا الفرع دراســة **التغيرات البيولوجية** من

الحمل الى البلوغ وتأثير **الظروف البيئية** والنواحى **الايكولوجية** ودراسة **ميكانزمات الوراثة** فى ضوء الاختلاط بين القبائل والشعوب الانسانية والتزاوج بينها .

ومن الواضح ان عالم الانثروبولوجيا الفيزيقية يستعين بمجموعة كبيرة من العلماء الذين يساعدونه فى دراسة البقايا العظمية والادوات والاطلال والاوانى وتحدد عمر الحفريات والسلالات المكتشفة ومن بين هذا الفريق المتخصص فى هذا الفرع يمكن أن نلمح عالم التاريخ **والآثار وعالم الاركيولوجى** Archeology عالم آثار ما قبل التاريخ (للربط بين احداث وترتيب حدوثها) **وعالم الطبيعة وعالم الجغرافيا والجيولوجيا وعالم الوراثة** والمتخصص فى الهندسة البشرية لاجراء المعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة مع فهم البيئة والتضاريس فضلا عن **عالم الاجتماع وعالم الانثروبولوجيا الثقافية** لدراسة الثقافة المحيطة بالانسان .

ومن المعروف أن أبرز الدراسات فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقية ترجع الى مجهود العالم **بيرت** B. Deperthes سنة ١٨٣٠ .

ونورد هنا أبرز النماذج الحضرية والتى بنيت عيها بدورها العديد من الدراسات وقادت للعديد من النتائج فى هذا الفرع من فروع الانثروبولوجيا :

(أ) انسان جاوه :

وقد عثر عليه فى شمال جزيرة جاوه سنة ١٨٩١ العالم الهولندى يوجين ديبوا E. Dubois .

(ب) انسان الصين القديم :

واكتشفت بقاياه لاول مرة سنة ١٩٢٧ فى احدى كهوف قرية شوكوتين غرب بكين وطوله نحو ١٥٠ سم وحجم من بين ١٠٠٠ : ١٢٠٠ سم٢ وكان رأسه أكثر تراجعا للخلف ويتميز انسان الصين عن انسان جاوه بكثرة ما عثر عليه من بقايا حضارية من العظم وادلة أخرى تبين استخدامه للنار ومعيشته فى جماعات وسكنه فى الكهوف .

(جـ) انسان هايدلبرج Heidelberg :

وقد اكتشف بالقرب من مدينة هيدلبرج الالمانية سنة ١٩٠٧ وعثر

معه على بقـــايا ادوات ، ويرجح البعض انه كان معاصرا لانســـان الصين القديم .

(د) **انســـــان نياندرتال** Neaderthalensis :

وعثر عليه فى وادى نياندر بحوض ألرور فى ألمانيـــا ويتميز هـــــذا الانســـان . بحجم مخه الكبير الذى يبلغ ١٤٠٠ سم٣ كما يتميز بجبهـــــة شديدة الانحـــدار وبروز واضح لعظـــام الحاجبين وقد تمكن بدوره من اصطياد الحيوان واستخدام الآلات الحجرية البسيطة وتمكن من اشـــعال النار والمعيشة فى جمـــاعات ، ويرجح كذلك انه كان يدفن موتاه مع بعض الادوات اعتقادا منه فى الخلود والبعث وكان لاستقراره فى كهوف متجاورة اثره الكبير فى تشابه الطابع الجمعى للحيـــاة والحياة الروحية المشتركة . التى ترجح وجود شكل للعبادة وانتشار للتعاليم الدينية .

(هـ) وقد تقدمت الانثروبولوجيا ألفيزيقية بفعل توفر معلومات عن الانسان الحديث من خلال اكتشـــاف **انســـــان كروماينيون** Cromagnon فى فرنسا سنة ١٨٦٨ حيث بلغ طوله نحو ١٧٠٠ سم وحجم مخه حوالى ١٦٠٠ سم٣ حيث بدات تبرز عظـــام الحاجبين وعظام الذقن وتعـــددت الادوات الحجرية المكتشفة معه كالرماح وغيرها ، وقد اطلق على الحضارة التى كان يعيشها الحضارة الاورجيناسية Aurignacian .

(و) **انســـــان جريمالدى** Grimaldi :

وقد عثر على بقاياه فى فرنسا وبلغ طوله نحو ١٦٠ سم وحجم مخه نحو ١٤٥٠ سم٣ وقد تميزت حضارته بصـــناعة اسلحة الصـــيد وباقى الادوات .

(ز) **انســـــان شانسيلد** Chancelade :

واكتشفت بقاياه كذلك فى فرنسا وتميزت حضارته باتقان صـــناعة

(*) أنظر فى نقد النظرية الداروينية والبقـــايا البشرية المؤلف الذى كتبه شاكر باسيليوس وآخرون بعنوان النشوء والارتقاء بين الواقع العملى والتصور العلمى — مكتبة مصر — القاهرة ١٩٧٩ .

الادوات ، وازدياد حدة الصراع بينه وبين الحيوانات الاخرى . وقد سكن هذا الانسان للكهوف، ويقسم معظم علماء الانثروبولوجيا الفيزيقية السكان فى عالم اليوم الى ثلاث مجموعات جنسية كبرى هى مجموعة القوقازيين والمغول والزنوج وهى ما يعرف بالجنس الابيض والاصفر والاسود (٣) .

٢ — الانثروبولوجيا الثقافية :

يذكر البعض ومن بينهم فردريك هولس (١) F.S. Hulse انه عن طريق الاهتمام بالثقافة وحدها كمبحث متسق اشتقت الانثروبولوجيا اتساقها الفعلى .

ويذكر أبو زيد (٤) أن الانثروبولوجيا فى امريكا تكاد تصطبغ بصبغة ثقافة خالصة (*) ويستشهد بما ذكره ايفانز برتشارد فى تعليله لغلبة هذا الاتجاه انه اما لان قبائل الهنود الحمر كانت تشكل جماعات لكل منها شخصيتها المستقلة واما لعزوف العلماء انفسهم عن الالتزام بالفترة الطويلة التى تستلزمها الدراسة البنائية للمجتمع اصطبغت الانثروبولوجيا بصفة ثقافية . فالمجتمع بالنسبة لانصار الاتجاه الثقافى **وسيلة او وعاء توجد فيه الثقافة** اى انه مجرد شرطا ضرورى لوجودها فمن خصائص الثقافة **تمايزها** عن الافراد الذين يحملونها ويمارسونها فى حياتهم الشخصية اذ انها تمثل طرق المعيشة ، وانماط الحياة ، وقواعد العرف ، والتقاليد والفنون، والتكنولوجيا السائدة ثم ان من خصائص الثقافة **الاستمرار** فهى تنتقل عبر الزمان من جيل الى جيل بل انها **تنتشر** من مكان لاخر نتيجة للعملية التى تعرف باسم الاتصال الثقافى بين الشعوب حيث تنتقل السمات الثقافية Cultural traits من الثقافة الاقوى الى جاراتها الأضعف . كما أن من خصائصها ايضا **التعقيد** لاشتمالها على عدد كبير من الملامح العامة او « العموميات » Universals التى يشترك فيها كل أعضاء المجتمع القومى كاللغة والمعتقدات الدينية ... الخ .

ولا يمنع هذا أن لكل مجموعة من البشر ثقافتها الخاصة او «الفرعية» Sub Culture ومن هنا تبرز أوجه **الاختلاف** والتنوع الثقافى .

(*) يشذ عن ذلك علماء الانثروبولوجى فى الولايات المتحدة الذين تأثروا بأفكار عالم الانثروبولوجيا البريطانى رادكليف براون وكتابات المدرسة الفرنسية ورائدها اميل دوركايم .

وقد قدم تايلور سنة ١٨٧١ تعريفـا للثقافة وجد رواجا شـديدا لدى معظم العلمـاء حيث اعتبره البعض من التعـريفات الاساسية فيها هو جون جانوش J.B. Janusch يذكر أنه من افضل التعريفات وأنه قد استحوذ على أهتمام مورجان وكروبر وهويت ، والثقافة لدى تايلور هى هـذا الكل المعقـد الذى يتضمن المعـرفة والمعتقـدات والفن والاعراف والقانون والعادات واى امكانيات وتقاليد مكتسبة بواسطة الانسان كعضو فى مجتمع .

بينما يؤكد بارسونز ومن بعده ميرفى وغيره من علماء الانثروبولوجيا أن الثقافة هى **مجمـوعة التوقعات** «set of expectations» .

فهى ترتكز على **نظام متسع من الرموز** ولاسيما الكلمات ، ومن هنا تأخذ اللغة مكانتها لدى عالم الانثروبولوجيا الثقافية فهى الوسيلة الاسـاسية للاتصال بين البشر ونقل الثقافة (٧) .

وتتضمن الثقافة اذن كل مجالات الفكر والمعـرفة وكل انماط السلوك فالمفهوم حقيقـة يتضمن **تجـريد السلوك الفعلى** ويستوجب البحث عن تعميمات لهذا السلوك من خلال الرموز المستخدمة فى المجتمع وهو يبتعـد بهذا عن التركيز على الانماط السلوكية الفردية وعن كل اداة — على حدة — ينتجها الناس بأنفسهم ويستخدمونها .

ومن هنا فان عالم الانثروبولوجيا الثقافية يهتم **بتتبع النمط الثقـافى** Pattern **عبر التاريخ** حيث تنتقـل الثقافة عبر الأجيال من خلال عملية التعـلم .

والباحث فى الانثروبولوجيا الثقافية يلاحظ ويسجل السلوك البشرى السـائد ومنتجاته بالنسبة لجماعات معينة فى بيئات بعينها والحلول التى يواجه بها الانسان مشكلاته وهو هنا يرتكز على :

(أ) **التاريخ السلالى** Ethno history الذى يهتم بتاريخ الشعوب المنعزلة مع الاستعانة بالمصادر المكتوبة .

(ب) **البيـانات الاركيولوجيـة** التى تساعد على اعادة رسم صور النماذج الثقافية .

٣ ــ البيانات الاثنوجرافية Ethnography التى تركز على الوصف أكثر من التحليل والتفسير ويمكن هنا الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة ، والمقابلات الحرة ، واستخدام الشخص الاخبار Informant وعلى الاداة المعروفة بأسم الفهم الذاتى للثقافة الفرعية Ethnoscience **الذى** يرتكز على فهم طريقة تنظيم للناس لثقافتهم الخاصة وتصنيف الانماط الثقافية وتوضح المنطق الكامن وراء العادات والتقاليد والأعراف وانماط السلوك .

هذا فضلا عن **تاريخ الحياة النفسية** غير اللفظية(*) ويذكر بيلز وهويجر أن هذه الاختبارات تتضمن قدرا من المران للاشراف على اجرائها كما تحتاج لاعداد كبير لتفسيرها على الوجه الاكمل ويعطينا مثالا لهذا بدراسة جزيرة أوليثى Ulithi فى المحيط الهادى فقد قدم وليم ليسا W. Lessa للناس صورة واحدة لرجل ينظر لامرأة صغيرة محجبة تحمل صينية من الفاكهة ــ نظرة ماكرة ــ وعندما شاهد سكان الولايات المتحدة هذه الصورة صاغوا قصصا تتضمن معنى جنسى بينما تضمنت هذه القصص بالنسبة لسكان الجزيرة ويكاد الافراد يتضورون جوعا (٨) .

ويذكر أبو زيد (٩) أن دراسة الثقافة يمكن أن تسير وفق منهج **التتبع التاريخى** بالنسبة للظواهر الثقافية وهو الاتجاه الذى يراعى **تعدد الازمان** diachronic .

كما أن الاتجاه الآخر يحاول أن يدرس الظواهر **دراسة تزامنية للحاضر** Synchronic ومن أبرز التوجيهات هنا **التأويل السيكولوجى** والاستعانة بعلم النفس فى فهم الظواهر الثقافية وهى الابحاث التى اثرت ميدان **الثقافة والشخصية** Culture and personality ودراسات الشخصية القومية وقد قادتها روث بندكت ، ومرجريت ميد ، وجوليوس هنرى ، وهسو Hsu وحيث يستعين الباحث هنا ــ فضلا عما سبق أن ذكرنا من أدوات ــ بالاختبارات الاسقاطية ، وتحليل المضمون ، وتحليل الاحلام (١٠) .

وقد أورد ليفى بريل (١١) فى مؤلفه عن العقلية البدائية العديد من الامثلة عن قبائل مختلفة للاشارة الى الظواهر الثقافية ومدى تنوعها وخرج من دراسة نتائج عديدة ، ومن بين ما أورده عن الاحلام فى افريقيا الاستوائية الاشارة الى مدى ثراء هذه الظواهر بالنسبة للقبائل البسيطة

(*) أهم هذه الاختبارات اختبار روشاخ واختبار الادراك الموضوعى

والمنعزلة ، اذ يترتب عليهـا العـديد من الممارسات ويذكر بريل أن أحد الرؤساء رأى ابان نومه أنه قام برحلة فاعتبر أن هذا قد تم بالفعـل ، ويستطرد بعد ذلك « ولشدة ما كانت دهشتى عندما رأيته جالسا على باب عشته مرتديا الملابس الاوربيـة بمجـرد أن استيقظ من نومه وقال لرعاياه أنه آت من بلاد البيض وكان على من يأتون لرؤيته من شيب وشبان أن يصافحوه مهنئين بسلامة العودة ... الخ » .

وتهتم الاثنولوجيا Ethnology بالدراسة المقـارنة للشـعوب على اساس خصائصهم الثقافية والسلالية وتحركاتهم ومدى انتشـار الخصائص الثقافية والسلالية وتحركاتهم ومدى انتشـار الخصائص الثقافية فهى دراسة مقارنة للثقافات كما تتميز عن الاثنوجرافيا باهتمامها بالتحليـل أكثر من الوصف (١٢) .

٣ ــ الانثروبولوجيا الاجتماعية

ان الموضوع الاساسى الذى تدرسه الانثروبولوجيا الاجتماعية هو **البنـاء الاجتمـاعى** Social structure الذى يشمل على انسـاق اجتماعية ونظم اجتماعية فالمصنع على سـبيل المثال ينقسم الى اقسـام عديدة ينقسم كل منها الى اقسام أصغر يقوم بالعمل فيها عامل أو مجموعة من العمال . ولا تترابط الاقسام معا بطريقة جامدة أو روتينية لتكون الكل الواحـد بل أن الاقسام المكونة للبنـاء وهيكل المجتمع لا تشهد انسجاما بين جزئياتها فحسب بل ومختلف ضروب الصراع أيضا .

وقد عرفت جامعـة كمبردج أول كرسى للانثروبولوجيـا الاجتماعية سنة ١٩٠٨ وقد نصب عليه الرائد الانثروبولوجى **سـيرجيمس فريزر** Frazer ، ويدرس هذا الفرع ــ من فروع الانثروبولوجيا ــ السلوك الاجتماعى الذى يتخذ شكل النظم الاجتماعية كالعائلة ونسق القـرابة « كما تدرس الانثروبولوجيا الاجتماعية العلاقة بين هذه النظم سـواء فى المجتمعـات المعـاصرة أو فى المجتمـعات التاريخيـة » على ما يذكر ايفانز برتشـارد :

«It studies.. Social behaviour, generally in institutionalized form, Such as the Family, kinship system, political organization legal Procedures religious cults and the like, and the relations between such institutions etc.,

ولم يبدأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى **تصنيف المجتمعات على أساس بنيتها الاجتماعية** للوصول الى **الدراسات المقارنة للمجتمعات** الا فى نهاية القرن الماضى ، وهكذا بدأت الانثروبولوجيا الاجتماعية توجه عنايتها لشبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمع وهكذا يقرر ايفانزبرتشارد أن المجتمعات هى **انساق طبيعية** natural systems تعتمد أجزاؤها بعضها على بعض interdependent ويدخل كل جزء منها فى **عدد من العلاقات الضرورية** المعقدة للمحافظة على الكل ، وواضح هنا أن **الحياة الاجتماعية يسودها نوع من الترتيب والتماسك والاستمرار** لا يتيسر بدونها للمرء أن يشبع ابسط احتياجاته الاولية ، وهكذا تتسق الحياة الاجتماعية فى شكل نظم اجتماعية يمارس الاشخاص الداخلون فى نطاقها ادوار معينة مرسومة .

كما تتميز **الحياة الاجتماعية بعموميتها وقدرتها على الانتقال** عبر الزمن ، وهكذا يتسم البناء الاجتماعى **بالاستمرار والاستقرار** بينما يفرض المجتمع أو القبيلة على الفرد الخضوع للنظم والاعراف الاجتماعية السائدة أما من يتملص من الالتزام بها فانه يتعرض للعديد من العقوبات الرسمية وغير الرسمية التى تبدأ بالسخرية وتنتهى بالقتل أو على حد قول ايفانزبرتشارد :

«Institutions are thus thought of as functioning within a social structure consisting of individual human beings connected by a definite set of social relations into an integrated whole.

ويذكر أبو زيد (١٥) أن البناء الاجتماعى لأى مجتمع هو عبارة عن مجموعة من الانساق كالنسق الاقتصادى والقرابى والايكولوجى ويضم كل من هذه الانساق عدد من النظم الاجتماعية التى تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة متكاملة ولن يتيسر فهم البناء الاجتماعى الا بدراسة هذا التفاعل بين الانساق وبين النظم الاجتماعية المكونة بدورها لهذه الانساق وليس النظام هنا مجرد ظاهرة بسيطة بل ان معظم النظم الاجتماعية على درجة كبيرة من **التعقيد** ويدخل فى تكوينها عدد كبير جدا من العناصر المتشابكة والعلاقات التى تحتاج الى كثير من الجهد لـ تحليلها وفهمها .

والباحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا الاجتماعية لابد أن يعد اعدادا جيدا لبحثه ، وأن يختار **المنطقة** التى سيجرى عليها بحثه ، **والنموذج السكانى** الذى اختاره لتحقيق هذا الهدف ، وأن يتدبر **التمويل**

اللازم للبحث المقترح للدراسة الحقلية ، ومن ابرز **الادوات** المستخدمة هنا **الملاحظة بالمشاركة** حيث تتاح الفرصة للملاحظة المتعمقة — فى الوقت الذى يسهم الباحث فيه ويشارك فى اكبر عدد من الانشطة — كما يفيد عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية من المقابلات الحرة فى دراسة النسق السياسى واشكال الضبط الاجتماعى فى المنطقة بينما يستطيع **الاخبارى** ان يوضح للباحث الانثروبولوجى العديد من الجوانب المتصلة بموقع المجتمع وعلاقته بسكان المجتمعات المجاورة وأبرز مصبباته وانسابه ويزوده بفكره عن مصطلحات القرابة وعن المكانات الاجتماعية للأفراد الذين يشغلون مواقع اساسية فى بناء القوة فى المجتمع المدروس (١٦) .

ويلخص فهيم (١٧) الموقف الراهن لعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية « **الوظيفية والاتجاه** » فى انهم يستخدمون ملاحظاتهم لدراسة **النظم الاجتماعية كاجزاء مترابطة فى النسق الاجتماعى** (فى صورة متكاملة) وانهم اصبحوا اكثر قدرة على دراسة المجتمعات المعقدة بدلا من العكوف على دراسة المجتمعات والقبائل البدائية (البسيطة المنعزلة) حيث انتقل الاهتمام من المحيط الهادى الى افريقيا فبدأ التركيز على النظم القرابية والسياسية بصفة خاصة وقد تصدت بض الكتابات لدراسة بعض الظواهر النوعية كالعنصرية والعلاقات والمحرمات الجنسية دراسة نقدية جادة ، ومن هنا ظهر « الاتجاه الراديكالى » الذى مؤداه أن على الباحث الانثروبولوجى هنا أن يتخذ موقفا ايديولوجيا مسبقا قبل الشروع فى الدراسة الحقلية على ما تذكر الباحثة البريطانية كاثلين جاف K. Goough .

وقد يتساءل المرء هنا عن **دور عالم الانثروبولوجيا** الاجتماعية وتمايز هذا الدور عن **دور عالم الاجتماع** ويلخص ايفانزبرتشارد هذا الفرق فى أن علماء الاجتماع يركزون جهودهم عادة على دراسة مشكلات أو ظواهر معينة فى المجتمع المعاصر بينما تتسع دائرة اهتمام الانثروبولوجيا للاهتمام بالبناء الاجتماعى للمجتمعات والقبائل المنعزلة فضلا عن المجتمعات المعقدة .

كما انه يلزم نفسه بأن **يعيش لعدة شهور أو سنوات معهم** اذ أن دراسته ينبغى أن **تتعمق فى فهم العلاقات المتبادلة** بين النظم والانساق الاجتماعية اكثر من كونها دراسة تحليلية لهذه النظم نفسها (١٨) .

« المصـــــــــدر »

١ — The New physical Anthropology, seenin retrospect and prospect (in) N. Kop Nan R.W. Thompson (Eds) Human Evolution U.S.A. 1967.

٢ — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . ترجمة محمد الجوهرى والسـيد الحسينى ، دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٦ ، ج ١ الفصل الاول والفصل الثانى .

٣ — عبد الحميد لطفى — الانثروبولوجيا الاجتماعية — دار المعـارف — القاهرة — ١٩٧٥ — الفصل الثانى والفصل الثالث .

٤ — The Human species. Pandom House Newyork. 1965. p. 10.

٥ — البنـــاء الاجتماعى — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ج ١ الفصل الرابع .

٦ — Origins of man. U.S.A. 1967 pp. 345, 346.

٧ — R.F. Murphy, Cultural and social Anthropology. New-jersey. 1986, p. 24.

وانظر ايضا :

من المؤلفات التى ناقشت التثقف يمكن الرجوع الى :

R. Bastide, Applied A nthropology. Newyork. 1971. ch. 3, 4.

٨ — بياز وهويجـر — المصدر السابق ذكره — ج ١ الفصل الخامس .

٩ — أحمد ابو زيد — المصدر السابق ذكره ج ١ — الموقع نفسه .

١٠ــ محمد سعيد فرح ــ الشخصية القومية ــ منشأة المعارف ــ الاسكندرية ــ ١٩٨١ ــ الفصل الثالث .

١١ــ العقلية البدائية ــ ترجمة القصاص ــ مراجعة حسن الساعاتى ــ الفصل الثالث .

١٢ــ عاطف غيث ــ قاموس علم الاجتماع ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٩ ــ ص ١٦٤ .

١٣ــ روبرت ميرفى ــ المصدر السابق ذكره ــ ص ٤٠ : ٤٣ .

١٤ــ E. Pritschard. Social Anthropology and other essays. U.S.A. 1966. Ch. 1 and 3.

١٥ــ أحمد أبو زيد ــ المصدر السابق ذكره ــ ص ٣٥ ، ص ١٣٨ .

١٦ــ بيلز وهويجر ــ المصدر السابق ذكره ــ الموضع نفسه .

١٧ــ قصة الانثروبولوجيا ــ عالم المعرفة ــ الكويت ــ ١٩٨٦ ــ الفصلين الخامس والسادس .

١٨ــ ايفانز برتشارد ــ المصدر السابق ذكره ــ الفصل الاول .

البـــــاب الثـــانى

« مجـــالات علم الانســـــان »

الفصل الثالث : الانثروبولوجيا الثقافية .

نماذج لبعض الدراسات الحقلية :

مقـــــــدمة : مجالات الانثروبولوجيا الاجتماعية .

الفصـــل الرابع : الانثروبولوجيا الريفيـــة .

الدراســـة الحقلية : عمـــــال التراحيل .

الفصل الخامس : الانثروبولوجيا الحضرية .

الدراســـات الحقليـــة :

١ — الخصائص الاجتماعية لسكان الاطراف.
٢ — الهامشية الحضرية .
٣ — الفقراء فى المدينة

الفصل السادس : الانثروبولوجيا الصناعية .

الدراســـات الحقليـــة :

١ — الورش الصناعية .
٢ — أثر التصنيع و التحضر الصغيرة .

الفصل السابع : الانثروبولوجيا الاقتصـــادية .

الدراســـــة الحقلية : أوضاع وعلاقات الباعة فى الاسواق الحضرية .

الفصل الثـــامن : الانثروبولوجيا السياسية .

الدراسات الحقلية : الدين والسلطة — القيادة فى القرية .

الفصـــل الثـــالث

« الانثروبولوجيـــــا الثقافيـــة »

اعتقد البعض أن الانثروبولوجيا الثقافية هى دراسة ثقافع المجتمعات البدائية (البسيطة ا لتكوين)
«describing the culture of less complex societies».

وخلال القرن الماضى كان الرحالة ودعاة الارساليات الدينية وغيرهم يسترسلون فى وصف عادات وتقاليد **الشعوب غير الغربية** بينما اسهمت الدراسات الحقلية خلال القرن العشرين فى تنقية هذه التقارير الاثنوجرافية — الوصفية للثقـــافة — من الشـــوائب والثغرات التى كانت تهدد دقتها وموضوعيتها .

وقد اكتشف علماء الانثروبولوجيا الثقافية أن الجماعات التى تسكن بعيـــدا remote groups قد « تماثلت » assimilate بصـــورة أو بأخرى العـــديد من الاساليب التكنولوجية الحديثة بل وبعض العادات الخاصة بالافراد والجماعات الذين احتكوا بها كما أصبح هؤلاء العلمـــاء أشد ميلا لدراســـة الثقافات الفـــرعية subcultures فى المجتمعـــــات الاكثر تعقيدا «Subcultures, within more complex societies».

ولذلك فان سبرادلى spradley ومكردى Mecurdy يذكران أن الثقافة ليست هى السلوك نفسه بين **المعـــرفة المكتسبة التى يستخدمها الناس لتفسير عالمهم ولانتاج السلوك الاجتماعى :**
«Culture is not behavior it self, but the knowledge used to construct and understand behavior».

ويمكننا أن نؤرخ للانثروبولوجيا الثقافية بكتابات الرحالة ولعـــل أعظم الاحداث الذى عجل بالولادة الفعلية لهذا الفـــرع هو كشف العالم الجـــديد بمعرفة كولومبوس اذ أن **اكتشاف امريكا** فى السنوات الاخـــيرة للقرن الخامس عشر (١٤٩٢) قد اثر فى فروع الانسانيات : الســـياسة

والاقتصاد والاجتماع فلقد أوضحت الاستكشافات الجغرافية بجلاء حقيقة تنوع الجنس البشرى وثارت أسئلة عديدة حول أصل هذه القبائل وجرت محاولة ربطها بسفر التكوين (السفر الاول من الكتاب المقدس الذى يتعرض لنشأة الانسان والكون) .

ومن ناحية أخرى بدأت عملية الاتصال والصراع بين الدخيل الاوربى وهذه القبائل فى اطار انسانى الصبغة .

وفى هذا الوقت ظهرت كتابات جوزيه **آكوستا** J. Acosta **فى القرن** السادس عشر التى حاول فيها ربط بلاحظاته الشخصية عن السكان الاصليين فى العالم الجديد ببعض الافكار النظرية عن مراحل تطور الحضارة الانسانية . ودراسات ميشيل **دى مونتانى** M.D. Montaigne الذى أجرى مقالات مع مجموعات من السكان الاصليين الذين كان بعض الرحالة قد أحضروهم الى أوربا ، وغيرهم من العلماء ، هذا فضلا عن مؤلفات مونتسيكيو وروسو التى تناولت الثقافة الانسانية أو بعض الانماط الثقافية بالمناقشة والتحليل للخروج ببعض الاستنباطات النظرية عن الانسان (٢) .

ويذكر تشايلد V.G. Childe (٣) خلال القرن الثامن عشر أصبح العلماء على دراية اكبر بالمجتمعات الانسانية التى تختلف أساسا عن المجتمع الاوربى ووجدوا بين « المتوحشين » تشكيلة غير متوقعة من النظم الاقتصادية والتكنولوجية ، وهكذا حاول فيرجسون سنة ١٧٦٨ أن يقارن الوحشية بالبربرية والمدنية .

وفى سنة ١٨٥٠ حاول هربرت سبنسر أن يتوصل الى **قانون التطور الثقافى** الذى تخضع له « مجموع المجتمعات بترتيب هرمى » .

وقد سار فى هذا الطريق سير هنرى مين فى دراساته عن القانون القديم ، وباخوفن فى مجال دراسته عن القرابة فى «حق الام» سنة ١٨٦١ ، وماك لينان فى كتابه عن « الزواج » سنة ١٨٨٦ وتايلور الرائد الحقيقى للمدرسة البريطانية فى « الاثنوجرافيا » والذى صاغ فرضيته الاساسية فى المقولة الآتية : من الممكن أن نعامل الجنس البشرى باعتباره ذا طبيعة متجانسة رغم وجوده على مستويات مختلفة من الحضارة ، واذا تجاهلنا الاختلافات الناتجة عن الوراثة والبيئة أو الاحداث التاريخية فان ما يتبقى لنا هو مجتمع عالمى خاضع « لقوانين عامة » .

وغنى عن القـــول أن **الثقـــافة هى نسق من الاجـــزاء المترابطة** Culture is a system of interrelated parts ويعبر **نسق القيم** فى المجتمع افضل تعبير عن العادات والتقاليد والاعراف والمحرمات والامور المرغوبة فى المجتمع . ومن هنا فان الطفل يكون مفتقـــدا فى لحظة الميـــلاد لنسق المعتقدات والمعرفة وانماط السلوك المعتاد ولكن من هـــذه اللحظة فصاعدا وحتى الوفاة يشارك كل منا فى مدرسة عامة هى مدرسة الحيـــاة تعلمنا ثقافتنا الاصلية :

From that moment until we die, each of us participates in a kind of universal schooling that teaches us our native culture» (o)

ويذكر ابو زيد (٦) أن علمـــاء الانثروبولوجيا الثقافية خلال القرن التاسع عشر قد وقفـــوا مواقف متباينـــة من العموميات universals والخصوصيات الثقـــافية Specialities (*) فى الوقت الذى كانوا ينظرون فيه للثقافة على اعتبـــار انها التشكيل المتكامل للسمات والعناصر التى تتجسد فى كل مجتمع وفق مبـــدأ معين أو مجموعة من المبادىء .

فالثقافة على ما يذكر ميرفى (٤) هى أســـاليب الحيـــاة الخاصـــة والمميزة للمجتمعات المختلفة distinctive life styles characteristic of different societies»

وهى تتضمن وسائل الاتصال بالغير حيث تبرز أهمية اللغة وغيرها من أساليب الاتصال اذ أن لزلى هويت White يـــ يقـــرر أن الثقافة تتضمن نســـق من الرموز System of symbols فهى العنصر الفعـــال فى اى ثقافة انســـانية ومع أن هؤلاء العلمـــاء قد ركزوا على المبـــادىء

وانساق القيم السائدة الا انهم ظلوا ينظرون للثقافة وفقا لرؤى **سيكولوجية أو تاريخيـــة** بل انهم اختلفوا كذلك فى تفســـير تشابه السمات الثقافية لدى كثير من المجتمعات المتباعدة فى الموقع الجغرافى فالبعض راى أن هذا التشـــابه يعود بدوره لتشابه الظروف الطبيعية الســـائدة فى تلك المجتمعات بينما راى البعض الآخـــر أن هذا التشابه يرجع لظروف

(*) تمثل العموميات فى وحدة التقاليد والعادات والمشاعر لكل اعضاء المجتمع بما يضمن للمجتمع تجانسه بينما تمثل الخصوصيات التقاليـــد والعادات والمشاعر التى تســـود فى قطاعات جغرافية أو لدى شرائح سكانية بعينها دون أن تتعارض مع العموميات .

اتصال هذه الثقافات بعضها (بالبعض الآخر) وهو ما يعرف باسم عملية « **الاتصال الثقـــافى** » او « **الانتشار الثقـــافى** » Diffusion of culture بمعنى ان ينتقل **المركب الثقـــافى** بكل ملامحه وسماته من مجتمع لآخـــر ، والاتجاه السائد الآن فى الانثروبولوجيا الثقافية يركز على الدراســـات الحقلية لثقافة مجتمع معين وعلى التغير الناتج عن الاتصال الثقـــافى مع الابتعاد عن تتبع مراحل تطور الثقافة الانسانية بصفة عامة أو ترتيبها بحسب رقيها وانحطاطها .

وقد حدد عاطف غيث (٧) العوامل التى تلعب دورا فى التغـــير الثقافى فى **العوامل الداخلية والخارجية** كما استشهد محجوب فى معـــرض حديثه عن طرق البحث التى يعتمـــد عليها فى جمع المـــادة الانثوجرافية فى الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة اسكارلويس عن « لافيدا أو الحياة » وهى دراســـة عنيت بحيـــاة اسرة من بورتوريكو تعيش ثقـــافة الفقـــر فى الولايات المتحدة حيث استعان الباحث بالملاحظة بالمعايشة من خـــلال المشاركة فى شتى المناسبات والمواقف وتسجيل تاريخ حياة الاشـــخاص والتركيز على مشكلات وأحداث معينة فى حياة الاسرة من خلال استخدام صحائف المقابلة (الاستبيان) وبعض الادوات والاختبارات المعـــروفة فى علم الاجتماع والنفس فضلا عن الدراسة الكلية للحيـــاة الاسرية من خلال الملاحظة والمناقشة والتسجيل التفصيلى للأحداث .

ومن الدراسات المعبرة عن هـــذا الفـــرع من فروع الانثروبولوجيا دراسة روبرت ردفيلد R. Redfield عن شان كوم Chankom (٩) وهى القرية التى درسها فى الثلاثينيات وعاد لدراستها فى نهـــاية الاربعينيـــات ليكشف عن التغـــير الثقافى Cultural change الذى تعرضه له القرية وهو يصف فى مقدمة دراسته حالة هذه القرية المنعزلة بقوله :

«in its situation in the bush apart from roads and rail roads, physically isolated from town and city».

ثم يذكر فى المقدمة نفسها ما حدث من تغير بقوله :

«The villagers had committed themselves to progress and civilization sovigorously».

وغنى عن القول كما سبق أن ذكرنا أننا ينبغى أن نتصل بالنـــاس فى المجتمعات الصغيرة التى ندرس أنماطها الثقافية اتصالا وثيقـــا ، وهنا يذكر ميرف :

«living in close interaction with the people of a small community makes one a participant in a culture whether he or she wants to be or not (he) is the center of attention throughout his stay.»

وقد تأثر روجـــرباستيد R. Bastide (١١) بكتـــابات كلاكهوهن C. Kluckhohn وتعريفاته عن الثقافة وذكر أن المتخصص فى الانثروبولوجيا الثقافية يتميز بـــ :

١ ــ **انه الوحيد الذى يدرس كل جزئيات الواقع :**
The only one who studies all the aspects of reality.
سواء اللغة أو أساليب الانتاج أو التنظيم الاجتماعى .

٢ ــ انه يركز اهتمامه على **الحقائق الثقافية** cultural facts التى تبين أن النظم الاجتماعية لا توجد بمنأى عن الافراد الذين يشـــاكون فيها وأن هذه المشـــاركة بدورها لا توجـــد بدون نسق للقيم يشكل الاطار الذى يوجد فيه الافراد والجماعات .

٣ ــ اهمية الاستقصاء عن **النماذج البنائية** والثقافية من جهـــة ومعرفة القوانين والميكانزمات التى تعمل بموجبها هذه النماذج من جهة أخرى .

ويستلزم الامر هنا **المعرفة المتعمقة للمجتمع والفهم الشمولى للثقافة**
indepth knowledge of one society and olso the Complete undestanding of the totality of culture etc—

ويلزم عالم الانثروبولوجيا الثقـــافية أيضـــا أن يستقصى عن ميكانزمات **التفسير الثقـــافى** من جهة وأن يقارن مع ثقافات أخرى من جهـــة أخـــرى cross c ulture studies والمجتمع المصرى هو أكثر شعوب منطقـــة الشرق الاوسط احساسا بوحـــدته الثقافية ففيه تتركز على ما يذكر محمد الجوهرى (١٢) أكبر المقومات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية للتكامل والوحدة وتعـــد الدراسة الانثروبولوجية مطلبا حيويا لمواجهة المشكلات المحلية ليتحقق التكامل العربى لهذا المجتمع .

ومن هنا فاننا سنعرض نموذجا لبعض الدراسات التى تدخـــل فى مجال الانثروبولوجيا فى مجتمعنا وهى ظاهرة الموالد وظـــاهرة الكتابة على هيـــاكل المركبات ثم المعتقدات والمعـــارف الشعبية فى قرية غرب أسوان ثم للتغير الثقافى للظهير الزراعى فى مدينة متروبوليتانة .

١ — المـــــوالد (١٣) : (*)

وهى دراســـــة انثروبولوجية للموالد كظاهرة ثقـــافية شعبية حيث تتضمن الموالد ٣ عناصر شعائرية هى :

زيادة الضريح ، والذكر ، والمـوكب وتتضمن زيادة الضريح تلاوة الفاتحة على روح الولى ولابد من الايمان بقدرته وطلب معـونته كذلك لتسهيل انزيارة القـــادمة وزيارة الضريح لا تكون قاصرة على الرجال والشـباب بل والنسـاء ايضـا ، فكل شيء مباح للسيدات حتى الاقامة فى صحن المسجد وتناول الطعام مع تقـديم النذور ، وزيارة المقصـورة والضريح مناسبة للحصـول على البركة حيث تلجـأ كثير من السـيدات لاستخدام المناديل لهذا الغرض والاحتفاظ بها ليتمسح بها بقيـــة افراد الاسرة ممن لم يتمكنوا من الحضور للزيارة والموالد مناسبة هامة تتغـير فيها كسوة المقصـــورة او عمامة الولى فيسعى الجميع للحصول على قطعة صغيرة باى ثمن ويستغل بعض خدام المسجد هذه المناسبة فيبيعون هذه القصاصات نظير مبالغ نقـدية تتمشى مع القدرة المـادية للشخص الذى يرغب فى ذلك ، والتناقض الواضح هنا أن الناس يحولون المساجد والكنائس الى اماكن للمعيشـــة وقضاء الحاجة ، وبالتالى يتحول ما هو مقـــدس sacred الى دنيـــوى secular أما **الذكر** فتؤديه الجماعات الصـــوفية بقصـــد ذكر أسماء الله أو صفاته أو أفعـــاله مع ذكر رسل الله وانبيـــائه ، ومن الذكر ما هو ثنـــاء على الله ، ومنه ما هو دعاء أو طلبه وترى هذه الجمـــاعات ان الذكر يؤدى للطـــاعة وتجنب المعاصى بينما يصاحب الذكر بالانشـــاد الدينى الذى يؤدى بمصاحبة الموسيقى أو بغير مصاحبتها حتى تســـاعد الجماعة على التواجد والشطح والهزات العنيفة حيث يتحرك الاتباع ويرقصون طربا تحت قيـــادة الشيخ الذى يقود الذكر ويصدر التعليمات .

فهو يسمح بدخول الاعضاء أو قد يقتصر الذكر على الاعضاء أنفسهم كما يتم الذكر عادة فى السرادقات والخيام حيث يستخدم مكبرات الصوت بينما تدفع النقـــود للمنشد لتشجيعه على حسن الأداء ولتحيـــة الولى المحتفى به وأفراد الفـــرقة الموسيقية الذين يحضرون هذه المناســـبة ،

(*) قام بهذه الدراســـة أ.د.فاروق احمـــد مصطفى خلال عامى ٧٥ ، ١٩٧٦ فى كفر الدوار والمنصورة وطنطـــا ودسوق والاقصر وقنـــا والاسكندرية والقاهرة حيث تتبع الموالد المسيحية والاسلامية .

وقد يسمح فى بعض الاحيان باشتراك المراة فى الذكر كما قد تمنع فى احيان اخرى **أما المواكب** فهى تجمعات دينية شائعة بين اهل الطرق الصوفية والقصد منها لفت الانظار لبعض الشعائر الخاصة بهذه الطرق والاشارة الى قوة العقيدة ، ورفع لواء الاسلام بين الناس حيث يطوف الموكب باحياء معينة ، وترى الجماعات الصوفية أن هذه المواكب هى احياء للسنة النبوية واعلان لتماسك الجماعة كما تمارس المواكب فى الليلة الكبرى للمولد او فى موالد الاولياء وتتدخل الدولة عادة فى تنظيم الموكب وحفظ النظام ويتم تنظيم الجماعات المشتركة بحسب ترتيب مكانتها الاجتماعية بينما تنشد الجماعات ابان سيرها اناشيد دينية خاصة بسيطة الكلمات تعتمد على الايقاع مع حمل الرايات وهم يحاولون ان يحافظوا على الوحدة الكلية للمشهد ولا يتم ذلك الا من خلال قيامهم بتأدية ادوارهم كاملة وينفعل الناس عادة بهذا المشهد بينما تذوب الفروق الثقافية الخاصة بمن يشاركون فيه .

٢ — ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى (١٤) :

لاحظ الباحث العالم سيد عويس ما يكتبه أصحاب السيارات واللوريات والعربات وما يكتبه سائقوها من كلمات وعبارات تحمل معانى تتضمن الوقاية وتلح فى تحقيق السلامة فهى اسلوب من اساليب مواجهة المجهول فى مجتمعنا وقد جمع ما كتب باعتبار أن ما يكتب على المركبات يعكس بدوره المناخ الاجتماعى والثقافى بين والكثير من العناصر الثقافية غير المادية كما تاكد الباحث انه امام جهاز شعبى كبير (المركبات) يتحرك على امتداد المدن والقرى والمناطق الصحراوية فجمع نحو الف كلمة وعبارة مكتوبة واستقصى من أصحابها عن الهدف من كتابتها ، وقد شملت الدراسة أصحاب المركبات فى احدى عشر محافظة هى القاهرة والجيزة وأسوان والاسكندرية وبنى سويف والدقهلية والغربية وكفر الشيخ والشرقية والقليوبية ودمياط والاقصر والبحيرة .

واستخدمت الدراسة **الملاحظة وتحليل المضمون** .

(*) قام بهذه الدراسة الاستاذ الدكتور سيد عويس فى الفترة من ٦٧ حتى ١٩٧٠ وصدرت هذه الدراسة فى مؤلف رائد بعنوان هتاف الصابتين — القاهرة ١٩٧١ .

وكانت العبارات موضوع الدراسة تعبر عن ٣ انماط رئيسية :

الاشكال الشعبية : (٥ر٣٨٪ من مجموع العبارات) ثم الاشكال الدينية (٣ر٣٢٪ من مجموع العبارات) ثم الاشكال « الاخرى » (٢ر٢٩٪ من مجموع العبارات) وكانت الاغانى الشعبية(*) اكثر عبارات النوع الاول ترددا يليها التعبيرات الشعبية(**) فالتحذيرات ثم الامثال الشعبية (***) فالنصائح فالتحيات .

اما بالنسبة للنوع الثانى فكانت الدعوات والابتهالات أكثر ترددا الآيات القرآنية (ب) فالاحاديث النبوية (ج) ثم آيات الكتاب المقدس (د) .

وفى **النوع الثالث :** احتلت الاقوال المأثورة (١) المكانة الاولى يليها الاسماء الموصوفة (٢) ثم الاسماء فالعبارات الاخرى .

وهكذا أفصحت الدراسة عن أن هذه العبارات تغترف من التراث الثقافى للمجتمع وتضرب بجذورها فى أعماقه اذ يحرص كل سائق على أن يجل العبارة المكتوبة معبرة عن فلسفة فى الحياة وأن يسمع صوته لمن يقرأ هذه العبارات ، وتعكس هذه الفلسفة بدورها السمات الثقافية لشريحة كبيرة ممن يقودون هذه المركبات فى شوارع ازقة المدن والقرى وتعكس بالتالى نسق القيم وأساليب التفكير ومن هذه المعانى نجد الشكوى من الظلم ، والقسوة ، والفراق ، والتحذير من الحسد ، والغضب ، والدعوة للصبر ، والاستسلام والقرب للأولياء ، ومنها ما يدعو للمحبة والتعاون غير أن هذه العبارات تعكس التدين والتمسك بالفضيلة والاستسلام للقضاء والقدر وتفصح عن الخصائص الثقافية التى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ المصرى القرعونى فالقبطى والاسلامى .

(*) مثل « أروح لمين » و « يا ظالمنى » (**) مثل انا « حلوه » و « خليها على الله » . ( ) خلى بالك ولا تغضب .
( ) مثل ابن الوز عوام ويا ناس يا شر كفاية قر .
( ) مثل افعل الطيب و « صباح الفل » .

(١) استرها يا رب « وتصحبك السلامة » (ب) مثل الله أكبر (ج) مثل انما الاعمال بالنيات مثل (د) « الله محبة » (١) مثل الصبر حلو (٢) مثل البطل الرومانى (٣) مثل المارد .

٣ — المعتقدات والمعارف الشعبية فى غرب أسوان (١٥) تزخر قرية غرب أسوان بوجود عدد كبير من الاولياء وعلى الطفل الصغير أن يزور الولى فى الاسبوع الاو لمن عمره كما أن العريس والعروس لابد أن يذهب كل منهما لزيارة الاولياء وفى المنازعات والمشكلات لابد أن يلجأ الناس للأولياء وهناك قصص اسطورية تحكى عن نشأتهم وكرامتهم المعجزية على شفاء الامراض وقضاء الحاجات ، وهناك أولياء اقل شأنا لا يعرف أحد عنهم شيئا . وقد تختلط القصص عن أحد الاولياء فلا يعرف أن كان وليا أم من الجان ومن بين أولياء القرية الشيخ البسطامى والشيخ نجم وغيرهم .

ويحرص من يزور الولى على أن يجلب من الضريح كمية من الرمل لينثرها فى أركان منزله أو فى حقله وتستخدم كذلك للاستحمام . كما أنه يلزم فى حالة زيارة الولى أن يدور الشخص بالضريح ٧ مرات .

اما نظرة الناس فى القرية **للكائنات فوق الطبيعية** فتتضمن تصور هذه الكائنات على أنها تعيش تحت الارض وأنها تظهر فى الاماكن المهجورة وفى الافران والمراحيض داخل المنازل .

وهى مخلوقات غير مادية من طبقة غير طبقة البشر وغير طبقة الملائكة ويطلق عليها « الجن » أو العفاريت ويقصد بالجن الكائنات الخيرة بينما العفاريت هى الكائنات الشريرة ، ويطلق عليها جميعا فى القرية اسم « الصل » ويظهر فى اشكال حيوانات (أخصها الحمار) ولابد أن يحفظ الانسان نفسه منها بحفظ القرآن أو حمله أو حمل مطواه أو قطعة حديد لحمايته ومن أبرز الكائنات هنا :

— **الشيطان** : هو ابليس نفسه ويطلق الاسم على من يسعى بالوقيعة بين الناس .

— **الصل** : العفريت — روح القتيل ويظهر للانسان ضعيف الايمان .

(*) أجريت الدراسة الحقلية لقرية غرب اسوان فى مطلع السبعينيات والجزء الذى أوردناه هنا عن المعتقدات وقد قام بها طلاب قسم الاجتماع بجامعة القاهرة تحت اشراف الاستاذ الدكتور محمد الجوهرى انظر : محمد الجوهرى — الانثروبولوجيا — دار المعارف — ١٩٨٠ — ص ٤٩٦ .

— **العمـــار** : عفاريت تسكن الاماكن المهجورة ويهرب النـــاس من هذه الاماكن خشية الاذى .

— **الغـــول** : وهو أقرب الشبه للبومة ويمكن أن يأكل ا لانسان .

— **المـــارد** : ويظهر فى شكل انسان .

— **القـــرين** : ويلازم الأب والأم وهم يعتقدون أن لكل شخص قرينا يلازمه فاذا مات الطفل اطلق عليه هذا الاسم أيضا .

— **الانســـياد** : ومنهم قسم صالح عبارة عن مشايخ يحمـــدون الله ويهيمون من منطقة لاخرى .

— **الأرواح** : ويطلقون على روح الميت « جـــوهرة » تنطلق للسماء بعد وفاة المرء أما روح الميت فيطلقون عليها عفريت وتهيم حـــول مكان الحادث .

— **المسوسون** : يحدث « المس » للشخص اذا تعـــــرض لعفريت ولم يذكر « البسملة » بينما يرى البعض أن الشخص المســـوس يتميز بالولاية .

— **بنـــات البحـــر** : اناث صالحات تسكن البحر .

— **الـــبراق** : جواد له اربعة ارجل ووجه يشبه الانسان .

— **المسيخ الدجال** : رجلا يركب دابة ويفسد فى الارض ويمكن للســـيد المســـيح (عيسى) أن يقتله نظير افساده .

— **الطب الشعبى** : يلاحظ هنا وفرة الحشـــائش الطبية والاحجـــــار والرمال ومن هذه الاعشاب تستخدم الدمسيسه لعلاج الكلى والقرنفل والحنضل وشـــجرة السنط والكمون والتـــوم لعـــلاج الامراض ، كما يلجأون أحيانا للأعمال السحرية والزار وضرب الرمل .

وللناس خبرة فى علاج الجـــروح والكســـور والالام الروماتزمية ، غير أنهم اصبحوا يهتمون الآن بالعلاج لدى اطباء .

« المصـــــادر »

١ — Spradley and Mccurdy, conformity and conflict, U.S.A. 1981 pp. 1 : 12.

٢ — حسـين فهيم — قصة الانثروبولوجيا — عالم المعرفة — فبراير ١٩٨٦ — الفصلين ا لثالث والرابع .

٣ — التطور الاجتماعى — ترجمة لطفى فطيم مراجعـة كمـال الملاخ — سجل العرب — القاهرة — ١٩٦٦ — الفصـول الاول والثـانى والثالث .

٤ — R. Murphy, Cultural and Social Anthropology. U.S.A. 1988. pp. 40, 41.

٥ — Spradley and Mccurdy op. cit. pp. 4 : 10.

٦ — البناء الاجتماعى — ج ١ — ١٩٦٥ — الفصل الرابع .

٧ — القرية المتغيرة — القاهرة — ١٩٦٢ — المقدمة وص ١ : ص ١٨ .

٨ — محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٧ — الفصل الثانى .

٩ — A village that chose progress Chicago. 1950. preface.

١٠ — op. cit. p. 222. .

١١ — Applied Anthropology. New York. Evanston, Sanfransisco ; London 1973, ch. 8.

١٢— الانثروبولوجيـــا — دار المعـــارف — القـاهرة — ١٩٨٠ — ص ٣٥٠ : ص ٣٥٣ .

١٣— فاروق مصطفى — الموالد — الهيئة المصرية العـــامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٨١ .

١٤— سيد عويس — هتاف الصامتين — ا لقاهرة ١٩٧١ .

١٥— محمد الجوهرى . الانثروبولوجيا — المصدر السابق . ص ٤٦٧ . ص ٤٩٦ .

التغيير الثقافى

للظهير الزراعى فى المدينة

دراسة فى الانثروبولوجيا الثقافية

اولا : الظهير الزراعى موضوع الدراسة :

اجريت هذه الدراسة على احد الظهير الزراعية التابعة **للقاهرة الكبرى** وقد اجريت الدراسة الاولى سنة ١٩٧٨ ثم عاد الباحث بعد مرور ٦ أعوام لدراسة الظهير نفسه (سنة ١٩٨٣) بعد ان تم ادخال التيار الكهربائى الى الجزء الشمالى من الظهير منذ حوالى ٣ سنوات على ان يستكمل مد كابلات الكهرباء للجزء الجنوبى من الظهير فى حقبة لاحقة واستتبع هذا دخول الاجهزة الكهربائية واهمها التليفزيون والريكوردر فى القطاع الشمالى بينما سارع بعض السكان فى القطاع الجنوبى الى شراء اجهزة تلفزيون وأجهزة تسجيل (تعمل بالبطارية أو بالحجارة ... الخ) .

وقد أستبدلت القوارب الشراعية بلنشات اكبر تعمل بالسولار ضمانا لسرعة الحركة بين الظهير والمدينة من جهة والمحافظة على ارواح الناس اثناء ابحارهم من والى الظهير من جهة أخرى .

اما التغير الثالث الذى يسترعى النظر فهو اقتراب انتهاء العمل من « كازينو سياحى » فى اقصى الطرف الشمالى للظهير وتخصيص عوامة خاصة لنقل الرواد اليه . وهو المشروع الذى ما زال يلاقى مقاومة كبيرة من اهالى المنطقة .

والظهير الزراعى موضوع الدراسة يعد احد المجتمعات المحلية التابع اداريا لمحافظة الجيزة بينما يقع فى المجال الاقليمى للقاهرة الكبرى ويشكل جزيرة مستطيلة تقع فى وسط نهر النيل وتحيطها المياه من جميع جوانبها وهى تمتد بمحاذاة الجزء الجنوبى لمدينة القاهرة والجزء

الجنوبى لمدينـــة الجيزة حيث تنتشر العـــديد من المؤسسات الصـــناعيه فى هذه الاطراف الحضرية ، لا توجد اى مؤسسات صناعية داخل الظهير اذا استثنينا وجود بعض العمال — لا يتعدى مجموعهم أصـــابع اليـــد الواحدة — يقومون بصناعة القوارب بطريقة بدائيـــة ولا توجـــد بالظهير اى مؤسسات اقتصـــادية او خدميـــة تابعـــة للدولة اذا استثنينا بعض المدرسين — لا يتعدى مجموعهم أصابع اليـــد الواحدة — يقومون بتعليم الأبنـــاء الذين يرغبون فى الحصـــول على شهادة اتمام التعـــليم الالزامى دونما اضطرار للتردد على المدارس الابتدائية فى المدينة حيث يتم التدريس فى حجرة مستقلة أو فى الحجرات الملحقة بالمسجد .

ومعظم البيوت فى الظهير تتكون من طابق واحد ومشيدة من الطوب الاحمر مع استخدام الطين أو الاسمنت . أو الطـــوب اللبن . والارض الزراعية فى الظهير مخصصة لاغراض ثلاثة :

الزراعة ، والسكن ، واقامة بعض مشـاريع **تسمين الماشية** وتربيـــة الدواجن (بمعرفة بعض أصحاب المشاريع الخاصة من خارج المنطقة) كما توجد ٤ أشكال للحيازة **الملكية الخاصـــة ، والارض المملوكة التى يتم تأجيرها للغير** ، وأراضى يتم تأجيرها **من الاصلاح الزراعى اراضى طـــرح النهر** ويتم تأجيرها من المحافظة.

ويستعمين الفلاح عادة **بادوات الانتاج البسيطة** كالفأس والمحـــراث حيث تزرع المحاصيل غير التقليدية وتوجد نحو ٤ عروات زراعية خـــلال العام وبينما يقوم الظهير بسد العاصمة بحاجتها من الخضر والالبان الطازجة يقوم سكان الظهير بشراء معظم السلع فضلا عن اللحـــوم والاسماك والاجهـــزة وقطع الاثاث ... الخ من المدينـــة فالظهـــير الزراعى يتصل بالمدينـــة المتروبولتانية اتصـــالا وثيقـــا فهو يعتمد على المدينة اعتمـــادا كاملا فى الحصول على متطلبات السكان فيه واذا كان الظهير بالنســـبة للمدينة هو العمود الفقـــرى للمواد الغذائية) فان المدينة بالنسبة لساكن الظهير هى الجمعيـــة الزراعية والمتجـــر والمخبز ومتجـــر الاقمشـــة والمستشفى بل ان التجار فى المدينة ممن يقومون بشراء المحاصيل الزراعية يفرضون نفوذهم فى توجيه الانتاج الزراعى ودفعـــه وتشكيله وتحديد خصائص النمط الانتاجى السائد فى المنطقة فهم يدفعون مقدم الثمن للفلاح ويحددون نوعية المحصـــول الذى يتسلمه التاجر بجملته دون أن يكون للفلاح نصيب فيه . هذا بينما تتمشى النظم الاجتماعية المختلفة مع نمط الانتـــاج السائد فى الظهير فالعدد الكبـــير من الاطفال ممن تحتـــاج اليهم زراعة الخضر كما أن غالبية الذكور يعملون داخل الظهير فى زراعة

الارض المخصصة للأسرة دون اجـر مما يعمل على دعم قيم التماسـك الاسرى داخل المجتمع المحلى (١) .

ويسترعى النظر فى الظهير العزلة الايكولوجية النسبية التى فرضتها ظروف المجتمع وطبيعة الحياة فى المنطقة .

ثانيـا : الأسلوب المتبع فى الدراسـة الحقليـة :

استخدم الباحث فى الدراسة الأولى والثـانية الملاحظة بالمشاركة وصحيفة الاستبيان (المقابلة الشخصية) وقد تضمنت العينـة التى طبقت عليها استمارة المقابلة فى السبعينيات ١٠٠ أسرة من مجموع أسر الظهير البالغ عددها نحو ٣٠٠ أسرة(*) فى ذلك الوقت بينما تضمنت العينـة التى أجريت عليها الدراسـة الحقلية فى الثمانينيات ٣٨٩ أسرة تشكل أكثر من ثلثى الأسر التى تعيش فى الظهير لازراعى فى الوقت اللحاضر .

وتضمنت الاستمارة الاولى عدد ٩٤ سـؤالا وجهت لأرباب الأسر بينما تضمنت الصحيفة الأخيرة عدد ١٠٢ سـؤالا وجهت لأرباب الأسر بقصد المقارنة بين مجموعة من المتغيرات الثقافية قبل وبعد دخـول التيار الكهربائى الى المجتمع المحلى الذى ما زال محروما من المياه النقية والصرف الصحى (فضـلا عما سبق ذكره من مشكلات تتعلق بأوجه القصـور فى السياسة الاجتماعية تجاه سكان المنطقة) .

٣ — معطيـات الدراسـة الحقليـة :

وقد أفصحت الدراسة الحقلية عن العديد من المتغيرات الثقافيـة التى اختلفت فى الثمانينيات عنهـا فى السبعينيات بينما استمر الوضـع قائم بالنسبة لمجموعة أخرى من المتغيرات الاجتماعية والثقافية فلم ينـال منها التغيير شيئا وآذا كنا نجـزم بأن السنوات التسـع التى مرت بين الدراسة الاولى والثانية لا تمثل حقبة زمنية كافيـة تتغير فيهـا البنيـة الاجتماعية أو الثقافية التى يفترض أنها تتغير ببطىء شديد فى المجتمعات

(*) هذا فضلا عن دراسة حالة لعدد ٢٠ حالة ثم دراستها بموجب دليل متعمق لدراسة الحالة .

التقليدية والظهر الزراعية الا اننا نزعم أن عجلة التغير الاجتماعى السريع التى تمر بهـا المدن المتروبوليتانية — بظهرها واطرافها الحضرية — لابد ان تتبادل التأثير والتأثر مع هذه المجتمعات المحلية الصغيرة كما ان دخـول التيار الكهربائى وانتشـار اساليب الاتصال الجمعى فى هذا الظهير (شبه المنعـزل جغرافيا) لابد أن يؤثر بفاعلية على شبكة العلاقات الاجتماعية واساليب الثقـافة المـادية وغير المـادية فى المجتمع المحلى ويمكن أن نلاحظ الآتى :

(أ) اتضح ان **معدلات الأمية ما تزال كبيرة** اذ أن ٧٧٪ من مجموع ارباب الاسر فى السبعينيات مقابل ٧٢ر٢٪ من مجمـوع أرباب الاسر فى الثمانينيات أمين ، وغنى عن القـول أن **عدم وجود مؤسسات تعليميـة** فى الظهير وخوف الاسرة وخشيتها على أولادها من التعرض للحـوادث فى حالة ركوب القـارب ذهابا وايابا فضـلا عن اغراء العمل الزراعى وانخراط الذكور من الأولاد به فى سن مبكرة لحساب الاسرة والانصراف عن تعليم الانثى تقف جميعا وراء ارتفاع هذه المعدلات .

(ب) انخفض معدل العاملين بالزراعة من ٨٨٪ فى السبعينيات الى ٧٠ر٢٪ فى الثمانينيات والعاملين فى المجال الصناعى خارج الظهير من ٩٪ الى ٨ر٢٪ فى الثمانينيات بينما **ارتفع معدل المشتغلين بالتجـارة من ٣٪** الى ٩٪ وبرزت نسبة العاملين بالاشغال الاخـرى سنة ١٩٨٧ لتصـل الى ١٢ر٦٪ وأبرزها هى مشروعات تسمين الماشية فضلا عن اشـتـغال الخدمات التى يستقر معظمها خارج المجتمع المحلى ، وهذا يعنى الانخفاض النسبى لمعدل العاملين بالزراعة وان كان معدل الحائزين لاراضى زراعية قد ظل ثابتا فهو ٦٧٪ فى السبينيات مقابل ٦٧ر٦ فى الثمانينيات بينما ارتفع **معـدل من يملكون رؤوس الماشـيـة** (كالابقار والجاموس) من ٧٣٪ فى السبعينيات الى ٨٠٪ فى الثمانينيات اذ أن الاسرة تنتفـع عادة من بيع اللبن وتستفيد من روث الماشـيـة فى صنع « الجلة » الذى توقد به الافران داخل المنازل . وهكذا اصبح التغير المهنى متمثلا فى الاتجاه لاعمال الخدمات واقتناء الماشية بقصد الاتجار فيها . وهى كلها تغيرات بسيطة تلعب دورا كبيرا فى تغير البناء الاجتماعى والنسق الاقتصادى .

(ج) تفصح البيانات الخاصة بالمسكن عن حقائق هامة فقد **ازدادت نسبة الاسر التى يصل حجم مسكنها الى ٤ حجرات فاكثـر** من ٤١٪ الى ٥٤ر٨٪ وغنى عن القول أن السنوات الاخـيرة قد شهدت ازديادا فى عدد الأبناء المتزوجين الذين تضمهم العائلات الممتدة ، ومن ثم فان الاسرة تقوم ببنـاء حجرة اضافية — رغم قرار حظر البناء على أراضى زراعيـة —

اذ ان الحجرة الاضافية تستقطع عادة من المساحة المحيطة بالمنزل كما أن بعض العائلات قد اضطرت الى **تحويل حظيرة الماشية الى دورة مياه** مع اخراج الماشية خارج الدار ، نظرا لتوفر الامن داخل الظهير) ومصداق ذلك أن عدد الزرائب فى الظهير قد أنخفض من ٨٦٪ فى الدراسة الحقليـــة الاولى الى ٦٤٪ فى الثمانينيات رغم **تزايد** عدد الحائزين لرؤوس الماشية . كما أن بيوت الظهير التى كانت تضم دورات ميـــاه كانت تصل الى الثلث فى السبعينيات فارتفع معدلها الى ٧ر٧٥٪ فى الثمانينيات « فالصـــــغار قد كبروا » وليس بمعقولا ن يقضوا حاجاتهم الطبيعية خارج المنزل .

وقد ارتفع بالمثل معدل من استخدموا **الطوب الاحمر** فى تشييد منازلهم او استخدموه فى أضافة تعـــديلات للمنزل من ٦٨٪ فى الحقبـــة الاولى الى ٩٢ر٣٪ فى الحقبة الاخيرة ، وغير خاف أن الطوب الاحمر اكثر صلابة من الطوب اللبن مما أدى لتغير الشكل المرفولوجى للظهير .

(د) وقد **ارتفع معدل من قدموا لزوجاتهم مهرا يزيد على ٢٠٠ جنيه** من ٢٨٪ الى ٣٨٪ ، وليس بخـــاف أن الزيجات هنـــا تتم بين الاقارب مما يجعل قيمة المهر منخفضا فى الحقبتين .

غير ان معظم **القـــرارات الاسرية لا زالت من سلطة الزوج** وحـــده بل ان بنـــاء القـــوة المتمركز فى شخصية الزوج قد ارتفع معـــــدله من ٥٩٪ الى ٦٤ر٣٪فى الدراسة الحقلية الاخيرة بينما أقتنع ٢٠ر٨ ٪ من ارباب الاسر فى الثمانينيات بأن القرارت الاسرية من سلطة الزوجة وحدها فهى تعرف كل صغيرة وكبيرة عن الاسرة ويتم ذلك عادة بالنسبة للزوجات كبار السن حيث ترتفع مكانة الزوجة كام وجدة لعـــــدد كبير من الذكور والاناث داخـــل المنزل ، وهكذا نجد انه رغم تسلط الرجـــل آلا ان نسبة تعـــدت خمس ارباب الاسر اصبحت توكل بمهمـــة اتخـــاذ القرار للزوجة وحدها وهى نسبة ليست بقليلة .

(هـ) **انخفضت نسبة من لديهم وقت فراغ** من ٧٠٪ فى السبعينيات الى ٥٦٪ فى الثمانينيات اذ ان ضغوط الحيـــاة المتزايدة قد زادت بدورها من حجم المسئوليات الاجتماعية والاقتصادية والملقـــــاة على عاتقهم كما انخفضت نسبة من يقضـــون وقت فراغهم فى المنزل أو فى زيارة الاقارب من ٩ر٥١٪ الى ٤٢٪ فى الحقبة الاخيرة وهو ما يوضح زيادة أعبـــــاء ارباب الاسر رغم وجودهم فى مجتمع زراعى بسيط يمارسون فيه الزراعة التقليدية داخل المدينة الكبيرة .

(و) ارتفع **معدل من يستمعون للمذياع** من ٨٨٪ ممن كانوا يستخدمون الراديو « الترانزستور » الى ٩٣٪ ممن يستخدمون الراديو الترانزستور فى الحقل والراديو الذى يعمل بالكهرباء فى المنزل غير أن نسبة من يشاهدون التليفزيون قد ارتفع من ٤٪ كانوا يستعملون التلفزيون الذى يعمل بالبطارية سنة ١٩٧٨ الى ٨٧٪ يستحوذون على أجهزة تلفزيون بعد دخول التيار الكهربائى للظهير — أو لديهم اجهزة تعمل بالبطارية لحين دخول التيار الكهربائى للقطاعات المتطرفة فى المجتمع المحلى — وهم يحرصون عادة على مشاهدة المسلسلات يليها البرامج الدينية ثم نشرات الاخبار فالاغانى ثم مباريات كرة القدم وهذه النسبة الكبيرة توضح **الدور الكبير الذى بدأ يلعبه التلفزيون فى حياة الاسرة الريفية** داخل الظهير الزراعى فقد أصبح الصديق الذى لا يسهل الاستغناء عنه ومصداق ذلك ما ذكره السكان من أن الناس لم تعد تنام الآن قبل العاشرة مساء بعد أن كانت تنام مبكرا من قبل .

وقد ذكرت العينة المدروسة أن التغير قد أصاب الجميع وأن أكثر من أصابهم التغير هم صغار الذكور بل وكبارهم أيضا يليهم الاناث الصغار وقد أوجزوا هذا التغير فى أن الظهير الآن أصبح يشهد أفكارا أفضل نتيجة لنضج الناس وازدياد وعيهم واتساع ادراكهم للحياة كما ظهرت بعض العلاقات العاطفية بين الجنسين فضلا عن ظهور بعض صور الانحراف كالنفاق والرياء من جهة وازدياد حدة المشاجرات بين الناس من جهة أخرى . وهكذا يبدو أن لاساليب الاتصال الجمعى وابرزها جهاز التلفزيون أثرها الفعال فى التغير الثقافى داخل الظهير .

(ز) **أنخفضت معدلات ممارسة القروض** من ٦٪ فى السبعينيات الى ٦٦٫٧٪ فى الثمانينيات وأداء الزكاة من ١٠٠٪ الى ٨٠٫٧ ٪ ولا ينبغى أن ينسب هذا التأثير للتلفزيون واساليب الاتصال الجمعى آذ أن الضغوط الحياتية وتزايد المشغوليات تؤدى دورا لا ينكر فى خفض معدل هذه الممارسات ، هذا بينما ازداد معدل من قاموا بأداء **فريضة الحج** من ٩٪ الى ١٥٫٢٪ ، وقد زادت نسبة من وافقوا على تعليم الانثى تعليما عاليا من ٦٧٪ الى ٧٢٪ كما ارتفع معدل من يرون أن من حق الانثى أن ترتدى **زيا عصريا** (موضة) من ٧٪ الى ٨٫٩٪ كما أرتفع معدل من **ينظمون نسلهم** من ٢٩٪ من مجموع الاسر فى السبعينيات الى ٤١٪ فى الثمانينيات وأصبحت الاسرة **أكثر ميلا لاستخدام الاجهزة الحديثة** ، فقد قام ٥٠٪ من مجموع أسر الظهيرة بشراء الغسالة الكهربائية وقام ٣٧٪ من الاسر باستخدام الثلاجة الكهربائية وهو ما يعكس ارتفاع معدل الدخول فى الظهير ، والامر الملفت للنظر برغم أن المجتمع المحلى ما زال محروما من

المياه النقيـــة الا أن الاسرة فى الظهـــير أصبحت أكثر ترحيبا بالتحـــديث والتغير الثقافى — فى جوانبه المـــادية وغير المـــادية — فى الأونة الاخـــيرة بأى صورة من الصور .

وتتفق هذه النتائج مع ما أورده البعض عن التغير الثقافى فى مجتمعات محلية مماثلة فقد أورد جين دافيجنود J. Duvignaud (٢) فى دراســـة لقرابة تونسية وهى قرية Syebika ان القـــوى التى تصنع التغـــير الثقافى تهدد عزلة المجتمع المحلى التقليـــدى وأن الباحث ينبغى أن يدرب نفسه جيدا لدراسة القوى الاقتصادية والاجتماعية والثقـــافية المسئولة عن ذلك بل ان سيسيل هورانى Cecil Hourani فى تقديم هذه الدراسة تستطرد فى القول بأن مهمة عالم الاجتماع لا أن يدرس فقط بل أن يغـــير أيضا أو على حد تعبيره :

Sociology .. perhaps for the first time .. reveals, its full Capacities not merely to study men, but also to change them».

فقد ظهر أن شبيكا بالفعل كنتيجة للتغير الثقافى قد اكتشف هويتهـــا بينما ازداد توقع التغير — حده — عن ذى قبل .

كما أن روبرت ردفيلد R. Redfield (٣) عاد الى شـــأن كوم سنة ١٩٤٨ — بعـــد زارها فى المرة الاولى فى سنة ١٩٣٠ : سنة ١٩٣٣ — حيث قضى ٦ أسابيع فى القرية — مع زوجته وابنه — قد لاحظ أن القرويين يميلون للتقـــدم والاخـــذ بسبل الحضارة بشدة فقد انتفعت القـــرية من البعثة التى علمتهم حرف النجارة وصناعة الخبز والجـــــلود كما ازداد التحول الى الحياة الحضرية حيث تمت عمليات اجتماعية وثقافية ملموسة فى البناء الطبقى وعملية التحضر لخصها ردفيلد بقوله :

«In these seventeen years chankom has become a Community soprovided, in its own inhapitants with artisans and merchants that it now depends little for such services on the towns etc..».

كما أشار ردفيلد كذلك للتغيرات التى حـــــدثت فى النظام التعليمى ووسائل الاتصال الجمعى حيث سعت الانثى الى تغيير ملبسها بصـــورة ملموسة تمشيا مع تغير الاوضاع فى هذه القرية المكسيكية .

وما حدث فى الظهير الزراعى موضوع الدراسة الراهنة ســـيؤدى

الى تغير ثقافى ملموس بمرور الوقت ليس فقط نتيجة لدخول التيار الكهربائى ومظاهر التحديث للمجتمع المحلى بل لازدياد حدة الاحتكاك بين سكان هذا المجتمع والمدينة المتروبوليتانية وهو الامر الذى يلفت رودلف L.L. Rudolph وسوسان رودلف Susanne. H. Rudolph (٤) النظر اليه من أن وسائل الاتصال ستحطم عزلة القرية حيث يزداد اتصالها بالعالم الخارجى ومظاهر التصنيع الحديث وسبل الحضارة المادية .

كما انه اذا تم اتصال الظهير الزراعى بمجتمع العاصمة — بواسطة طريق برى مأمون فلابد أن يزيد ذلك من حدة التفاعل بين المجتمع المحلى والمجتمع الاكبر فالتغير الثقافى اذ ذاك سيلحق بأساليب الثقافة المادية وغير المادية بل أن الانساق كلها سيلحقها التغير بصورة مضطردة .

والشاهد هنا فى النهاية انه رغم ضآلة التغيرات التى حدثت فى **النظام المهنى** فان زيادة **الاتصال بالمدينة** أصبح متاحا من خلال وجود القوارب البخارية فضلا عن القوارب الشراعية التى كانت معروفة من قبل ، وقد لحقت **تغيرات مادية** مسكن الاسرة واستخدام الحجرات ، ونوعية الاثاث والمهر المقدم للعروس وازدان حفل الزواج بالطرب واستخدام مكبرات الصوت ، بينما تغير بناء القوة داخل الاسرة فى بطء شديد فالرجل لا يزال حجر الزاوية فى الحياة الاجتماعية فى الظهير .

ومن المرجح أن تأثير دخول التيار ألكهربائى واساليب الاتصال الجمعى قد ظهر فى استخدام الادوات التكنولوجية ، كما أن رياح التغيير فى الاتجاهات قد بدأت تعمل بفاعلية فى المجالات المرتبطة بتعليم الانثى وزيادة استخدام وسائل منع الحمل ، وقد بدأت تظهر قيمة الوقت كما انخفضت معدلات ممارسة الفروض الدينية نتيجة لانشغال السكان فى العمل وفى مشاهدة برامج التلفزيون وكثرة التردد على المدينة لقضاء مصالحهم ، ومن المرجح أن تزداد الآثار الاجتماعية والثقافية فى الظهير بمرور الوقت نتيجة للتغير الثقافى .

« المصـــــادر »

١ — **ثروت اســحق** — اثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتمـــاعى فى المجتمعات الصغيرة — رسالة دكتوراه غير منشورة — جامعـــة عين شمس — القاهرة ١٩٨٠ — الفصل الخامس .

٢ — Change at shebika, Introduction by R. Fernea .. U.S.A. 1977 foreword. pp. vol. 285.

٣ — A village that chose progress. Chicago, 1964. pp. 20 : 46.

٤ — The modernity of tradition. in political Development in India .. Chicago .. 1967 pp. 17 : 29.

مقـــــــدمة :

مجـــــــالات

« الانثروبولوجيـــا الاجتمـــاعية »

يذكر محجوب أن **الانثروبولوجيا الاجتماعية** تهتم بدراسة الانســاق الايكولوجيــة والاقتصادية ، والقرابية ، والدينية ، والقبلية والسياسية حيث تحظى نظم الزواج والمصاهرة ، وتنظم الانتاج ، والتبادل ، والدين ، والســحر ، والميراث ، والسلطة ، والزعامة والجــزاء ، والهجــرة ، والتكوين السكانى ، والتغــيرات الديموجرافية على أهتمام علمــاء الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ومن هنا ظهرت فروع عديدة لدراسة هذه الظواهر لعل من أبرزها **الانثروبولوجيا الحضرية والريفية ، والديموجرافية ، والطبية ، والسياسية، والدينية ، والاقتصادية والانثروبولوجيا التطبيقية وانثرولوجيا التنميــة** ويعنى كل فرع من هذه الفــروع بدراسة النظم الاجتماعية فى الانمــاط الاجتماعية المختلفة بحيث تدرس الانثروبولوجيا السياسية على سبيل المثال نظم الزعامة والسلطة والثواب والعقاب فى أنماط نماذج مجتمعية (بدوية — قبلية — ريفيــة — حضرية) ، وتنتهى بنتائج على درجة معينــة من التعميم تقارن بين الإنساق السياسية على ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعى وبشرط أن تكون هــذه النماذج المجتمعيــة متنوعة ومتمايزة ، وقد كان **مالينوفسكى** واعيــا بالدور الذى يمكن أن تلعبه الانثروبولوجيا فى التحليل وفى تشييد البنــاء المعــرفى وبأن لها طموحات تطبيقيــة وقد قرر هذا منذ عشرينات القرن الحالى .

ويذكر فهيم أنه مع بداية الاربعينيات امتد نطاق **توظيف انثروبولوجيين** واستخدامهم فى أجهزة حكومية وفى مؤسسات صناعية عديدة وأنه أمكن الاستفادة من توظيف الانثروبولوجيا وفروعها لخدمة أهداف الحــرب بل ومساعدة دول العالم الثالث التى بدأت تنال استقلالها السياسى لبلوغ التقــدم واللحاق بعجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ومن هنــا ظهرت انثروبولوجيا التنمية Anthropology of Development .

كما ظهـــرت فى بداية الستينيات الدعـــوة لفروع جـــديدة من الانثروبولوجيـــا من أبرزها **الانثروبولوجيا اللغـــوية** Linguistic Anthropology ومجالها هو دراسة اللغة فى اطـــار شبكة العـــلاقات الاجتماعية والبيولوجيـــة الاجتماعية Sociobiology التى تهتم بابراز الاسس البيولوجيـــة للســـلوك الاجتماعى فى المجتمع بالنسبة للانسان وغيره من الكائنات كما ظهر المجال المعـــروف **بانثروبولوجيا ابناء البلد الاصليين** Indigenous Anthropology .

وهناك مجموعة متميزة من الفرنسيين ومعهم ايضـــا نخبة من باحثى العالم الثالث وجهوا اهتمامهم لمجالات اخرى وظواهر اخرى للانثروبولوجيا الاجتماعية كالراسمالية ، والنظام الطبقى ، والتمايز الاجتماعى ، والهجرة الريفية الحضرية ، والامبريالية ، والاستغلال والتبعية وغيرها .

وسنحاول فى هـــذا الباب أن نركز على أبرز مجالات الانثروبولوجيا الاجتماعية وهى المجال الحضرى والصناعى والريفى والسياسى وان نقدم مع كل مجال دراسة حقلية واحدة على الاقل أو اكثر على اعتبـــار انه بدون الدراسة الحقلية يصعب أن نتحـــدث عن الانثروبولوجيا اذ انها ستكون آنذاك نظرية الطابع جافة المظهر مجردة من الوقائع الحياتية .

ومعظم الدراسات الحقلية المشار اليها هى دراسات قام بها الباحث بمفرده أو تحت اشراف هيئات بحثية او جامعات مصرية .

الفصـــــل الرابع

« الانثروبولوجيـــا الريفيـــة »

تردد علماء الانثروبولوجيا قليلا قبل اعادة تعريفهم لعلم الانثروبولوجيا بانه **يتضمن دراسة كل الشعوب فى شتى المواقف الاجتماعية والثقافية** .

والمتتبع لتعريف هذا العلم كما جاء فى اقوال وكتابات **ايفانز برتشارد ورادكليف براون** وغيرهما لا خفى عليه ذلك نما زال الانثروبولوجيـين — على مالا يذكر **روبرت redfield** — يتحرك فى عالمه المتسع تقوده فكرته الاولى ومفهومه االتقليدى عن المجتمع البدائى فالسعادة الحقيقية هى فى دراســة القبائل البدائية المنعزلة التى لا نعرف عنها شيئا .

غير أن عالم الانثروبولوجيا قد استرعى اهتمامه أن المجتمعات « غير البدائيـــة » تختلف أختـــلافا كبيرا عن النموذج « البدائى » المنعـــزل لان المواطن القروى والحضرى يعيشـــــان فى ظل المجتمع (الكلى) مع اختلاف طرق حياتهما بصورة او بأخرى .

ولان المجتمع القومى يضم هذه المجتمعات فهى تعد بدورها اجـــزاء من كليات اجتماعية وثقافية أكثر تعقيدا ، وقد ظل هذا الاهتمام بالمجتمعات الاكبر ينمو حين درسوا المجتمعات غير الاوربية فى آســيا واوربا وأمريكا اللاتينية(١) .

واذا كان **علم الاجتماع الريفى** (الامريكى النشـــأة) قد جاهد عبثا فى فهم مشكلات المجتمع الريفى — فى ضوء السياق المجتمعى الذى توجـــد فيه — فدرسها بصـــورة تجـــزيئية فان **الانثروبولوجيا الريفية** قد نجحت فى دراسة الظواهر الريفية فى اطار البناء الاجتماعى الذى توجد فيـــــه وتتبعت علاقاتها الوظيفية بالظواهر الاخرى (١) .

وقد نجح ولكنج E. Wilkening فى معالجته السسيولوجية **للمهارات الفنيـــة فى المجال الزراعى** وتأثر فى صياغته لفروض دراسته باعمـــــــال وسلر Wissler ومالينوفسكى Malinowski وجون جيلين حيث فهم هؤلاء

الانثروبولوجيون انتشـــــار السمات الثقـــــافية فى ضوء المركب الثقافى للمجتمع (٢) .

والواقع أن الاهتمام بالمجتمع القروى لم يك أحد الاهتمامات الاساسية للانثروبولوجيا — الاجتماعية والثقافية — فقد كان هدفها الاساسى التركيز على المجتمعات البدائية المنعـــزلة لفهم الانسان البدائى ، غير المتحضر) .

ويرجع الفضل **اروبرت ردفيـــــاد** فى تعـــديل مسار الاتجـــاهات الانثروبولوجية التقليدية لتناسب دراســـة المجتمعات القروية الصغيرة من خـــلال دراسة **البنـــاء الاجتماعى** فى القرية باستخدام الملاحظة مع تحليل المادة الاثنوجرافية التى يحصل عليها الباحث من صحائف الاستبيان (٣) .

والواقع أن كتابات**ماركس** قد شكلت شرارة الانطـــلاق فى الاهتمام المتعمق بنمط الانتـــاج الريفى فمع أن ماركس يقرر أن الانسان لن يطول بقاؤه فى المجتمع الريفى التقليدى الا أنه قد لفت أنظـــار الباحثين فى حديثه عن نمط الانتاج الاسيوى الى جذب المدينة المتزايد — فى الشرق — للاعداد الكبيرة من الفقراء ممن هربوا من ظروف التخلف فى القرية فلم يلبثـــوا أن تحولوا الى « حثالة المدن » ، ومن هنـــا استرعى التغير الثقافى أنظار البعض ممن تابعوا التغيرات الديموجرافية والاقتصادية والاجتمـــاعية فى المناطق الريفية — كنتيجة لنزوح الاعداد الكبيرة من قوتها العـــاملة الى المدن بعـــد انحســـار النظام الاقطـــاعى — فأبرزوا بدورهم ازدياد الضغط على الموارد والخدمات الحضرية نتيجة لذلك ، والتغير الثقـــافى الذى يلحق القـــرية نتيجة للجسور الثقافية بين القرية والمدينة (٤) .

ولا يمكن هنا أن نغفل تأثير تونيز الذى قدم مصطلحه الشـــهير بالالمانيـــة Gemein schaft من Gemeinds اى **المجتمع المحلى الصغير** The local Community أو المجتمـــع المحلى الريفى Dorf Gemein Schaft وهو هنـــا كوحدة ادارية تتضمن الانشطة والعـــلاقات الاجتمـــاعية حيث انصب اهتمامه على « الارادة الطبيعية » وتونيز فى نظر بارسونز قد اعتبر الاقتصاد الزراعى فى الريف مسبوقا باقتصاد الاسرة ويليـــه مبـــاشرة اقتصاد المدينة الصغيرة (٥) ولا شك أن هذا التدرج كان يرضى بصـــورة أو بأخرى عالم الانثروبولوجيا « الكلاســـيكى النزعة » باعتبار أن هـــذه المجتمعات المحلية البســـيطة تختلف عن المجتمعات الحضرية التى نعيش فيها .

كما أن تأثير **مدرسة شيكاغو** لا يمكن اغفـــاله فى هذا السياق فقد استحوذ المجتمع المحلى الريفى وعلاقة الانسان بالبيئة على اهتمام جالبين Galpin وبارك Park وماكينزى Mckenzi (٦) .

ومن الدراسات الرائدة فى هـذا المجال دراســـة روبرت ردفيلد Redfield التى درس فيها قرية شان كوم Chankom وقرية تيبوزتلان Tepoztlan ـــ مقاطعة يوكاتان ـــ بالمكسيك .

وقد أوصى فى هذه الدراسات بضرورة الرجوع للتاريخ من جهـــة مع مراعاة المؤثرات الخارجية (الحضرية) التى تؤثر فى مجتمع القـرية من جهة اخرى كما اختار عدة انماط متدرجة من المجتمعات المحلية تبدأ بقرية Tusik التى لا يتعدى سكانها ١٠٦ نسمة ثم شان كوم وهى فى نظـره (القرية التى تبغى التحضر) ومن المعروف أن قرية تيبوزتلان كانت المصدر الرئيسى لافكاره عن المتصـــل فولك حضرى ففى سنة ١٩٢٦ أكتشف فى خصائص هذه القرية ما طوره بعد ذلك فى نموذج المجتمع الشعبى ، وقد أكد ردفيلد على أهميـــة الفهم البنائى للقـرية والمدينة حيث يســتحيل وجود فلاحين دون مدينة ويصعب وجود مدينة دون فلاحيها .

أما دراسة **أوسكار لويس** C. Lewis عن قرية تيبوزتلان نفســـها فقد مارست تأثيرا أكبر على الباحثين فقد حاول لويس أن يجعل من النتائج التى خرج بها ردفيلد فروضا حاول التحقق منها كما قام بدراسة تتبعيـــة للقرية بعد مرور نحو ١٧ سنة لاستجلاء مظاهر التغير ، وقد حدد لويس أهداف دراسته فى دراسة الثقافة والعلاقة المتبادلة بين النظم الاجتماعية وعلاقة المجتمع (كوحدة) بالمجتمـــع القومى ، وقد درس لويس النسق الاقتصادى والقرابى والانماط الثقافية وانساق الضـــبط الاجتماعى وقسم تاريخ المجتمع لثلاث عقب كما أبرز الوان الصراع كما تعرض للمشـــكلات الاجتماعية فى القرية ، وقد ذكر لويس أن ردفيلد فى تغاضى عن تحليـــل الانساق الاجتماعية بما تذخر به النظم من اوجه الصراع كما أغفل استعراض العلاقة بين القرية والمجتمع القومى وتقاعس عن الاستفادة من المعطيات التاريخية البنائية (٧) .

وقد جذبت **الدراسة الشمولية للمجتمع المحلى** باستخدام الاســاليب الانثروبولوجية وسوسيولوجيا المجتمـــع المحلى انظـــار هولنجدشيد ، ولنسكى ، والمتون ممن تعمقوا فى دراسة البناء الاجتماعى للمجتمع الريفى وانساقه الاجتماعية .

وقد اكتسب علماء الانثروبولوجيا خبرة طيبة فى مجال تزويد **برامج التنميـــة** ببيانات هامة حينما تحولوا لدراسة المجتمع المحلى وكان الهدف من أول دراســة لمجتمع محلى فى هذا المضمار المساعدة فى تنفيذ برنامج التنمية فى المكسيك بعد الثورة (١٩١٠ — ١٩٢٠) وقام بها جاميو Gamio وسانز بالاشتراك مع فاسكونسيلوسى وتبعتها دراسات اخــرى فى أمريكا الجنوبية وآسيا وافريقيا .

ومن الدراسات الهامة التي مارست تأثيرا كبيراً على الباحثين دراسة وليامز التى تناول فيها مختلف جوانب الحياة الاجتماعية فى قرية انجليزية .

ودراسة هاريس Harris عن اختيـــار القادة فى قرية بوللى بيج Bolly Beg بايرلندا الشمالية فى بداية الخمسينيات (٨) .

ويمكن تصنيف الدراســات الانثروبولوجية عن المجتمعات القــروية أما فى الاطار الضيق Micro الذى يشمل احد الانساق أو بعض الخصائص الاجتماعية فى ضوء تأثرها على باقى انساق البنــاء الاجتماعى فى القــرية **او فى الاطار المتسع** Macro الذى يشير الى علاقة القرية بالمجتمع القومى الذى يضمها ، ويدين الاطار الاخير بالفضل لبعض الكتاب أمثال ردفيــلد Redfield وهويت Whyte وجانز Gans .

وقد قطعت الابحاث التى تمت فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينيـــة شوطا هائلا فى التحليل نتيجة الابحاث التى تمت فى آسيا وافريقيا للدراسة الحقلية لمجتمعات قروية واستخدمت المنــاهج والادوات المتعارف عليهــا فى الانثروبولوجيا فقد درس ناش Nash آثار التى احدثها مصنع للنسيج أقيم فى مجتمع محلى جواتيمالى .

ودرس هنتر M. Hunter نتائج ادخال برنامج لتربية المواشى فى مجتمع محلى جنوب افريقيا كما درس جيرز Geers اثر ادخال المحصولات التجارية الاستعمارية على النشاط الزراعى فى المجتمع الاندونيسى . وهكذا اســهم الانثروبولوجيون فى فهم مشكلات تقبل ورفض التغير كما اسهموا فى عمليات التخطيط والتنفيذ والتقويم فى مشروعات التنمية والتى من أمثلتها مشروع « فيكوس » الذى كلف علماء الانثروبولوجيا بتنفيذه فى أحــد المجتمعــات فى بيرو .

وهناك بعض دراسات تمت فى افريقيا وتبنت هذا الاتجـــاه اهمها **دراسات بانتون** Banton **وليتيـــل** Little (٩) .

وقد أبرزت الدراسة التى قدمها **شانين** Shanin اهمية السوق والدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى تغيير حياة الفلاح وتقوم وجهة نظر شانين على اعتبار أن دور الحكومة المركزية فى هذه المجلات الزراعية كان باعثا « على التغيرات البنائية الاساسية حيث فرضت ضغوطا خارجية قوية على اقتصادها الزراعى .

ويذكر فهيم (١٠) أن تحديد كلمة « قروية » Peasantry من أولى الموضوعات التى واجهها واختلف عليها الانثروبولوجيون المهتمون بالدراسات القروية وأن **كروبر** Kroeber — فى كتابه عن الانثروبولوجيا والذى صدر فى نهاية الاربعينيات — قد أوضح أن القرويين لا يستطيعون الحياة دون الاتصال والاعتماد على الاسواق الحضرية ويعنى هذا أن الاختلاف الاساسى بين الحياة الريفية والبدائية يكمن فى اعتيادية المجتمع الريفى على المدينة والمجتمع القومى فى مقابل أستقلالية المجتمع البدائى ، واذا كان فيرث يعتقد أن قروى بالمفهوم الغربى لا تطابق واقع المجتمعات الشرقية ، وأن الصيادين فى قرى جنوب شرق آسيا ينتمون الى فئة اجتماعية مماثلة للمزارعين فان فوستر وردفيلد ، وولف Wolf يرون من جهة اخرى أن القروية Ruralism تمثل طريقة فى الحياة قوامها العمل بالزراعة وان كانت هناك فئة (مهنية) أخرى تمارس اعمالا غير زراعية القرية .

ويرى فهيم أن أبرز الاطر المقدمة لدراسة التنظيم الاجتماعى وتحليله قد قدمت من فيتش Fitchen وفوستر حيث قدم الاول معيارا بنائيا ذا خمس أبعاد للتمييز بين المجتمعات البدائية والريفية والحضرية(*) تميزت بموجبه المجتمعات القروية بوجود تنظيمات اجتماعية اختيارية ، ووحدات سكنية بكثفية ذاتية ، وبالارتباط بين السكان مع ازدياد التوجيه القيمى ، وبالتساوى بين الوحدات الاجتماعية المكونة للمجتمع كما أن سكان المجتمع القروى يمثلون جزءا من المجتمع الكلى (القومى) فى نهاية المطاف .

هدا بينما ميز الاخير فى درآسته التتبعية لقرية مكسيكية — بدا

(*) علما بأن Redfield قد هاجم فكرة التطور من البدائية الى الحضرية واعتبر أن المجتمعات القروية لم تنشأ أساسا من مجتمات بدائية وانما صاحبت قيام المدن .

بدراستها الحقلية سنة ١٩٤٢ دراسة انثروبولوجية بين **التعاقد المتماثل** Symmetrical contract **وغير المتماثل** Asymmetrical contract ويشير التعاقد المتماثل الى التعاقد بين اشخاص ينتمون للمكانة الاجتماعية والاقتصادية نفسها . بينما يشير التعاقد غير المتماثل للتعاقد بين من ينتمون لمكانات اجتماعية واقتصادية مختلفة ويقترح فوستر بصفة عامة استخدام التعاقد الثنائى كوسيلة لتحليل بنية المجتمع القروى .

وقد ادى التحليل الوظيفى البنائى فى ميدان الانثروبولجيا الى نبذ العوامل التطورية والتركيز على دراسة الانساق الاجتماعية وتحليل البناء الاجتماعى ، ومن هنا اهتمت الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة شبكة العلاقات الاجتماعية فى القرية مع دراسة العلاقات بينها وبين القرى والمدن والنجوع المتاخمة والمدينة القريبة والخاصة الرئيسية التى تميز الدراسات الانثروبولوجية التى تتبنى الاتجاه البنائى التركيز على جماعات محلية صغيرة داخل وخارج القرية بقصد تتبع العلاقات فى تداخلها وتفاعلها معا لتحليل البناء الاجتماعى وشبكة العلاقات الاجتماعية .

والحقيقة التى يؤكد عليها علماء الانثروبولوجيا الريفية انه طالما ان القرية تستشعر قوى التغير نفسها التى تؤثر فى المجتمع القومى فمن المستحسن أن يدرس مجتمع القرية فى ضوء **النظرة الضيقة** (الداخلية) Internal **والنظرة المتسعة** (الخارجية) External فى الوقت نفسه .

ويرى معظم الانثروبولوجيا الريفية الآن انه اذا كانت هناك علاقة مستمرة بين القرية والمدينة بل والمجتمع القومى فان هذه العلاقة التفاعلية لا تقوم على بعد واحد وانما على عدة أوجه مترابطة تتصل بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية ، ومع هذا فان تعدد الابعاد لا يسهل عملية التحليل والدراسة بقدر ما تقابله صعوبات كثيرة عند تطبيقه على بعض المجتمعات فهناك مجتمعات زراعية توجد داخل مجتمعات صناعية نامية كما هو الحال فى بعض البلاد الاوربية واليابان حيث لا تفرض الدول وصايتها على القرية فالسائد عادة فى مثل هذه المجتمعات هو وجود ثقافة مشتركة او جماهيرية Mass Culture بالنسبة للمجتمع فالعلاقة بين المطيات الريفية وبين المجتمع القومى هى فى الحقيقة علاقة تكاملية (١١) .

وهكذا ظهرت الانثروبولوجيا الريفية بغـــذيها **الاتجـــاه الوظيفى** فى الانثروبولوجيا من جهة وتقاليـــد **المدرسة الامريكية** فى علم الاجتمـــاع من جهة أخرى ، وقد انتفع علم الاجتماع الريفى أيما انتفـــاع من الدراسات الشـــمولية Holistic الطابع بل لقد تبادلا معا « التأثير والتـــأثر » ويستشهد البعض لتأكيد هذه الحقيقة بظهور هذا الفرع الذى يعرف الان فى الولايات المتحدة **بسسيولوجيا المجتمع المحلى** Sociology of Community كدليل على ذلك (١٢) .

وعندما انتقل الانثروبولوجيون الامريكيون فى دراسة المجتمعـــات البدائية فى شمال أمريكا الى دراسة الحياة القروية جنوب ووسط (أمريكا) اهتم عدد كبير بدراسة أوضـــاع الفلاحين تحت تأثير فكرة « التثقف » Acculturation فقاموا بتحليل الثقافات (القروية) ككيانات منفصلة واهتموا بالمقارنة بينها .

غير أن علماء الانثروبولوجيا فى أمريكا عندما اتجهوا صوب أمريكا اللاتينية لفت نظرهم طريقة حياة الهنود والاسبان والبرتغاليين الذين تربطهم بالمناطق الحضرية علاقات متنوعة فاهتموا بمشاركة القرويين فى الانظمـــة المجتمعية القومية وبأوجه الخلاف بين سكان الريف والمدن وطبقة النبلاء .

والامر المحورى هنا أن الانثروبولوجى عليه أن يقوم بدراسة المجتمع المحلى كجـــزء من مجتمع أكبر كما يتحتم عليه أن يتعـــرف على أنواع العلاقات بين الشرائح المختلفة مثل العلاقات بين الافراد الذين نالوا حظـــا كبـــيرا من التعليم والذين نالوا حظا أقل ، وبين رجل المدينة ورجل القرية فضلا عن العلاقات مع النظام القومى ففلاح كواتج تنج Kwangtung الفـــلاح البلغارى يقومان ببيع منتجاتها فى الاسواق الحضرية مباشرة .

وهكذا يتفق ردفيلد مع كروبر Kroeber فى أن علمـــاء الانثروبولوجيا الريفية قد أيقنوا عن قناعة كاملة بأنهم يدرسون الآن **المجتمعات كاجـــزاء من مجتمعات أكبر** (١٣) .

يستشهد ردفيلد على لذلك بقبائل « التيف » وسط نيجيريا حيث تتركز العـــلاقات والقوة داخل مجتمع القـــرية بينمـــا تنقل قبـــائل « اللورى » فى افريقيا الوسطى مراكز السلطة خارج القرية .

واذا توقفنا — وقفة هينة — عند ما كتبه ردفيلد عن المجتمع القروى ونظرة الفلاح للحياة سواء من خلال دراساته او الدراسات الحقلية التى قدمها غيره من علماء الانثروبولوجيا لاسترعي نظرنا تاكيده على تاثر القرية بالافراد وفئات السكان ممن ينتمون لمجتمعات محلية اخ رى مجاورة اذ أوضحت دراسة بيرسون Fierson عن القرية البرازيلية تاثر سكان القرية بـ « الموظفين الرسميين » وفى ياكتان التى درسها روبرت ردفيلد كان المدرس هو الشخص الوحيد المؤثر والممثل للعالم الخارجى داخل القرية .

وقد استنتج **فوستر** من دراسته لقرى **أمريكا اللاتينية** تاثير النشاط الدينى الوافد للمنطقة فضلا عن الرقصات ومصارعة الثيران كظواهر ثقافية لم تك معروفة للسكان **أما ردفيلد** فقد ناقش الاتجاهات السائدة عادة لدى الفلاحين ويعلق هذه الاتجاهات بالزراعة ربما اذا كانت احد افضل المهن فاكتشف أن الفلاح فى ياكتا وفى ساكس بانجلترا وفى غيرهما يجب العمل فى الارض واذا كانت هناك شواهد معاكسة كالتى أوردها فرمان وتنتورى عن الفلاح فى جنوب ايطاليا وريفرز عن الفلاح الاندونيسى الذى يهجر الارض متجها للمدينة فان هذا يعكس بدوره بعض الاختلافات الثقافية الاقليمية وازدياد المشاق التى يقابلها الفلاح لزراعة أرضه . والعائد غير المجزى مما ينعكس على اتجاهه السلبى تجاه الزراعة والارض .

أما الاتجاه الثانى فيتضمن التعبير عن العاطفة وقد وضعه ردفيلد بالنسبة لسكان القرى التى درسها بأنه يتسم بالرزانة والورع حيث يأتى الزراع فى ياكتان للتعبير عن « العمل والتقوى فى الحياة والبعد عن المغامرات الجنسية » ، وقد خرج بورن Bourne من دراسته لسكان مقاطعة سرى بنتائج مشابهة .

أما بالنسبة للبندلنج فى جنوب ايطاليا فالتجربة الجنسية لازمة فى هذه القرى لفهم الحياة ويعزى ردفيلد تلك الاختلافات للجذور التاريخية التى تؤدى بدورها لفروق قيمية قروية فى المناطق المختلفة .

ويأتى الاتجاه المرتبط بالاتصال بالخارج ليعكس مجموعة اخرى من القيم فالسوق والزعامة السياسية والرئاسة الدينية والمحكمة تمثل **العالم الخارجى** وقد استشهد ردفيلد بالدراسات الحقلية عن الهند حيث اكتشف الاثر المباشر الذى تعكسه بعض الشخصيات على الحياة

الاخلاقية فى داخل المجتمع القروى كما أوضح أن بعض سكان القرى يقبلون على المدن للعمل غير أنه من جهة أخرى قد اكتشف كيف يقف الفلاح فى وجه التغير الاجتماعى ويحاول مقاومته (١٤) .

ويذكر **عودة** (١٥) أن التيار الانثروبولوجى كان التيار السائد فى **الهند** ويستشهد بدراسة ديوب Dube عن القرية الهندية بدراسته الحقلية لبرامج التخطيط فى مجموعة من القرى الهندية ودراسة اشوران لمجتمع قروى فى جنوب الهند .

وفى سيلان قام باحث أمريكى يدعى برايس رايان B. Ryan بدراسة الاتصالات فى قرية سيلانية وحاول الباحث أن يجمع بين التكنيكات الانثروبولوجية وطرق البحث فى علم الاجتماع الريفى فى دراسته لشبكة العلاقات الاجتماعية وشبكة الاتصالات فى القرية .

وفى اليابان قام جون أمبرى J. Embree بدراسة لقرية سويا مورا ابان مرحلة التحول الاجتماعى لمجتمع القرية .

وفى معرض حديثه عن الانثروبولوجيا والاستشراق والتبعية فى دراسات ريف الشرق الاوسط يذكر **باندلى وكاثى جلافانيس** Pandeli, katheleen GLAVANIS .

ان هذه الدراسات اتخذت اتجاها وصفيا تقليديا تصور المجتمع الريفى على أنه مجتمع ساكن يقاوم التغير الاجتماعى حيث تشكل الانساق العائلية والطائفية محورا للمحافظة على البناء التقليدى Traditional وان التغير يحدث اذ ذاك نتيجة للقوى الخارجية External

وتميل هذه الدراسات للتركيز على الهجرة باعتبارها اهم العوامل فى احداث التحول فى القرية فى **الشرق الاوسط** وفى مثل هذه الدراسات يجرى تصوير الفلاح باعتباره « أميا .. مريضا .. يفتقر للوعى مقيدا بالتقاليد » وأن التنمية تتم عادة على أيدى الطبقة المتوسطة الجديدة والتى تعيش فى المدينة .

وقد أدى ذلك الى قصور الاطار النظرى **الوظيفى المحافظ** فى فهم البناء الاجتماعى فى الشرق الاوسط ، وهو الاطار الذى ظهر فى السياق الاستعمارى خلال الحقبة الممتدة سنة ١٨٨٠ : ١٩٥٠ حيث دخل العالم العربى فى ظل النظام الرأسمالى (العالمى) كهامش تابع للسيطرة

(الامبريالية) ، وقد جاءت الصحوة مع تصاعد المد القومى والاستقلال وما صاحبه من ازدهار للبحاث والدراسات التى قامت بها مدارس وطنية مثل **مدرسة جامعة عين شمس** فى مصر فى الستينيات حيث أعادت توجيه الدراسات البحثية حول مختلف جوانب التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الاوسط مع اهتمام زائد بدراسة العلاقات الزراعية والطبقات كما ظهرت **مدرسة التبعية** وهى المدرسة صاحبة الاتجاه الفكرى النقدى والتى نشأت فى أمريكا اللاتينية مسترشدة فى ذلك باعمال لينين ، وقد حاول اتباعها فى مصر والسودان والجزائر دراسة طرق اندماج المجتمع الريفى الشرق الاوسطى فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى .

فاذا اعدنا الى امثلة محلية للدراسات الانثروبولوجية فان البعض يشير الى دراسة عبد الله لطفية لترى الضفة الغربية فى الاردن والى دراسة حامد عمار عن التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا بمحافظة أسوان وعاطف غيث فى قرية القيطون بمحافظة الدقهلية كمثال لاستخدام الاتجاه الانثروبولوجى فى الدراسة فى الاردن ومصر حيث استعانت الدراسة الاخيرة بالمنهج الانثروبولوجى المعدل الذى طوره ردفيلد لدراسة هذه القرية واستعان الباحث بالتاريخ فضلا عن الملاحظة والملاحظة بالمشاركة كما استعان بذاكرة كبار السن لابراز التغير الاجتماعى والثقافى فى مجتمع القرية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

ويرى ميرفى (١٦) أن دراسة المجتمعات الريفية قد ساعدت الانثروبولوجيا لكى تتصدى لدراسة مشاكل العالم الحديث .

«The study of such peasant societies took anthropology into Confrontation with the problems of modern world».

اذ أن الانفتاح على السوق قد ساعد على كسر العزلة التقليدية للمناطق الريفية كما أدى لاعتمادها على نفسها أو على حد تعبيره :

«The peasant is being torn out of his semi isolation .. ending forever his self sufficiency etc..»

وهكذا أسهمت الانثروبولوجيا اسهاما كبيرا فى دراسة المجتمعات الريفية .

« المصـــــادر »

١ — روبرت ردفيلد — المجتمع القروى وثقافته — ترجمة فاروق العادلى — الهيئة العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٣ — الفصل الاول .

٢ — محمود عودة — الوضع الحالى للدراســات الاجتماعية الريفية — المركز القومى للبحوث — ١٩٧٣ — ص ٢٥ .

٣ — بيلز وهويجلر — الانثروبولوجيا العامة جـ ٢ — ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ويوسف اسعد — دار نهضة مصر القـــاهرة — ١٩٧٧ — ص ٨٦٤ .

٤ — أحمد صادق سعد — النمط الآسيوى للانتاج — الطليعة — الســنة العاشرة — فبراير ١٩٧٤ — ص ٦٥ : ص ٧٥ .

٥ — R. Konig .. the Community — London .. 1968 pp. 9-8.

٦ — I.T. Sanders, The Community, N.y. 1968 preface.

٧ — R. Redfield. The little Community. Chicago 1955.

A. Village that chose progress. London — 1962 pp. 113 : 138.

O. Lewis. life in mexican village. Illionis, .. 1963 .. pp. 339.

٨ — محمود عودة — المقال السابق — ص ٣٣ .

٩ — بيلز وهويجلر — المصدر السابق — ص ٨١٩ : ص ٨٥٧ .

١٠ — حسين فهيم — بعض الاتجاهات الانثروبولوجية فى الدراسات القروية

— الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى — المركز القومى للبحوث — ١٩٧٣ — ص ٥٩ ، ص ٦٠ .

١١— المقال نفسه — أجزاء متفرقة .

١٢— محمود عوده — المقال السابق — ص ٢٦ .

١٣— روبرت ردفيلد — المصدر السابق — ص ٥١ : ص ٩١ .

١٤— المصدر نفسه — الفصل الثالث والرابع .

١٥— محمود عوده — المقال السابق — ص ٣٦ : ص ٥٢ .

١٦— Cultural and social Anthropology New Jersey. 1986. p. 211.

« عمـــــال التراحيـــــل فى مصر »

« دراســـــة فى الانثروبولوجيـــا الريفيـــة »

ذكر بوست Post (١) ان احد العنـــاصر الاساسية **للرأسمالية التى خلقها الاستعمار** هو العمل بأجـــر فى افريقيا عند غير الافارقة أو لدى الافارقة أصحاب الملكيات الكبرى وهو يستشهد بما ذكره ســـتافن هاجين R. Stavenhagen من أن الاســـتعمار فى ريف افريقيـــا السوداء قد خلق ٣ شرائح اجتماعية جديدة هى شريحة العمال المهاجرين والعمـــال الذين يعملون فى المزارع التجـــارية الكبيرة ثم الفلاحين الذين يزرعون من أجـــل الانتاج للتصـــدير ، بل ان العامل المهاجر من وجهة نظره لا يكاد ينفصـــل عن الاقتصاد المعيشى التقليدى فالشرائح المهاجرة لزراعة القهـــوة وزراع الكاكاو من « الاشـانتى » يمثلون جمـــاعات تتنقل وتستخدم قـــوة العمـــل لمقابلة الحـــاجات الجديدة للسوق ، ولعل هذا هو السر الذى يؤكد فيـــه ستافن هاجين أن الشرائح التى تهاجر من قراها تشبه البروليتاريا نظـــرا لانها تبيع قوة عملها كسلعة .

«They selling their labour power as a commodity, like proleterians».

فالهجرة الافريقية تظهر كانعكاس للقـــوى الراسمالية والاستعمار لشرائح تقـــوم ببيع قوة عملها (ولا يعنى هذا بحـــال أنهـــا تبيع مهاراتها فحسب) .

ومن هنا فان كين بوست Post فى حديثه عن هذه الشرائح العمالية يقترب من الصـــورة التى نرسمها نحن لشرائح مماثلة نعرفها باسم عمـــال التراحيل ، هى تلك الشرائح الفقيرة التى يكرس انتاجها الاجتمـــاعى من أجل غيرها فهى ليست قوة زراعية تعمل بالزراعة بأى حال من الاحوال والحديث هنا ليس عن « القرية » بل عن عملية تحـــول هذه الشرائح الى شرائح بروليتارية أو على حد تعبير بوست :

Possible to speak of a parallel proces «of proletarianization».

ويعتمد العالم الثالث على **المركز الرأسمالى** المتقدم صناعيا الذى يعد التضخم من أبرز سماته وخصائصه وهكذا تنعكس الازمات والتناقضات على **المحيط** الذى لا يعانى من تخلفه الاجتماعى والسياسى فحسب ؛ بل يعانى كذلك من جمود أقتصادياته (٢) ورغم أن ما بين ثلث ونصف القوة العاملة فى دول العالم الثالث لا تملك الا أن تعمل بالزراعة الا ان الزراعة نفسها ما زالت متخلفة فيها نظرا لبساطة الآلات المستخدمة والاعتماد الزائد على البيئة الطبيعية (المناخ والامطار والرياح ... الخ) والقوة البشرية فضلا عن التفتيت المستمر للارض الى مساحات قزمية صغيرة واجهادها الدائم ببنما تستنزف المجهودات والنفقات — الناجمة عن مشكلات الرى ومقاومة الآفات الزراعية والسعى لشراء البذور المحسنة وتسويق المحصول — على الكثير من طاقة العلاج البسيط . ولا شك أن الكثير من الفلاحين فى العالم الثالث يعيشون على اقتصاد **« شبه معيشى »** ولا زال اهتمامهم الاساسى ينصب على توفير ضرورات الحياة لاسرهم (٣) ويؤدى تزايد السكان عادة فى ريف العالم الثالث بمعدلات كبيرة الى خلق جيش كبير من العمال المعدمين والذين لا يجدون عملا منتظما معظم شهور السنة (٤) .

وغير خاف أن هذه القوة العاملة التى تعانى من البطالة المقنعة هى قوة عمل موسمية تعانى من الامية ونقص التدريب المهنى ويؤدى زيادة حجمها — على الطلب — الى **استغلالها من خلال الوسطاء والسماسرة ،** وفى الوقت الذى يتناقض ما يبذله افرادها من جهد فى العمل مع ما يتلقونه من أجر تخضع هذه ألقوة العاملة للتقلبات فى سوق العمل مما يؤدى الى تهميش دورها الاقتصادى بينما تفقد لاى ضمانات بالنسبة للمستقبل ، وقد يتهمش هذا وما ذكره ماركس عن الفائض السكانى او **« جيش العمل الاحتياطى »** الذى يؤدى دورا أساسيا فى خفض الاجور فيتم الاستعانة بأفرادهم باستئجارهم عند الحاجة بينما يتم فصلهم فى فترات الكساد فهم يخدمون النظام الاقتصادى القائم ويساهمون فى تراكم رأس المال نتيجة لضعف الاجور التى يحصلون عليها .

فاذا تفحصنا هذه القوة العاملة الامية غير الماهرة وغير المدربة التى تشغل **قاع السلم المهنى** وجدنا أنه لا يوجد تحديد لسن الدخول للعمل فيها أو للخروج منه ولعل زيادة حجم الاسرة فيها يفسره ان الحدث الصغير يعد موردا اقتصاديا للاسرة الفقيرة بينما يسهل استغلال هذه

الشرائح بواسطة السماسرة والمقاولين والتجار ، وفى الوقت الذى تقل فيه دخولها يؤدى اهمال رعايتها الى نقص انتاجيتها بصورة ملحوظة الامر الذى يؤدى الى تهميش دورها الانتاجى بصرف النظـر عن طبيعة هـذا الدور الذى تؤديه .

ويؤكد البعض أن انتقال قوة العمل الزراعية للبحث عن عمل خارج القـرية يعد من مصاحبات النظام الراسمالى وأن العديد من بلدان العالم الغربى قد عرفت هذا النظام فى مراحل معينة من تاريخها (٥) .

وقد ناقشت دراسة رائدة عن اساليب الانتاج والتكوين الاجتمـاعى فى القرية المصرية الاسس النظرية التى قدمها عامر وعبد الملك وطلال اسد وزيجلر وسمير أمين وأوضحت أن علاقات الاعتماد والتبعية يمكن تفسيرها بوصفها محصلة **للتفاعل المتبـادل بين اساليب انتاجية راكدة واساليب راسمالية حديثة** حيث تتعـايش شبكة من اشـكال الانتاج اللاراسمالى أو قبل الراسمالية فى مصر وغيرها من المجتمعـات المحيطة (العـالم الثالث) .

ومن ناحية اخرى حاول الباحثون الانثروبولوجيون الفرنسـيون المهتمون بدراسات غرب افريقيـا أن يبرهنوا على أن البحث الانثروبولوجى الميدانى المحدود النطـاق يمكن أن يسـاعد فى الصياغة الاجرائية لاسلوب الانتاج ولمرحلة ما قبل الراسمالية والتقليـد والاستعمار ثم التحول الى الراسمالية .

ومن هنا بدات دراسـة **التفصل والتشابك فى اساليب الانتـاج والتعايش بين هذه الاساليب** وتتبع النماذج التى تسيطر فيها واحـدة من هذه الاساليب على غيرها من الاساليب . ومن هنا فقد حاول عـودة اختبار الاتجاه الفرنسى الوثيق الصلة بالبحـوث الميدانية الامبريقيـة وتفصل اساليب الانتاج من خلال دراسة عملية الانتاج الزراعى والتوزيع وعلاقات الانتاج فى ضوء التحليل الاجتماعى الموسع Macro social Analysis **للانتاج الزراعى وسلطة الدولة المركزية** وملكيتها للارض وشكل الاستغلال والاستنزاف الخارجى التى ترتبط بالانتاج الزراعى وتنظيمه الاجتمـاعى وعلاقات التبادل وكيفيـة تدخل الدولة فى اقتصاد القرية (فى مصر) مع استخدام **التحليـل الاجتماعى المصـغر** Micro **الذى يرتكز على التنظيم الداخلى للانتاج الزراعى** وتغير صور اشكال التبادل قبل الراسمالية نتيجة للتغلغل الراسمالى وتغيير صور هجرة العمل بوصفها نظاما لاعادة الانتاج الاجتماعى فى المناطق الريفية (عمال التراحيل) والهجرة الموسمية للحضر وطرق التعاقد مع القوى العاملة ومراقبة عملية الانتاج من خلال المقـاول وغيره من الوسطاء .

وبعبارة أخرى فالتحليل الاجتماعى الموسع يرتبط بسلطة الدولة على الارض الزراعيـــة بينما يركز التحليل الاجتماعى المصغر على الانتـــــاج الزراعى والقـــوى العـــاملة وعلاقات الانتـــــاج فى المجتمعـــات المحلية القروية .

أولا : التـــاريخ لعمـــــال التراحيل :

١ — من هم عمال التراحيل ؟

تقسيم القوى العاملة الزراعية فى مصر عادة الى :

(أ) **العمال الدائمون** وهم الذين يستأجرهم كبـــار وأغنياء المـــلاك للعمل فى أراضيهم « التملية » (٦) .

(ب) **عمـــال اليومية :** وهم عمال الزرآعة الذين يستعان بهم عادة فى مواسم اعداد الارض الزراعية وجمع المحصول .

(جـ) **عمـــال التراحيل :** وهم فائض العمالة الذين يزيدون فى منطقة معينة عن حاجة العمل فيبحثون عن فرص العمل فى منطقة أخرى حيث يتولى مقاول الانفـــار ترحيل بعضهم للعمل فى مشـــاريع بالقرى الاخرى بينمـــا تستوعب المشاريع المقـــامة فى مناطق حضرية شرائح كبيرة منهم ، كذلك نظرا لأن فرص العمل فى المدينة تعد أكثر اتساعا منها فى الريف ويضم هذا الفـــائض من قوة العمل عمال التراحيل الذين يضطرون للاستدانة بصورة مستمرة من المقـــاول ولا يملكون فكاكا من العمل بالترحيلة وصغار العاملين الفلاحين الحـــائزين أو المستأجرين لمســـــاحات قزمية ويحتاجون لمبالغ (مجمـــدة) لزراعة أرضهم فيضطرون للخـــــروج للعمل فى الترحيلة وقد يصطحبون معهم أسرهم (٧) .

وهناك فئة من عمال التراحيل تسمى « **الجيرة** » وهم عمال التراحيل الذين يعملون بصورة موسمية خارج القرية ثم يعودون فى نهاية اليـــوم الى القرية كما أن عمال الزراعة « الفواسة » و « الكراكة » هم كذلك من عمال التراحيل (الدائمين) .

والقاسم المشترك لكل هذه الشرائح أنها تنزع طلبـــا للعمل خارج

القـرية على مدار السنة كما تتعامل عادة من خـلال وسيط (السـواق او رئيس انفـار) وفى الوقت الذى تختلف فيه معدلات الاجور من محافظة لاخـرى ومن موقع لآخـر فى المحافظة نفسها فان معـدل الاجر يقل دون شك عن معدلات اجور باقى عمال الزراعة فى القرية نفسها ولا يسمح العمل غير المستمر بقيـام علاقة تعاقدية بين عمال التراحيل واصـحاب الاعمال مما يحـرمهم من الاستفادة من الخـدمات القائمـة فى الهيئات والمؤسسات التى يعملون فى ظلها بينما يؤدى وجود وسطاء الى استغلال عمال التراحيل بصورة تقترب من السخرة ودون أن تتوفر لهم معرفة فعلية بمناطق التشـغيل التى سيعملون بها حيث يقيمون فى معسكرات او خيام فى ظل ظروف معيشية قاسية وخاصة بالنسبة للاحداث الذين يتكدسـون عادة فى أماكن المبيت ويحتشدون فى اللواري التى تقلهم لمنـاطق العمـل دون مراعاة لأبسط الاعتبارات الانسانية والسؤال الذى يطرح نفسـه هنا : **كيف افرزت القرية المصرية عامل التراحيل ؟**

من المستحسن لكى تتضح العلاقة بين مركزية **الدولة ونظام السخرة فى مصر وبين ظهور النظام الرأسمالى** ونظام التراحيـل يحسن ان نبـدأ الاطروحة من واقع التاريخ الاجتماعى فى مصر للتعرف على كيفية ظهـور عامل التراحيل كانعكاس للظلم الفادح للفلاح المصرى على امتداد تاريخه الطويل .

(أ) **فى مصر الفرعونية** كان فرعون هو مالك الارض وكانت ملكيـة الأمراء فى بادىء الأمر وقتيـة لا تورث بينما كان الفلاح وهـو عمـاد الاقتصاد الزراعى يكافح نظير قوته اليومى وتدل الشواهد على أنه حتى قيام الدولة الحديثة فان الفلاحين ظلوا هم الطبقة المستغلة دون الطبقات الاخرى فى المجتمع .

(ب) **فى ظل الاستعمار الرومانى** ازدادت حـالة الفلاح المصرى سوءا وقد ضاق الفلاحون ذرعا بالدخيل الرومانى حين أمعنت روما فى احتـكار الارض والسلطة السياسية وكلما احتدم الصراع وازداد البؤس حاول الفلاحين المصريين البحث عن هويتهم الثقافية والاجتماعية والدينية ازداد المستعمر تنكيلا بهم .

(جـ) **بعد دخول الاسلام** كانت الملكية تخضع للحـاكم المصرى الذى يعد المالك الحقيقى للارض وظل هذا النظام متبعـا حتى بدأ حكم المماليك حين ظهر الاتجاه للاهتمام بالملكية الفردية لأمراء الاقطاع الذين كانوا يسخرون أسلوب الانتاج لمصلحتهم الخاصة (١٩) .

وقد عاش الفلاحون حتى القرن الثامن عشر عيشة بسيطة متدنيه فمنازل معظمهم مشيدة من الطـــوب النيىء وكان اكلهم الدائم مكونا من الشعير والجبن القريش فضلا عن البقول والخضر وكانت ملابس الفلاح عادة من صنع يديه (١٠) .

وقد استند **نظام الالتزام** بأن حكم المماليك على تقسيم الارض الى أرض « **الوسية** » وأرض « **الأثر** » ، وكانت أرض الوسية تحـرث عادة حسب نظام السخرة وظل الصراع بين الملتزم المملوكى والفـلاح المصرى مستمرا حتى نهاية عهـد محمد على ، ورغم أن موقف محمد على قد ازداد صـلابة بوقوف الفلاح المصرى الى جانبه وأشترك الفلاحين فى الصراع الذى قاده الوالى الجـديد ضد المماليك والدولة العثمانية الا أن محمد على لم يتورع بعد ذلك حين اصطنع نظام الرى الدائم عن تسخير الفـــلاحين على مدار السنة فى شق الترع وتطهيرها وبناء السدود والقناطر والجسور والسدود وهكذا لم يمض وقت وطويل بعـد أن تولى محمـد على الولاية حتى الغى **نظـام الالتزام** الغـــاء تاما وفرض ضرائب متزايدة — دون وساطة الملتزمين وكان الفلاح يجبر على تســليم هذه الضرائب مباشره للدولة وهكذا تم مصادرة « **الفـايظ** » الذى يدخل جيب الملتزم لحســاب الوالى الجديد (١١) .

٢ — فسر البعض علاقة الدولة بالفـلاح بأن سيطرة الدولة على مصادر المياه والرى وتنظيم وسائله للوصول الى مستوى انتاجى مرتفـع قد اقتضت سيطرة مركزية على الارض الزراعية وان كانت هذه السيطرة قد اعتراها الوهن ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ومن الجلى انه فى ظل حكم محمـد على كان الفلاح يتمتع بحـــق الانتفاع من الارض فحسب ، أما حق الملكية فظل على حاله فى يد الدولة . ومن الملاحظ انه فى عهد كبار الملاك هى المنتفع الوحيد من حقوق الملكيـة بينما كان صغار الفلاحين ينتفعون فحسب ويعانون من الضرائب الباهظة مما كان يدفعهم فى كثير من الاحيان لهجر أراضيهم والفرار منها بينما صاحب تطور حقوق الملكية فى عصر اسماعيل تماديا فى اثقـال كاهل الفـلاحين باتاوات فادحة لسداد العجز فى ميزانية الدولة وكانوا يلجأون فى كثير من الاحيان الى بيع حاصلاتهم ومواشيهم بأبخس الاثمان فضلا عن هجر كثير من الملاك أراضيهم أو تركها بورا نتيجة للالتزامات المفروضة عليهم ، وقد سمى هؤلاء **بالمتسحبين** لكثرة عـــددهم ومن ثم وضعت الحـكومة قانونا لتوزيع أراضيهم (١٢) .

ويذكر عودة أن الاعداد الهائلة من الفلاحين الذين هجروا أراضيهم هربا من الضرائب أو الالتحـاق بالجيش أو السخرة قد عاشوا فى الجبال والكهوف حيث كانت السخرة تشمل العمل فى مشروعات الدولة فى ظل أسرة محمد على وأصبح الفلاح مضطرا للاستدانة من مراب بضمان ما يملكه كما كان يعجز عن السداد وهكذا شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشارا لحالات الافلاس مما دعا حكومة اسماعيل للاستيلاء على أراضى الفلاحين ورهنها لمصلحتها مقابل تسديد ديونهم (١٣) .

وقد تفاقمت المشكلات الاقتصادية ابان ذلك الوقت نتيجة لانتشـار طاعون الماشية وتذبذب الفيضان مما أدى الى تحول الكثير من الحـائزين الى **معدمين وعمال يومية** (١٤) .

ويقدر باتريك اوبريان حجم عمال التراحيـل فى عصر محمـد على بأربعمائة الف رجـل من مجمـوع السـكان الذين لم يكن عددهم يتعدى أربعة ملايين نسمة .

وكان العامل يحصل على اجـر لا يتعدى قرشا واحدا عن كل يوم وكانت المشكلة الرئيسية بالنسبة لهم تكمن فى انتقالهم الى المناطق الاخرى البعيـدة ـ تحت الحراسة المسلحة ـ بينما يجلد بالسـياط او يودع فى السـجن من يتقاعس عن الخروج للعمل فى تلك المناطق أما الفـلاحين أصحاب الحيازات القزمية فكانوا يفرون عادة من القـرية نتيجة للضرائب الباهظة وكانت السلطة المركزية تتعقبهم حيثما ذهبوا (١٥) .

ويذكر عبد الفتاح (١٦) أنه من المعتقد أن هذه الشريحة المعـدمة من القوة العاملة (عمال التراحيل) قد تبلور وجودها فى نهاية القرن التاسع عشر ثم أتسع حجمها طوال النصف الاول من القرن العشرين نتيجة لتراكم أعداد الفلاحين المعدمين ـ الذين يحرمون عـادة من حقوق الملكيـة الخـاصة كمـا يعجزون عن الوفاء بأحد الادنى لمستلزمات الحياة المعيشية ـ وهو يرجع ازدياد عمال هذه الشريحة الى زيادة سكان الريف واستمرار تفتيت الارض الزراعية وتحول كبـار المـلاك للزراعة الرأسمالية التى تعتمـد بدورها على العمل المأجور .

ويذكر عاطف غيث (١٧) أنه أثنـاء الفيضان كانت الحكومة تلجـأ الى استدعاء عدد معين من القـوة العاملة فى كل قرية للاشتراك فى تقوية جسور النيـل وكان العدد المطلوب يقسم على العائلات فى القرية فى الوقت الذى كان الجنود يضطرون الى اجبار القرويين على ذلك .

وكان افراد الاسرة الفقيرة ممن لا يملكون يضطرون الى هجـــر الزراعة والقـرية كلها للعمل فى تطهير الترع وحفـر المصارف وانشـاء الطرق أو النزوح للمدن القريبـة او البعيـدة فالذين لم يجدوا فى الارض مصلحة مباشرة لم يكونوا يترددون عادة عن تركها .

ويميز عبد الفتاح بين عمال الزراعة الذين يعملون بالاجر فى اراضى القرية (١٨) والقرى المجـاورة بشكل ثابت أو موسمى وعمال التراحيل وعمال « الخطرية » أو « العـزابة » الذين يجمعـون من القرى المختلفة للعمل فى مشـاريع بعيدة حيث تتراوح مدة غربتهم بين شهرا وعام بأكمله ويطلق عبد الفضيل على عمال التراحيل لقب « أفقر فقراء الريف المصرى » اذ أنهم يشكلون الشريحة المعدمة التى تمثل من خـلال مقاول الانفـار الذى يحصـل بدوره على « عمـولة » نظير تشغيلهم كما يضغط عليهم للعمل اياما اضافية دون اجر لحسابه بعد أنتهاء الترحيلة — التى تتراوح كل عملية فيها بين ٤ : ٨ أسابيع نتيجة لعدم وجود عمل ويتم ذلك بالقرية تحت أمره « رئيس العمال » الذى ينصـبه المقـاول ليتولى مهمة توزيع العمل سواء الجماعى أو الفردى والعمل الجماعى يقسم فيه العمال الى مجموعات يشرف (الخولى) على كل مجموعة منها وبامكانه خصم يوميـة عامل التراحيل بحجة اهماله فى العمل أما العمل الفردى فيقسم العمـل فيه على الانفار فى صورة مقطوعيات .

ومنذ بداية الستينيات جرت محاولات لتشغيل عمال التراحيل عن غير طـريق مقـاولى الانفار وذلك من خلال تكوين لجـان حكومية فى بعض المحافظات بيد أن هذه المحاولات قد فشلت فى زعزعة الثقـة فى مقـاول الانفـار ودوره فى سوق العمل الزراعى ، ويرجع ذلك الى أن هـذه المحاولات هى مجرد اصـلاحات جزئية ولم تكن جزءا من عملية اعادة تشكيل نمط العلاقات الزراعية فى الريف المصرى .

ويعتقد عبـد الفضيل (٢١) أن نظـام الترحيلة يوضح ملامح نظـام العمل الاقطاعى فالعامل بالنسبة للمقـاول فى وضع التابع الذى لا يتمكن من بيع قوة عمله الى أى جهة اخـرى حتى لو كان فى هذا يتحقق لوضع أفضل بالنسـبة له مما يزيد من سطوة المقـاول على عمـال التراحيل بصورة تجسد أزمة الانتقـال من الاقطاع للرأسمالية ، فعمـال الزراعة هنا لا يجدون لهم مكانا فى القطاع الرأسمالى للعمل بأجـر وهم يحـرمون بالتالى من أن أصبحوا بروليتاريا « بالمعنى المعروف ويحرمون من ملكيـة وسائل الانتاج » بينما يشكل هؤلاء المقاولين « **بورجوازية ريفية** » **تمارس**

بجانب توريد الانفـــار اعمالا أخرى كتجارة المواشى وتجـــارة المحاصـــيل الزراعية والمواد الغذائية كما أن **الترابط الوثيق بين سوق العمالة وســـوق اقراض المـــال وسوق السلع الاستهلاكية** هو الذى يؤدى الى تزايد المقدرة الاستغلالية لمقاولى الانفـــار ازاء جمهرة الفلاحين المعدمين ، وهو يصف بذلك كيف أن عامل الترحيل يخرج عادة فى الترحيلة حوالى أربع مرات فى السنة (لمدة شهر فى المتوسط) وكيف يعمل فى القـــرية (كعامل زراعى موسمى لمدد قد تصل الى ٣شهر فى السنة) أما بقيـــة العام فيظل العامل متعطلا أو يعـــانى من الانهاك البدنى المرتبط بالترحيلة نفسها .

٣ — الامر الذى لا شك فيه أن **حجم عمـــال التراحيل قد استمر فى التزايد فى ظل الغزو الراسمالى** وكنتيجة للزيادة فى معدلات البطـــالة والبطالة المقنعة فى القرية وظهور راسمالية المقاولات فى مجال الاشـــغال الانشـــائية والزراعية التى تمارس تجارة البشر من خلال المقـــاولة — كشكل تنظيمى يشبه نظام الرق وقد ظهر هذا فى انتشـــار « البورصات » التى كان مقارها المقاهى التى يملكها الاجانب للاشراف على اســـتيراد وتصـــدير العمالة فى ظل نظام الاجور المنخفضة والمعاملة غير الانســـانية وقد ظل ذلك قائما حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ فاذا ناقشنا موقع عمـــال التراحيل من هرم القـــوة العاملة (٢١) فى مصر فان هذه المناقشة تصـــبح اكثر جدوى أذا ناقشـــناها خلال حقبـــة الخمسينيات والستينيات ، والسبعينيات .

٤ — وقد افصحت الاحصـــاءات الاقتصادية عن تميز مصر بوفرة العمالة فى الخمسينيات والستينيات وحدا هذا بالبعض امثال أرثر لويس الى اعتبار مصر — كالهنـــد وجمايكا — بلد ترهقـــه أعبـــاء فائض ضخم فى العمالة ومع ذلك فقد أوضحت الاحصاءات الخاصة بالقوة العـــاملة فى السبعينيات وجود نقص فى العمالة يســـود بعض القطاعات الهـــامة بما فى ذلك الزراعة ولا يتعـــارض هذا مع وجود فائض فى قطـــاع العمل الحضرى غير الماهر وفى بعض أنواع العمل فى المستوى العمالى من التنظيم الرسمى ومع ظهور بعض الجيوب الخاصة بالبطالة المقنعة واحتمـــال تزايد البطالة الريفيـــة الجزئية المحلية والعمـــالة فى المهن الهامشـــية التى تتسم بعـــدم استمرار العمل وبالانتاجية المنخفضـــة وتتسم كـــذلك كذلك باقبال العمال على الاشتغال بالقطـــاعات غير الرسمية فى الريف والحضر (٢٣) .

ويفصح هرم القوة العاملة فى مصر عن أن هناك قاعدة عريضـــة من العمـــالة الابية غير الماهـــرة التى ليس لهـــا خبرة سوى الاشـــغال

المحلية البسيطة الآليـــة التى لا تحتاج للقوة البدنية وتجد هذه الفئـــة من العمال فرصا للعمل فى كل قطاعات الانتاج تقريبا بل انها تتحرك بين شتى القطاعات الاقتصادية استجابة لظروف ســـوق العمل وتنامى هذه العمالة غير الماهرة الى شرائح مختلفة تقل دخولها عادة عن الشرائح التى تعمل باعمال دائمة فى الوقت الذى تفتقـــد فيه للامان المتصـــل بالمستقبل وفى الوقت الذى تبرز فى المناطق الحضرية البطالة الصريحة بمعدلات مرتفعة تقل هذه المعـــدلات فى المناطق الريفيـــة التى تتسم بالبطـــالة الموسمية كما أن البيانات الموسمية تعجـــز عن أن توضح المعـــدلات الفعلية وقت ذروة الانتاج الريفى وابان الركود الموسمى (٢٣) .

٥ — يصنف هانسن ورضوان فقراء الريف الى :

١ — العمال الريفيون المعدمون .

٢ — المزارعون دون الهامشيون .

حيث تنقسم المجموعة الاولى الى :

(أ) **عمـــال زراعة اجراء** وتضم عمال التراحيل والعمل ذوى الحركة المحدودة .

(ب) **عمال اجـــراء غير زراعيين .**

(جـ) **متعطلون صراحة .**

وقد عرفا المزارعين « دون الهامشيين » بانهم الذين يملكون فدانا او أقل ، كما انهم فى حالة عودتهم من الخارج يعملون بالمهن غير الزراعية فى القرية (٢٤) .

ثانيـــا : عمال التراحيل فى مصر ابان الثمانينيات :

ابراز لبعض معطيات الدراسة الحقلية (**) :

أجريت هذه الدراسة فى محافظتى البحيرة والشرقية خلال المـــدة من ٨٢ — ١٩٨٦ وقد تمت الدراسة الميدانية بشقيها الاستطلاعى والوصفى

على فترات زمنية زمنية متقاطعة خلال المدة من منتصف عام ١٩٨٣ حتى منتصف عام ١٩٨٥ .

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن خطة العمل الميدانى والنتائج التفصيلية للدراسة الحقلية اذ أننا سنعرض فحسب لأبرز النتائج التى افرزتها الدراسة الميدانية :

(أ) اتضح من الدراسة الميدانية أن نحو ثلث القوة العاملة فى عينة الدراسة لعمال التراحيل تقع فى فئة السن من ١٠ — ٢٠ سنة ويليها مباشرة فئة السن من ٢٠ — ٤٠ وتصل بدورها الى ربع مفردات العينة ويعنى هذا أن **الترحيلة تجذب شريحة كبيرة فى مرحلتى الفتوة والشباب** سواء من الاحداث الذين يرافقون اسرهم او الشباب الذين تؤدى حاجتهم المادية لمقدم الاجر الذين يحصلون عليه فى الترحيلة الى ربط مصائرهم بهذا النوع من العمل الموسمى .

(ب) ان الغالبية الساحقة من عمال التراحيل فى عينة الدراسة هم من **الأميين** (٩١٪) ومن المؤسف حقيقة أن ينضح تحليل نتائج الدراسة عن ارتفاع معدل الأمية كذلك فى فئة السن من ١٠ — ٣٠ سنة وهى الفئة الشابة التى تقع فى سن التعليم حيث يصل معدل الامية فيها الى ٩٠٪ (من مجموع هذه الشريحة العمرية) وهذا يعنى استمرار أمية الجيل الاصغر والاكثر شبابا وهكذا تستكمل حلقة الامية ليعاد افراز **العامل الامى .. الصغير السن .. غير المدرب .. ضعيف البنية** الذى يعمل فى الترحيلة برفقة أسرته ثم يستمر فى العمل بالترحيلة بعد ادائه الخدمة العسكرية اذا لم تتح له فرصة الهجرة الخارجية او العمل بالقرية ، وبعبارة اخرى فان **عامل الترحيلة يعكس المواصفات الاجتماعية للفلاح الفقير الذى يتجسد فقره فى تدنى خصائصه الاجتماعية .**

(جـ) من الملاحظ أن نحو ثلاث اخماس العينة المدروسة من **العمال المتزوجين ويليهم العزاب** ثم المطلقين والارامل .

(د) تشكل هذه الشرائح الفقيرة فئات تعانى من الفقر وهم عادة يقنعون بالكفاف ويتبلون بدورهم الغبن الواقع عليهم كأمر لا مفر منه (٢٥) .

(هـ) ذكر نحو ثلثى افراد العينة المدروسة أن **العمل السابق على**

الترحيلة كان عملا غير دائم ولعـل هذا هو المبرر الحقيقى الذى يكمن خلف العمـل فى الترحيلة التى برغم عدم تواصلها الا أن العـامل كان يظل عادة ولمـدة شهور على ذمة المقـاول الذى يعمل معـه ، ويؤكد هؤلاء أن المشكلة الرئيسية تكمن فى عدم توفر العمل فى القـرية وقت العمل بالترحيلة وانهم **كانوا يفضلون العمل فى قراهم الاصلية** .

(و) من الملفت للنظر أن نحو ثلثى مجموع أفراد العينة قد **رفضـوا فكرة الهجرة الخارجية للبلدان النفطية** ويبدو أن ظروف هؤلاء العمـال — سواء ظروفهم الصحية أو ارتباطاتهم ومسئولياتهم العائلية — وعجزهم عن توفير نفقات السفر للخارج فضـلا عن انخفاض مستوى طموحهم ، واتجاهاتهم الغيبية — التى ترتكز على ضرورة التسليم بالواقع وتسـتبعد احتمال تحسن الاوضاع المعيشية من الاسباب الدافعة لرفض الهجـرة للخارج .

(ز) استطلعت الدراسة راى عامل التراحيل فى امكانة الوصـول الى رئيس انفـار أو مقـاول فأفاد اقل من ثلث أفراد العينـة المدروسة بصعوبة ذلك اذ أن الحـراك يحتـاج الى الخبرة وتوفر رأس المـال (ليتسنى القيام بجمع القوة العاملة والتعـامل مع المؤسسات التى يعمل فى ظلها عمال التراحيل) وبينما بلغ متوسط ساعات العمل ٧ أو ٨ ساعات فى المتوسط فان نسبة ليست قليلة من أفراد العينـة تعمل ما بين ٩ : ١٢ ساعة يوميـا فى المتوسط دون أن تتنـاول المقابل المـادى نظير هـذا الجهـد وغير خاف ان بذل هـذا الجهد مع ضآلة السعرات الحـرارية التى ينالها العامل تؤدى عادة الى أصابته بالعـديد من الامراض كفقر الدم وسوء التغذية وغيرها ، ومع أن أشتغال رب الاسرة وزوجته بعض اولاده الصغار يؤدى عادة الى وجود مبلغ (مجمـد) كبير نسـبيا الا أن الظروف السيئة التى تعيش فى كنفهـا الاسرة والاحباطات العديدة التى يتعرض لها كل يوم تسـوقه أحيانا آلى تعاطى المكيفات والمخـدرات التى تستنزف مبالغ كبيرة وتحرمه بالتالى من الاستفادة من هذه المبالغ فى تحسين اوضاع أسرته .

(ح) ذكر أكثر من ربع مجموع أفراد العينة أنه سبق مجـازاتهم فى الترحيلة بسبب التأخر فى الوصـول لمحال العمل او الانقطاع عنـه ، وغير خاف ان هذا يتم نتيجة لمعاناة الشخص فى الوصول للعمل بسبب ندرة المواصلات أو لمرضه المفاجىء أو لاضطراره الى قضـاء بعض مصالحه الضرورية والحياتية خلال أيام العمل ، غير أن العديد من عمال التراحيل

قد ذكروا بأن الجزاء كان يوقع عليهم نتيجة للخلاف الشخصى مع رئيس الانفار أو نتيجة لتعسف الرؤساء من وجهة نظر العامل ، فهم يحاولون عادة استغلاله بشتى الطرق لأداء بعض الخدمات الشخصية ويتم توقيع الجزاء عليه فى حالة رفضه لهذه السخرة ويذكرنا هذا بما سبق أن ذكره عبد الفضيل من أن قوة مقاولى الانفار تستمد أهميتها من البنية الاقتصادية والاجتماعية للريف المصرى كتجار أو ملاك أراضى — فهم من الشرائح البورجوازية فى الريف كما أنهم يقومون باعطاء عمال التراحيل سلفيات على الترحيلة القادمة ولا يوجد وسيلة لسداد هذه الديون الا بالخروج فى ترحيلات مستمرة وهذا يؤدى لزيادة المقدرة الاستغلالية لمقاولى الانفار .

كما أن لمقاولى الانفار شبكات متسعة من العصبيات فى قراهم يستخدمونها عادة لضمان استمرار توريد الانفار فى الترحيلة بصورة مستمرة .

(ط) ذكر نحو نصف مجموع أفراد العينة أن المقاول يتولى عادة تحصيل مبالغ نقدية نظير تشغيلهم مستغلا فى ذلك حاجتهم الماسة للمبلغ الذى يعطى « كمقدم أجر » وحاجتهم الماسة للعمل للقيام بالتزاماتهم الاسرية وعدم وعيهم بحقوقهم نتيجة لأميتهم فهم على سبيل المثال نادراً ما يحصلون على « بدل الغذاء » المقرر لهم من المؤسسة التى يعملون بها كما أن المقاول يقوم عادة بخصم مبالغ أخرى من أجورهم تحت اسم الانتقال لمحال العمل كما أن رؤساء العمال الذين يتولون تنظيم العمال ومراقبتهم وهم قوة عمل تتكون عادة من أقارب المقاول الذين لا يؤدى أى أعمال تذكر بينما يحصلون على أجورهم غير منقوصة مثلهم كمثل باقى عمال الترحيلة .

وفى بعض الاحيان يقوم المقاول بقيد العامل على ذمة المؤسسة ويتولى تشغيله بالفعل فى عملية أخرى ويحصل على أجره فى العملية الاخيرة ، ومن الغريب أن المحافظات التى تتولى فى الوقت الحاضر تشغيل عمال التراحيل قد أسهمت فى زيادة الاستغلال المفروض عليهم من قبل الأجهزة الادارية الاخيرة فيها اذ مارست هذه الاجهزة الطرق والاساليب نفسها التى يتبعها المقاول التقليدى فالبستها رداء الشرعية وقننتها فباتت هذه السخرة تمارس بصورة أشد قسوة وأكثر تنظيما (٢٧).

+++

ثالثـا : السياسة الاجتماعية تجاه عمال التراحيل :

ليس هناك شك فى أن نظام الترحيلة يعـد امتدادا لنظام السخرة الامر الذى دعا اوبريان الى القول بأن عمال الزراعة (عمال التراحيـل) ظلوا طيلة القرن العشرين غير احرار فى اختيار نوع العمل أو حتى الاماكن التى يعملون بها وقد أفصحت نتائج الدراسة الميدانية عن أن معسـكرات الترحيلة تكـاد تخلو من ابسط المرافق التى تشبع الاحتياجات الاسـاسية لعمال التراحيل ، فقد اتضح من هذه النتائج على سبيل المثال أن ١٨٪ من العمال يقضون حاجتهم الطبيعية خارج المعسكرات السكنية نظرا للازدحام الملحوظ على دورات المياه الموجودة بينما اتضح أن الزوج والزوجة وأولادهما نادرا ما يحظيان بحجـرة مستقلة غير أنهم قد يناموا فى عنابر متسـعة لا يفصل بين الاسرة الواحـدة وغيرها من الاسر سوى ساتر بسـيط من القماش ولنـا أن نتصور مدى الحـرج والحساسية والخطورة المترتبـة على حشد الازواج والزوجات وأولادهم وبناتهم معـا فضلا عن التصـاق أجساد الذكور والاناث الذين حضروا بمفردهم للعمـل فى الترحيلة دون مصاحبة أسرهم مما يؤدى لمشاكل وعلاقات شاذة ، وقد أبدى العمـال تذمرهم لغيـاب الرعاية الصحية آذ يضـطر العمال عادة الى اللجـوء للمستشفيات العـامة القريبة منهم فى حالة تعرضهم للمرض أو للحوادث وفى الوقت الذى **تنعدم فيه الرعاية التعليمية والترفيهيـة وتسـوء المرافق الخاصة بالمواصلات والتغذية** يحصل العمال بالكاد على الحـد الادنى من المساعدة فى حالة تعرضهم للازمات والكوارث ، وعادة ما تأتى هـذه المساعدات من جيوب الاهل والبلديات وفى حالة التعـرض لحوادث العمل أو الوفاة يأتى القـدر الاكبر من المساعدة نتيجة لتكاتف العمال ووقوفهم الى جـانب الضـحية ومساعدتهم المتبـادلة أكثر منها لتقبـل المقاول أو المؤسسات التى يعملون بها بتقديم المعـونة المـادية كنتيجة لغيـاب النشاط النقابى بمعنـاه الفعلى *** بالنسبة لهذه الشرائح العـاملة مما يفقدها فاعلية الدفاع الشرعى عن حقوقها .

وقد قرر ٨٧٪ من مجموع افراد العينة **غياب خدمة التأمينات والمعاشات** التى يمكن الانتفاع منها فى حالة الوفاة والعجز والشيخوخة وهـذا يعنى بدوره أن العامل حين يعجـز عن بيع قوة عمله يضحى عاجزا عن كفاية نفسه واشباع حاجاته الشخصية وحاجات اسرته ، وقد ألقى العمـال باللائمة على الدولة وعلى المقـاول والشركات والمؤسسات التى يعملون فى ظلها وذكروا بأن على هذه الهيئات يقع عبء تحسين الاوضاع .

ويعتقد البعض أن عام ١٩٦٤ قد شهد المرحلة الثورية الجديدة بالنسبة لعمال التراحيل بصدور قانون النقابات رقم ٦٢ الذى شجع على نشر اللجان النقابية فى القرى المصرية .

قد اكتسبت هذه الثورة دفعة قوية بفضل اهتمام الرئيس الراحل عبد الناصر بقضية عمال التراحيل عام ١٩٦٥ وانعكس ذلك فى اهتمام الاتحاد الاشتراكى بهم من خلال المؤتمر التعاونى الاول للفلاحين سنة ١٩٦٦ (٢٨) .

وفى عام ١٩٧٦ انشأت الدولة جهازا يسمى « **جهاز رعاية وتشغيل العمال الموسميين** » يتبع وزير الدولة للحكم المحلى لوضع السياسة العامة لرعاية هؤلاء العمال وتنظيم ساعات عملهم وأجورهم وأجازاتهم وحمايتهم من الاستغلال من خلال تكوين لجنة استشارية عليا على أن تتولى اللجان الفرعية الموفدة والمستقلة للعمال الموسميين بالمحافظات تنفيذ قراراتها فى المراكز والقرى التابعة لكل محافظة .

وفى عام ١٩٨١ صدر القرار الجمهورى رقم ٢٦٥ الذى قام بالغاء جهاز تشغيل العمال الموسميين وعمل اللجنة الاستشارية ، وقد تولى وزير القوى العاملة والتدريب بمقتضى هذا القانون مع وكلاء الوزارات حل مشكلات ومخالفات تشغيل العمالة الموسمية وعمال التراحيل ، وقد ثار الصراع بين وزارات لحكم المحلى والقوى العاملة على رسم السياسة الاجتماعية فى مجال عمال التراحيل بينما أسفرت التجارب المختلفة لاشراف المحافظات على تشغيل عمال التراحيل عن زيادة استغلال مكاتب رعايه عمال الزراعة والتراحيل فى المحافظات بل والى دعم الاستغلال وتقنينه اذ حصلت المحافظات بموجب هذه المهمة على عمولات كبيرة نظير تشغيل عمال التراحيل واستخدمت هذه العمولات فى شراء العربات الفاخرة وأجهزة التكييف لكبار (الموظفين) فضلا عن المبالغ الكبيرة التى كانت تدخل بصورة غير رسمية جيوب الاشخاص الذين يتولون تشغيلهم *** * .

وقد صدر القرار الوزارى رقم ١٠٥ لسنة ١٩٨٥ الذى رخص لنقابة عمال الزراعة بانشاء مكاتب تشغيل لعمال التراحيل تتبع النقابة العامة واذا كان أجر عمال التراحيل قد ارتفع فى الآونة الاخيرة وازداد الاهتمام بالبرامج الخاصة بمحو أمية العمال وتدريبهم المهنى كنتيجة لنقص اليد العاملة فى مجال التراحيل لازدياد تيار الهجرة الخارجية للبلدان النفطية ، وانضمام الشباب المتعلم الى قطيع عمال التراحيل بصحبة أسرهم خلال شهور الصيف والعطلات الدراسية (وازدياد وعى هؤلاء بالاستغلال

الذى يقع على العمال من جانب الشرائح العليا والطفيلية والمؤسسات الاستشارية فى الريف) والامر الذى لا شك فيه كذلك أن عمال التراحيل ما زالوا يمثلون **التجسيد الحقيقى للاستغلال والظلم** الذى تتعرض له هذه الشرائح بصورة مستمرة حتى الآن .

وقد قام الانثروبولوجى توث باجراء دراسة حديثة عن عمال التراحيل فى منطقة **مريوط** سنة ١٩٨١ وأوصى فيها بضرورة زيادة اجور عمال التراحيل ، والتركيز على اقامة المشروعات فى القرية التى يأتى منها العمال ، والاهتمام بالتعليم الالزامى ، وتدريب القوة العاملة الريفية ابان تجنيدهم لتحسين قدراتهم المهنية فضلا عن ضرورة القيام بدراسات حقلية لتوضيح الجوانب المختلفة للظاهرة .

« المصـــــــادر »

١ — K. post. peasantization in west Africa (In) P.C.W. Gutkind, p. waterman (Eds) African social studies. London. 1981. pp. 241 : 250.

٢ — د.هـ تاونى — المجتمع المستغل — ترجمة أمين أبراهيم . مراجعـة د.محمد انيس — القاهرة ١٩٦٢ — ص ٤٧ : ٥٧ .

٣ — ديفيـد جيرى — الثورة الريفية — فى محمد الجوهرى وآخرون — الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث — ١٩٨٢— ص١٩١ : ص ٢٠٠ .

٤ — المصدر نفسه — المكان نفسه .

٥ — عطية الصيرفى — عمال التراحيل — القاهرة — ١٩٧٥ — الفصل الاول .

٦ — محمود عوده — الفلاحون والدولة — القاهرة — ١٩٧٩ — الفصل الخامس والسادس .

٧ — رقيـة مرشدى — مجتمع عمال التراحيل — الاسكندرية ١٩٨٠ — ص ٧ : ص ١٥ .

٨ — المصدر نفسه ص ١٥ : ص ٢٠ .

٩ — عبد الباسط عبد المعطى — الصراع الطبقى فى القرية المصرية — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٢٨ : ٥٥ .

١٠— عبد الرحيم عبد الرحمن — الريف المصرى فى القرن الثامن عشر — القاهرة ١٩٧٤ — ص ٢٧ — ص ١٤٨ .

١١— محمود عوده — المصدر السابق ذكره ص ١١٥ .

١٢— محمود عوده — المصدر السابق ذكره ص ١٠١ : ص ١١١ .

١٣— الاب عيروط — الفلاحون — القاهرة — ١٩٦٨ — ص ٦٠ : ٦٦ .

١٤— محمود عوده — المصدر السابق — ص ٤٨ : ص ١٥٨ .

١٥— بانريك أوبريان — ثورة النظام الاقتصادى فى مصر — تعريب خيرى حماد — القاهرة ١٩٦٨ — ص ٥٨ ، ص ٥٦ .

١٦— فتحى عبد الفتاح — القرية المعاصرة — القاهرة — ١٩٧٥ — ص ٢٤٥ : ص ٢٤٧ .

١٧— محمد عاطف غيث — دراسات فى علم الاجتماع القروى — دار المعارف ١٩٦٨ — ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٣٩ .

١٨— فتحى عبد الفتاح — المصدر السابق — المكان نفسه .

١٩— محمود عبد الفضيل — التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى — القاهرة ١٩٧٨ — ص ٨٠ : ص ٩٠ .

٢٠— المصدر نفسه — المكان نفسه .

٢١— عطية الصيرفى — مصدر سابق — ص ٣٦ : ص ٧٩ .

٢٢— بنت هانسن وسمير رضوان — العمل والعدل الاجتماعى — القاهرة ١٩٨٣ — ص ٦٧ : ص ٧٤ .

٢٣— المصدر السابق — ص ٢١١ : ص ٢١٩ .

٢٤— المصدر نفسه — المكان السابق .

٢٥— محمد الجوهرى — المدخل الى علم الاجتماع — القاهرة ١٩٨٤ — ص ٤٨٥ : ٢٩٥ .

٢٦— محمود عبد الفضيل — المصدر السابق — المكان نفسه .

٢٧— محمود عوده — الفلاحون والدولة — المصدر السابق — ص ١٨٤ : ص ١٨٥ ص ١٦٥ .

٢٨— دراسات فى علم الاجتماع الريفى — ص ١٦٥ .

٢٩— حسن معاذ رميح — عمال التراحيل — المشكلة والحل — مجلة الطليعة — يناير ١٩٧٢ .

٣٠— Tooth. J. Tarahil workers in the Egyptian Delta. Amer. Center, in Egypt. 1981.

(*) عن ورقة قدمها الباحث فى ندوة « الفلاحون والتغير الاجتماعى فى العالم العربى التى نظمها مركز بحوث الشرق الاوسط التابع لجامعة عين شمس عن عمال التراحيل سنة ١٩٨٦ » .

(**) يتقدم الباحث بالشكر للاستاذ الدكتور عادل عازر رئيس وحدة السياسة الاجتماعية والقائون بالمركز القومى للبحوث حيث اسند سيادته له مهمة قيادة فريق العمل الميدانى وكتابة التقرير النهائى .

(***) حتى سنة ١٩٥٩ لم تضم نقابة عمال التراحيل سوى مجموعة قرى محدودة .

(****) اذا أصبح المحافظ وحاشيته يشكلون الجهاز الرسمى لاستغلال هذه الشريحة .

الفصـــل الخامس

« الانثروبولوجيـا الحضرية »

يمكننا أن نعرف الانثروبولوجيا الحضرية بأنها استخدام المنـــاهج والادوات الانثروبولوجية فى دراسة المدينـــة مع الاستفادة هنا من معطيات الدراسة الحقلية وباســـتطاعتنا ان نرجع الكتابات الاولى عن الحيـــاة الحضرية والتنظيم الاجتماعى الحضرى **للعلماء والرحالة العرب امثـــال ابن حوقل وابن خردزابة وياقوت الحموى** بينما قدم **ابن خلدون** وصـــفا مستفيضا للحيـــاة فى المدن غير ان التاريخ الفعلى للدراسات الانثروبولوجية الحضـــارية يعود فى واقع الامر الى تسعينيات القرن الماضى حين شاركت الجمعية الانثروبولوجية للمرأة فى واشنطن فى دراسة عن الاسكان المحلى فى المدينة (١) ويؤرخ **كمـــبر** Kemper و **فوستر** Foster (٢) للانثروبولوجيا الحضرية بظهور **مدرسة شيكاغو** خلال الحرب العـــالمية الاولى حيث يدين **الاتجاه « الايكولوجى »** Ecology برمته الى جهـــود العالم الامريكى **بارك** R. Park بمقالة عن المدينـــة سنة ١٩١٥ والذى تاثر فيه بنظرية دارون وفى ضـــوء هذا الاتجاه اعتبرت البيئـــة بمثابة الوحدة الضوية أو الطبيعية الملائمة لحياة الانســـان اذ يشير مفهـــوم **السيطرة** Dominance من وجهة النظر الايكولوجية الى نمط النشـــاط السائد فى المنطقـــة فالصناعة على سبيل المثال تؤثر فى البيئة المحيطة ، وفى نمط استخدام الارض ، وفى تحديد نوعية الطبقات التى تتولى جذبها الى المنطقة ، وقد تعددت النظـــريات التى تصدت لدراسة المدينة فى ضوء هذا الاتجاه فقـــدم اولمـــان Ulman و هاريس Harris نظرية تعدد النوايات Multiple Nuclear حيث اعتبرت المدينة منقسمة الى عدة مناطق وتعد كل منطقة نواة للنشاط السائد .

وقدم هويت Hoyt **نظرية القطـــاع** sector على اعتبار ان المدينة تتكون من عدة قطاعات ولكل قطاع خصائصه الايكولوجية ، كما تعـــددت الاسهامات التى تدعمها مكينزى Mckenzi ، و زورباخ Zorbaugh ، **بويرمان** Bowerman ، وغيرهم من علماء الاجتماع الامريكى الذين ساهموا فى ارساء هذا الرافد المرتبط بالمدرسة الايكولوجية (٣) (*) .

وقد تعرضت هذه المدرسة للعديد من أوجه النقد التى تتلخص فى تجاهلها للعوامل الثقافية كما ينسلخ عليها ما يوجه للنظريات « **الحتمية** » من أوجه النقد .

وقد اهتم بارك Park وويرث Wirth على وجهة الخصوص بظاهرة تقسيم العمل ، وتشتت الادوار الاجتماعية فى المدينة باعتبارها من الظواهر الحضرية الهامة التى تهيمن على شكل العلاقات الاقتصادية الحضرية وتتحكم فى توزيع المهن وفى النسق السياسى الحضرى (٤) .

كما أبرز ويرث — داخل المدينة — الفصل الواضح بين محل السكن والعمل (٥) ويذكر جوبرج Sjoberg فى معرض حديثه عن الموجهات النظرية التى تصدت لتفسير الظاهرة الحضرية أن ويرث Wirth ، وردفيلد Redfield يتفقان فى شمول الظاهرة الحضرية للعلمانية والعلاقة بالجماعات الثانوية ، والعضوية بالجمعيات الاختيارية ، وتزايد انقسام الادوار ، وغموض المعايير الاجتماعية (٦) .

ويذكر بيلز Beals وهويجر Hoiger (٧) أن أقدم الدراسات الحضرية التى قدمها علماء الانثروبولوجيا قد تمت فى افريقيا ومنها الدراسة التى قدمها البعض لاختيار نظرية ردفيلد المتضمنة ثنائية المجتمع الحضرى — الشعبى .

وقد أبدى بعض علماء الانثروبولوجيا اهتماما بالمشكلات الحضرية فى مدن غرب وشرق افريقيا وأنصب اهتمامهم على آثار الهجرة الى المناجم والمدن . أما الدراسات الحضرية التى اجراها علماء الانثروبولوجيا فى امريكا اللاتينية فهى حديثة العهد نسبيا وتركز الاهتمام فيها على دراسة الاحياء الفقيرة أو احياء « الجيتو » ، كما أنصب اهتمام هؤلاء الباحثين على الاتحادات والهيئات الى جانب الاهتمام كذلك ببعض عناصر عملية التحضر وتكيف المهاجرين لظروف الحياة فى المدينة ، وقد حاول بعض علماء الانثروبولوجيا الحضرية استخدام فكرة (النموذج) وهى فكرة ترجع بأصولها للمناخ « الثقافى » الذى ساد خلال القرن التاسع عشر ويرى البعض أمثال **مكجى** Mcgee (٨) انه برغم أوجه النقد العديدة التى وجهت لفكرة النموذج الا انه لا زال يمثل اطارا لا غنى عنه لدراسة الحركة من المجال الريفى للحضرى كما يساعد على تتبع الآثار الحضرية فى المناطق الريفية . وقد حاول البعض تلافى أوجه النقد التى وجهت

للثنائيات بوضع فكرة **المتصل** Continuum ومن هؤلاء روبرت ردفيلد الذى صاغ نموذج **المجتمع الشعبى** « الفولك » فى مقابل **المجتمع الحضرى** كما حاول اثبات فرضيته بدراسة ٤ مجتمعات محلية تتدرج من « القبلية » للحضرية (٩) .

غير أن الكثير من الدراسات الحضرية قد اخفقت فى النظر للمدينة — وعلى الاخص المدينة الكبيرة — **كوحدة بنائية أو ثقافية « كلية »** فقاموا بدراسة مشاكل معينة داخل المدينة كالقرابة (بحسب ما فطروا على ذلك فى المجتمعات التقليدية التى كانوا يدرسونها) وهكذا طرحوا قضية اداء نظام القرابة — أو اى ظاهرة اخرى — لوظيفته فى المدينة بدلا من التساؤل عن **اثر الحياة الحضرية** على القرابة (١٠) بعبارة اخرى فان دراستهم كانت للقرابة لا للحياة الحضرية بينما تكمن مساهمة الانثروبولوجيا الحضرية فى تسليمها بأن السمات الاساسية لأى وحدة او بناء آجتماعيا ليست وليدة العوامل الداخلية وحدها بل ان العوامل الاساسية لأى وحدة تتمثل فى الظروف الخارجية أيضا التى تنمو فى ظلها تلك الوحدة او هذا البناء ولا يجوز فى هذه الحالة أن ندرس المجتمعات المحلية الصغيرة كما لو كانت وحدات مستقلة او قائمة بذاتها بل كأجزاء من مجتمعات اكبر .

وتستخدم الانثروبولوجيا الحضرية **الدراسة المقارنة** وبخاصة بين العديد من النماذج الريفية والحضرية ، ومن المحاولات الاولى فى هذا المجال دراسة المدن فى منطقة الاوقيانوسية التى اشرف عليها الكسندر شبور وخلص منها الى أن هذه المدن تمثل نوعا من « الحضرية » التابعة « للادارة الاستعمارية والاغراض التجارية » (١١) .

كما يستلزم استخدام **النظرة الكلية** Holistic فى ميدان الانثروبولوجيا الحضرية كذلك تطبيق العديد من الاساليب وادوات جمع البيانات كالمقابلات بالمشاركة مع الاستفادة بالبعد المجتمعى **الضيق** Micro **والواسع** Macro ويتسم البعد الاول بدراسة الظواهر الاجتماعية فى منطقة حضرية بعينها والثانى بالتركيز على العلاقة بين المنطقة الحضرية والمجتمع القومى الذى يضمها ، ومن أبرز ممثلى الاتجاه الاول سوثال ، ميتشيل ، ووتس ، أما الثانى فيعد ليدز Leeds من اتباعه (١١).

ويذكر جلوك Gluick ان هناك ثلاث استراتيجيات للدراسة الانثروبولوجية الحضرية :

(أ) الاستعانة **بالطرق الانثروبولوجية التقليدية** مع مراعاة العلاقة بين المنطقة الحضرية والبيئة الكلية .

(ب) الدراسة **النظامية** للمدينة .

(ج) المنظور « **العـــالمى** » المتسع بقصد « التحليل المقـــارن » مع اخذ العلاقات الريفية الحضرية فى الاعتبار (١٢) .

كما يؤكد اولبين Olien ان هنـــاك اربعة ابعاد لدراسة البيئـــة الحضرية وهى العلاقات الداخلية فى المجتمع المحلى ، والعلاقات الريفيـــة الحضرية ثم العـــــلاقات الحضرية القـــومية واخيرا العـــلاقات الحضرية الدولية (١٢) .

وحقيقة الامر ان مجال الدراسات المقارنة قد ازداد اتساعا فى ميدان الانثروبولوجيا الحضرية مع ازدياد الاختلاف بين البنيات فى مجتمعـــات مختلفة وقد برع فى هذا المجال ليـــدز Leeds و ايكين ,Aiken وغيرهمـــا من علماء الانثروبولوجيا (١٤) .

وقد استحوذت الدراسات الانثروبولوجية الحضرية اخـــيرا على اهتمام الباحثين الذين ينتمون الى الولايات المتحدة وغيرها من بلدان العالم الغـــربى والكتلة الشرقية فضـــــلا عمن ينتمون الى بلدان العالم الثالث ايضا .

ويرجع الفضل حقيقـــــة الى وارنر Warner عالم الانثروبولوجيا الامريكى — الذى تتلمذ على كل من روبرت لوى ورادكليف براون — فى استخدام المدخل الانثروبولوجى لدراسة مدينة امريكية Yankee City حيث استخدم الباحث الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المتعمقة اســـتخداما فعالا كما حاول تفســـير الحياة الاجتماعية بالرجوع الى البناء الاجتمـــاعى وانتهى الى تحديد ثلاث طبقات رئيسية تتألف كل منها من شريحة عليـــا واخرى دنيـــا لتفسير الاوضاع الاجتماعية فى المجتمع المحلى . **

ولقد اصاب رزمان Reissman (١٥) حقيقة حين قرر انه (حتى نهاية الستينيات) لا توجـــد نظرية واحدة تصلح لتفسير التحضر او تقديم نظرية حضرية فنحن لا نعـــرف بعد الديناميات التى تصاحب حراك المجتمع من حالة الى اخرى ، وحين يلفت رزمان (١٦) النظر لاهمية دراسة المدينة الصناعية فانه يقرر بأن التحضر لا يعنى التحول الذى يتعرض له المجتمع

الريفى أو الشعبى فحسب بل يتضمن كذلك التغير المستمر للمدينة الصناعية نفسها فالتحضر لا يقف عند مرحلة بعينها بل ان المدينة نفسها تتغير بصورة مضطردة ، ولعل ابسط الاسباب التى أدت الى القصور فى تحليل المجتمعات الصناعية يرجع الى اعتقاد البعض بأن **النموذج الغربى** هو النموذج (الوحيد) أو هو اكثر الانماط ملاءمة وعلى البلدان المتخلفة أن تجاهد للوصول اليه ، فقد تأثر ويرث وردفيلد بنمط المدينة الامريكية فبالغوا فى التركيز على الانقسام فى الحياة الحضرية واختلال التنظيم فيها (*) أما الذين اهتموا بتفسير التنظيم الاجتماعى الحضرى فى ضوء نسق القيم أو استعانوا بالمتغير التكنولوجى فى تفسير التحضر فقد فاتهم ان المحليات تختلف فى درجة تأثرها بالتصنيع والحضرية (١٧) بل ان بلدان العالم الثالث تحتاج الى وقفة خاصة فى ضوء ظروفها المرتبطة بالتصنيع والتحضر (١٨) فالتحضر ليس مجرد كثافة سكانية مرتبطة بالموقع الجغرافى فحسب بل هو **ظاهرة متعددة الابعاد ايكولوجية وسكانية واقتصادية** (فهو ظاهرة اجتماعية فى المحل الاول) وهو يتصل بالتغير فى العلاقات الريفية الحضرية التى لا تتخذ صورة العلاقة القطبية (قطبين فى متصل واحد) بل تأخذ صورة العلاقة البنائية (قطاعين فى وحدة بنائية واحدة) حيث يعسر علينا أن ندرك ما يحدث فى أحدهما دون أن ندرس ما يلازمه من مظاهر الاتفاق والصراع فى الآخر فالتحضر يعنى فى واقع الامر **التحولات** فى المجتمعات المحلية والتى تحدث فى مجال العلاقات الحضرية الريفية والتى تحدث فى الانساق البنائية للمجتمع ككل ونعنى به التحول المستمر فى شبكة العلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية التى نعيش فى ظلها فى المناطق الحضرية .

وتهتم الانثروبولوجيا الحضرية بخلق نظرية تصلح لتحليل البناء الحضرى مع الانتفاع بالاتجاه المقارن والنظرية الشمولية انتفاعا كاملا ، فقد أدان علماء الانثروبولوجيا علماء الاجتماع الحضرى على اساس انهم وقعوا فى خطأ مشترك وهو دراسة المدن فى عزلة كاملة دون أن يدركوا بما فيه الكفاية انها تمثل اجزاء داخل انساق اكبر ، والواقع انه لا وجود للفلاحين دون مدن . بل ان هناك شرطا اساسيا للحضرية يتمثل فى تطور اساليب انتاج الطعام وعلى ذلك فان المجتمعات المحلية الزراعية تعد الشرط الاساسى لقيام واستمرار الحياة الحضرية ، ويعتقد هويجروبيلز (١٩) أن الثقافة الحضرية الصناعية ستنتشر على نحو حتمى فى المناطق الريفية اذ يستعين المجتمع الريفى بأعضاء من خارج المجتمع المحلى لادارة شئونه ، ولذا تعد الكثير من نظمه شواهد محلية على النظم القومية غير ان المجتمعات المحلية فى خضوعها لمقتضيات التصنيع والتحضر

تتفاوت فى استجابتها بين الترحيب والرفض لهذه المتغيرات « المجتمعية » .

وهكذا يتضمن التحضر **الظواهر المصاحبة لنشأة المجليات الجديدة أو نموها من ناحية والتى تواكب حراك السكان للمناطق القائمة بالفعل وتركزهم بها من ناحية أخرى** ، الامر الذى يؤدى الى ازدياد الاهتمام بتوفير مصادر العمل غير الزراعى .

كما أن ثمة تغيرات تلحق الشبكة الكلية للعلاقات الاجتماعية Total Network of social relations نتيجة لذلك اذ تزداد مشاركة الانساق المحلية فى الانساق الكبرى (خارج المجتمع المحلى) وبدلا من سيطرة العصبية والعلاقات القرابية يزداد الاهتمام بالتعامل داخل **منظمات كبرى** خارج حدود الجماعات القرابية ويزداد التنوع فى أوجه النشاط الاقتصادى مع الاهتمام بالمشاركة فى المنظمات والجمعيات والهيئات الرسمية وازدياد مشاركة النساء فى قوة العمل (غير الزراعية) كما تزداد أهمية النواحى المكتسبة — كالتعليم — فى المجتمع المحلى .

ويؤكد مكجى (٢٠) أن مدن العالم الثالث تعكس مشكلات العالم الثالث نفسه بصفة عامة .

ويعتقد جوبرج (٢١) أن النمو المستمر للمدينة يمتص الكثير من سكان القرية القريبة التى تدخل بدورها فى « زمام المدينة » وبزيادة التصنيع يزداد الاعتماد المتبادل بين المدينة والقرية مما يؤدى الى تغيير النمط التقليدى للسوق ، والبناء الاجتماعى التقليدى برمته وبخاصة **بناء القوة** Power structure ويبرز جوبرج الدور الذى تلبه وسائل النقل والمواصلات فى التوحيد بين القرى والبناء السياسى والقومى فى هذه المجتمعات ، والى الدور الايجابى للمتعلمين والصفوة المحلية (التى قد تتمسك بالانماط الحضرية الصناعية الجديدة أكثر من تبنيها للانماط التقليدية لضمان استمرار وجودها) ومن بين الملامح الهامة التى واكبت ازدياد كثافة سكان المدن فى العالم الثالث وبخاصة بعد الحرب الثانية ، **نقص معدل الوفيات** (خاصة وفيات الاطفال الرضع) **وازدياد معدل المواليد** والزيادة الطبيعية ، **واتساع حجم المناطق (الحضرية) وغلبة النمو الحضرى** نتيجة لازدياد معدلات الهجرة الريفية ودخول الصناعة الى المدن ، وزيادة معدل الدخل غير أن هناك بعض الملامح النوعية التى تميز بعض هذه البلدان بصفة خاصة ، ففى بعضها كما فى الفلبين وكمبوديا تزداد هجرة الاناث للتعليم والعمل فى المدن . بل ان **عوامل الطرد**

تعمـــل بفاعلية ـــ اكبر ـــ فى جنـــوب شرق آسيا نتيجة لضـغط السكان (فى تلك المناطق) الامر الذى يدفع السكان بدورهم للهجـــره للمدن (٢٢) وهكذا تشارك الطبقات الدنيا فى الريف والحضر عادة بما يمكن أن يسمى **بثقافة الفقر** .

ويذكر Hauser (٢٣) أن آسيا تتولى كذلك جذب السكان من المناطق الريفية وان السكان ينتقلون بدورهم من الاقتصاد الزراعى الى الانتـــاج الصناعى الحديث حيث يزداد الاتصـــال بالسوق (العـــالمى) فالتحضر فى الدول النامية قد أصبح الآن اكثر قوة عن مثيله فى الغـــرب (المبـــكر) بل ان هناك الكثير من التحولات فى العـــلاقة الريفية والحضرية فى هذه البلدان نتيجة للتقدم التكنولوجى ، كما أن التحـــول من الاقتصاد الريفى الى الاقتصاد الحضرى بها يعنى بدوره ألتحـــول من اقتصاد (الاعاشـة) الى الاقتصـاد (النقـــدى) الامر الذى يسهل عملية توجيه المدخرات وتغيير انماط الاستهلاك ، بيد أن أبرز نتائج التضخم الحضرى فى العالم الثالث يكمن فى ظهور المناطق « المختلفة » وازدياد الكثافة السكانية بها .

ويتبر ليتل Little ممن **اهتموا بالجمعيات الاختيارية** ـــ لاختيـــار بعض الفـــروض عن التحضر فى افريقيـــا ـــ بينما تركز اهتمام البعض امثـــال Mitchell بشبكة **العلاقات الاجتمـــاعية** وبينما حاول جتكند Gutkind أن يدرس المناطق الحضرية فى ضوء بعض المحددات كوضع القـــوة العاملة والآثار الاقتصادية والسياسية لوجودها (كالحراك المهنى، والتخصص وفرص العمـــل المتوافرة والجمعيـــات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية وتيار الهجرة الريفية الحضرية واقتصاد الســـوق) فان Mcgee قد توصل الى أن معظم نتائج الدراسات تتفق مع فكرة **التحضر الزائد** Over urbanization اذ أن بعض بلدان العـــالم الثالث قد خلقت بدورها ظروفا بالغة الصـــعوبة فى وجه التحضر ولا تقتصر هذه الظروف على مجـــرد التكالب على فرص العمل الموجودة فى المناطق الحضرية ، بل فى قصور الخدمات تماما عن اشباع حاجات الســـكان مما يؤدى الى استنزافها وهى الحقيقة نفسها التى يؤكدها يورودى V. Urouidi حين يذكر أن نمـــو المدن فى العالم الثالث (وعلى الاخص فى أمريكا اللاتينيـــة) يصاحبه عادة **عدم كفاية الانتاج الزراعى والخدمات** من ناحيـــة بينما يزداد الاهتمام **بالانتاج الصناعى** (لهذه البلدان) من ناحية أخرى غير أن هـــذه العوامل مجتمعة لا تؤدى الى ازدياد المشاكل الاقتصادية ، وازدياد الضغط على النسق المهنى الموجود ونقص الاجـــور فحسب ، بل تؤدى كذلك الى استمرار تخلف هذه المجتمعات بصفة عامة عن مثيلتها فى العالم الغـــربى المتقدم صناعيا (٢٤) .

ويتفق بريز G. Breese مع شيشو Chesheaux (٢٥) فى أن المدن الآسيوية كانت مرتبطة بالامبراطوريات الزراعية الكبيرة ولكنها ما لبثت أن اكتسبت تدريجيا المزيد من سمات المدن الغربية ، وبينما اقتصر التحضر فى غرب افريقيا على المناطق الساحلية وحدها فان أمريكا اللاتينية قد حرصت على أن تخطو خطوات سريعة من المرحلة الزراعية القروية (الكثيفة السكان) الى مرحلة التصنيع الحديث ، وفى بعض البلاد الافريقية كانت المدن بمثابة مراكز وقواعد للاستعمار الغربى وبانتهاء مرحلة الاستمار تحولت هذه المدن الى مراكز هامة تتركز فيها القوى السياسية واقتصادية التى تدير دفة الدولة ، ومن ثمة صارت هذه المدن اداة أساسية للتغير الاجتماعى (٢٦) .

ومن بين التصنيفات الهامة للمناطق الحضرية ما قام به بيرين Pirenne لتصنيف المناطق الحضرية فى العالم الثالث الى مجموعتين رئيسيتين :

(أ) المراكز السياسية والحضارية (مثل دلهى وكيتو) .

(ب) المراكز الاقتصادية (مثل بومباى) .

بينما انصب اهتمام هزليتز على ما أطلق عليه **المدن المنتجة والطفيلية** Generative ووضع ردفيلد وسنجر تصنيفا آخر للمدن فى هذه البلدان (الاقل تقدما من الناحية الصناعية) على أساس أنها اما ((**محافظة**)) أو ((**مجددة**)) والاولى هى التى (تحافظ على الحضارة التقليدية وتنقلها بطريقة منظمة) ، أما الاخرى فانها (تخلق) أساليب فكرية أصلية جديدة غير أن المدينة قد تضطلع بالمحافظة والتجديد معا ، كما قدم هاوسر Hauser تصنيفا للمدن الى **قبل صناعية وصناعية ومتروبوليتانية** ، ويرى بريز (٢٧) أنه يصعب تنميط وتصنيف مجتمعات العالم الثالث بحسب تحضرها نظرا لتباين واختلاف الظواهر الموجودة فى هذه المجتمعات * واختلاف بنياتها الاجتماعية .

وقد اتضح من الدراسات الانثروبولوجية التى أجريت حديثا وتناولت التصنيع والتحضر فى آسيا أنه حيثما دخل التصنيع تغيرت الخصائص ألفيزيقية للمجتمعات المحلية الصغيرة وبالرغم من هذا فان قارة آسيا تستحوذ على أكبر مجموعة من المدن الكبيرة (ألتى يزيد عدد سكانها عن مجموع مدن أوربا وأمريكا الشمالية مجتمعة) غير أنها تعد أقل القارات تحضرا اذا استثنينا قارة افريقيا (٢٨) .

وقد قام سوفانى Sovani باختبـــار نظرية دافيز L. Davis (٢٩) عن **التحضر والتحضر الزائد** واكتشف عدم دقة الفروض التى شـــيد عليها دافيز نظريته ، واستنتج أن العـــلاقة بين التصنيع والتحضر فى دول العالم الثالث ليست وثيقـــة كما هو الحال فى الدول الاكثر تقدما (صـــــناعيا) ولكن دافيز وسوفانى فشـــلا فى أن يأخذا فى الاعتبار مدى أنتشار الصناعة وطبيعتها وعلاقتها بالزراعة فى بلدان العالم الثالث .

ويختلف نمط **التصنيع والتحضر** فى العـــــالم الثالث عنه فى البلدان الغربية التى سبقتها فى هذا المضمار نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية — التى تعيش فى ظلها هذه المجتمعات فقد عانت كثـــيرا من تبعيتها للدول الاستعمارية وما زالت تعانى من هذه التبعية الاقتصـــادية والثقافية والتى تأخذ صورة الاتفاقات والقروض والتبعية المالية والخضوع لراس المال الاجنبى مما يؤدى الى جمود النمو الاقتصادى بها (ويشـــــذ عن ذلك بالضرورة الدول المصدرة للبترول) .

كما أن ارتباط بلدان العالم الثالث **بالسوق العالمى** يجعـــل هـــــذه البلدان تتاثر بدورها بالاختناقات التى تتعرض لها البلدان المتقدمة والتقلبات الاقتصادية والتذبذب الذى يرتبط بدوره بتغير الاحوال الاقتصـــــــادية والسياسية بصورة مطردة (كما حدث ابان الازمة الاقتصادية عام ١٩٣٠). ويعطل بالتالى من تنمية هذه البلدان .

ويؤدى ارتفاع معدل المواليد (فى العالم الثالث) مع انخفـــــاض معدل الوفيات لمشاكل بالغة الصعوبة فى الاكتفاء (الزراعى) مما يضطر هذه البلدان الى استيراد المنتجات الزراعية بينما ينعكس ركود الزراعة فى العجـــز عن تمويل المشروعات الصناعية — التى تعجـــز بدورها عن امتصاص الايدى العاملة — مما يؤدى فى النهاية الى زيادة معدلات البطالة فيها .

ويؤكد علماء الاقتصاد فى العالم الثـــالث عادة أن الجزء الاكبر من القوة العاملة تشتغل فى القطاع الثالث (الذى يشتمل على النقل والتجارة والاعمال الادارية والخدمات) ، وليس فى « القطاع الثانى » الانتـــــاجى (الذى يدور حول الصناعة والبناء) * . (٣١)

وبعبـــارة أخرى فان التضخم المفرط فى النشاط الادارى والخدمات قد اصبح العلامة المميزة لمعظم بلدان العالم الثالث ، وتضم هذه الخدمات

(الخدمات الشخصية) ، الامر الذى يعبر عن البطالة المقنعة بمختلف صورها ويزيد من المهن الهامشية (٣٢) .

وتعد دراسات لندز ووارنر محاولات رائدة لتطبيق اساليب الدراسة الانثروبولوجية على المجتمعات الحضرية .

ومن الدراسات الهامة كذلك تلك الدراسة التى تمت فى احد المجتمعات المحلية الكندية الفرنسية وهو مجتمع Canton ville وكذلك دراسة فيديش Vidich وبنزمان Benasman لمدينة Springdale وهى مدينة صغيرة كانت محكومة تماما بواسطة قوى كبرى خارج حدودها (الدولة ومؤسساتها الرسمية) ، والامر الذى لا شك فيه أن التصنيع يؤدى الى اشاعة الكثير من ضروب التغير فى الانساق الاجتماعية للمجتمعات المحلية التقليدية وفى المجتمعات المحلية الصغيرة حيث يظهر فى هذه المجتمعات المحلية العديد من المنظمات المتخصصة كالنوادى والاتحادات وما اليها وقد ادى التحليل الوظيفى البنائى فى ميدان الانثروبولوجيا الى نبذ العوامل التطورية والتاريخية والتركيز على تحليل البناء الاجتماعى فى مجتمع محلى تحليلا وظيفيا وان كان فى الامكان الاستعانة بالدراسة الانثروبولوجية التى تتبنى الاتجاه البنائى التركيز على جماعات محلية صغيرة بقصد **تتبع العلاقات والانساق فى تداخلها وتفاعلها معا** (٣٢) .

وبعبارة أخرى فانه طالما كان المجتمع المحلى الحضرى يستشعر قوى التغير نفسها التى تؤثر فى المجتمع القومى ، فمن المستحسن أن يدرس فى ضوء **النظرة الضيقة والمتسعة** فى نفس الوقت ويعتبر الاطار التصورى الذى صاغه عالم الاجتماع الامريكى رولاندوارين R. Warren (٣٣) **عن الانماط « الافقية والرأسية »** افضل الصياغات النظرية التى يمكن الاسترشاد بها حيث يحدد الاول بأنه العلاقة الوظيفية البنائية للوحدات والانساق الفرعية داخل المجتمع المحلى بينما يحدد الثانى بأنه العلاقة البنائية الوظيفية التى تحكم العلاقة بين هذه الانساق المحلية والانساق (الكبرى)خارجها . ونستطيع أن نستعير من وارين مفهومه عن التغير المظيم فى المجتمع المحلى لنلقى المزيد من الضوء على التغيرات الاجتماعية التى تصاحب التحضر فى المجتمع المحلى فهو يلمح الى تقسيم العمل ، وتزايد « البيروقراطية » وازدياد الاتصال بين المجتمع المحلى والمجتمع الكبير وهذه بدورها تعد من الملامح المميزة للتحضر — الذى يواكبه أيضا ازدياد الحراك الاجتماعى المهنى .

ويذكر مورجان Morgan أن هناك علاقة تفاعلية بين التصنيع

والمجتمع المحلى فالتصنيع من صنع الناس ويعتمد نجاحه على احساس الناس فى المجتمع المحلى بوجوده واستجابتهم لآثاره (٣٤) .

ويذكر عالم الانثروبولوجيا الحضرية جتكند Gutkind (٣٥) أن التصنيع والتحضر يؤديان الى حدوث تأثيرات عديدة على المجتمعات المحلية الصغيرة والنظم الاجتماعية ، وقد اتضح من واقع دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة فى جواتيمالا Guetemala أهمية الآثار التى يعكسها التحضر والتنمية على هذه المجتمعات المحلية الصغيرة كما ترجع أهمية التركيز على دراسة هذا النمط الانسانى الهام الى أن درآسات المجتمع المحلى برغم كثرتها قد أظهرت فقدان التوجيه النظرى الذى يتمثل فى جمع **المادة دون محاولة تفسيرها ، كما تفتقد بدورها للنظرة التاريخية والتحليل الاجتماعى للأحداث** (٣٦) .

وليس أدل على ذلك من أن بعض الكتاب فى السنوات الاخيرة قد بالغوا فى النظر للمجتمع المحلى نظرية تشاؤمية ، ومن أمثلة هؤلاء ستاين Stein الذى راى أن المجتمع المحلى الحضرى أصبح يموج بالغرباء مما يهدد تماسكه وهو ما أفصح عنه فى كتابه بعنوان « خسوف المجتمع المحلى » (٣٧) .

طرق دراسة المجتمعات المحلية الحضرية :

يذكر وارن R. Warren (٣٨) أن هناك عدة طرق لدراسة المجتمع المحلى أهمها :

١ — الدراسة الديموجرافية للمجتمع المحلى :

يهتم أصحاب هذا الاتجاه بدراسة **توزيع سكان المجتمع المحلى** من حيث قوته العاملة فى المجتمع ونسبة من يعتمدون فى معاشهم على غيرهم، وتوزيع السكان بحسب فئات السن والنوع ، ومن أنصار هذا الاتجاه ثورنديك Thorndike وسيلى Seely ونوجت Vogt ، وغيرهم .

٢ — دراسة المجتمع المحلى كبؤرة للتفاعل :

ويهتم أصحاب هذا الاتجاه بدراسة **السلوك الانسانى فى المجتمع المحلى داخل المؤسسات** الموجودة كالمدرسة والكنيسة من خلال العمليات

الاجتماعية كالصراع والتنافس ، ومن أصحاب هذا الاتجاه مايو Mayo وجرين Green .

٣ — دراسة المجتمع المحلى كاداة لتوزيع القوة :

ويعنى هذا الاتجاه بدراسة من**يملكون التأثير والسلطة فيه** ، ومن أمثلة الدراسات التى اهتمت بهذا الاتجاه دراسة هنتر Hunter التى**أبرزت** اهمية العامل الاقتصادى فى تشكيل بناء القوة .

٤ — **المجتمع المحلى (كمرادف) للنسق الاجتماعى :** وتقوم الفكرة الموجهة لهذا الاتجاه على اعتبار أن النسق يعبر عن التفاعل البنائى بين الوحدات (وهذا علاوة على الاعتبارات الفيزيقية والايكولوجية الاخرى اللازمة لتكوين البناء) وعلى هذا الاساس **فالمجتمع المحلى يعبر عن فكرة النسق الاجتماعى لاشتماله على العديد من التنظيمات والجماعات** الرسمية وغير الرسمية وفى هذه الحالة ينبغى على الباحث أن يأخذ فى اعتباره علاقة الانساق الفرعية للمجتمع المحلى مع الانساق الاخرى خارج هذا المجتمع .

وقد استحوذت فكرة المجتمعات المجاورة للمدن على اهتمام بعض علماء الانثروبولوجيا ايضا أمثال هاريس Harris ، وولف Wolf الذين قاموا بدراسة المجتمعات المحلية فى مجتمعات العالم الثالث وبصفة خاصة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية . وفى هذه الدراسات روعيت علاقات (الجوار) بين المجتمع المحلى وبين المدن الاخرى وبعبارة اخرى فالباحث هنا يدرس « ثقافة جزئية » فى اطار ثقافة اكبر ليدرك مدى التأثير والتأثر بينهما ، فقد تصدر المدينة للمجتمع المحلى المجاور السلع والخدمات وتأخذ منه المحاصيل الزراعية ومنتجات الالبان .

كما ينصرف مفهوم المجتمعات الصغيرة على **اطراف المدن** Urban fringes **والظهير الزراعية** Hinter lands **والضواحى** Suburbs التى لا يمكن أن تدرس الا فى ضوء اتصالها بالمدينة الكبيرة Town أو المتروبوليتانية وغير خاف أن تحديد المجتمعات المحلية لا يرتكز على الحجم أو الكثافة أو النشاط الاقتصادى السائد أو غيرها من المحكات الجزئية الى ثبت فشلها جميعا فى التمييز بين انواع المجتمعات المحلية التى تتولى دراستها اذ أن هذه الخصائص تختلف من مجتمع لمجتمع وفى المجتمع الواحد من منطقة لاخرى .

« امثـلة لبعض الدراسات الحضرية »

لويس ويرث : « الحضرية كطريقة للحياة » :

كان الهدف من هذا المقال ابراز **العلاقة بين التنظيم الاجتماعى فى المدينة وبعض التغيرات** التابعة كتزايد السكان وكثافتهم وعدم تجانسهم ويمكن أن نلخص افكار ويرث والمناقشات التى دارت حولها على النحو التالى :

(أ) يعتقـد Wirth أن نمط التنظيم الاجتماعى فى المدينة ويؤدى الى « **لا شخصية** » **العلاقة الاجتماعية** والى **التخصص وتقسيم العمل** الذى يؤدى بدوره الى أتساع نطاق السوق والامتداد العمرانى للمدينة ، وزيادة كفاية وسائل الاتصال بها .

(ب) تقوم نظرية ويرث على وجود **بعض الخصائص الاساسية للمدينة** تتمثل فى **زيادة الحجم والكثافة وعدم التجانس** وأن هذه تؤثر كذلك على انماط العلاقات الاجتماعية (وقد تأثر فى هذه المقولة بسيمل كما تؤثر هذه الخصائص بدورها على « الطبيعة الانسانية » وعلى نمو الشخصية).

(جـ) تؤدى حياة المدينة بصفة عامة الى **زيادة العقـلانية وحرية الاختيار** .

(د) ان الحياة الحضرية تتضمن **الفصل الواضح بين محل العمـل ومكان السكن** .

(هـ) قابل ويرث بين المراكز الحضرية والمحليـات الريفية فالحضر لديه يخالف الريف .

(و) ترتبط الحياة الحضرية بنمط استخدام الارض ، ونمط الاتصال والنقل والمواصلات كما تؤثر (الحضرية) فى البناء الفيزيقى (المـادى) والتنظيم الاجتماعى القائم والاتجاهات والافكار غير أن ويرث يشير الى **استقلال آثارا لنمو الحضرى** عن التصنيع اذ أن النمو الحضرى يواكبه نمو المدينة فى الحجم والكثافة بينما يؤدى التصنيع الى لا شخصية العـلاقات

والى التغير فى القيم الثقافية كما يؤكد ويرث فى الوقت نفسه الى أن كل المدن (التاريخية والمعاصرة) تفصح عن هذه الخصائص عينها .

ومع أن المفهـــوم **(الجشطالتى)** الذى يمثله ويرث من شـــأنه أن يساعدنا على فهم العلاقة بين عناصر البناء الاجتماعى (الانساق الاجتماعية المتضمنة) والتنظيم الايكولوجى السائد الا أن البعض أمثال شنور Schnore وهاوسر Hauser يعتقدون أن ويرث قد فشل بصفة عامة فى استيعاب الاطار التاريخى والمجتمع الذى توجد فيه المدينة ، فلكل مجتمع تاريخه وبنيته الاجتماعية والثقافية .

ويذكر جانز Gans أن من أخطـــاء ويرث التعميمـــات التى أطلقها على طريقة الحياة الحضرية عامة بينما تركزت اهتماماته على وصف « المدينة الداخلية فقط » (أى وسط المدينة) ، كما أنه وضع ظاهرة التحضر فى اطار المدينـــة (بينما ينتشر التحضر كذلك للاطراف والقرى) ، ويذكر جانز أن هذا قد دفع ويرث لأن يفترض شيوع عدم التجانس بما يصاحبه من **زيادة فى معدلات الجناح والمرض العقلى والانتحار** — أو بما يعرف « باللامعيارية » الذى ينعكس فى اختلال التكامل الاجتماعى فى المدينة ، وقد حاول بيكفانس Pickvance (٤٠) أن يدافع عن ويرث على اعتبار أن نظرته للمدينة كانت تشخيصا لنماذج تصورية أكثر منها لمحلات حضرية قائمة بالفعل بينما يذكر موريس Morris أن اختيار الاطار التصورى لويرث يتم بثلاث طرق :

(أ) المدينة قبل الصناعة كما وصفها جوبرج Joberg .

(ب) المجتمع الحضرى الصناعى بصفة عامة .

(جـ) البيروقراطية .

أما مكجى Mcgee (٤١) فيعيب على ويرث عدم دقتـــه فى اختيـــار **التغيرات المستقلة والتابعـــة** التى قام بابرازها فالحجم والكثافة ليســـا شروطا للحيـــاة الحضرية ، وقد وقع ويرث فى هذا الخطـــأ بسبب الافراط فى أصدار الاحكام القيمية ، بالاضافة الى عجـــزه عن أدراك التأثير الذى يعكسه المجتمع الاكبر على المدينة ، كما أنه تأثر فى كتاباته ببعض الكتاب أمثال بيرين Pirenne (الذى حاول أن يرسم صورة للاستقلال الاجتماعى والسياسى للمدينة الاوربية فى العصور الوسطى) (٤٢) .

تعقيب :

قدم ويرث اطـــاره الشهير عن الحضرية الذى أدى دون جدال الى تعميق فهمنا للعلاقات السائدة بين عناصر النسق الاجتماعى والحضارى السائد والتنظيم الايكولوجى للمدينة غير اننا نتفق مع Mcgee فى أن ويرث قد فشـــل فى أختيار المتغيرات المستقلة والتابعة بسبب نقص دراساته الميدانية فى هذا المجـــــال كما أنه قد تأثر بالصورة الكلاسيكية للمدينة الامريكية ، الامر الذى لا يمكن تطبيقـــه على المدينـــة فى مجتمعات العالم الثالث التى ينبغى الآن الاهتمام بدراستها .

٢ — **روبرت ردفيلد :** « المجتمع الصغير » (الفولك) :

اما الدراسة الثانية ألتى يمكن الاستشهاد بها فى هذا الصدد فهى تلك التى قدمها روبرت ردفيلد Redfield واستعرض فيها خصائص المجتمـــع الصغير (فى مقابل مجتمع المدينة الاكثر تعقيدا) (٤٣) .

وخرج ردفيلد من المقارنة التى عقدها بين المجتمعات المحلية البسيطة والاكثر تعقيدا (المدن) بنتيجة مؤداها أن الاخيرة تعتبر :

١ — **اقل عزلة .**

٢ — **اقل تجانسا .**

٣ — **اكثر تقسيما للعمل .**

٤ — اكثر تعقيدا فى **(اقتصادها النقدى) .**

٥ — **اكثر علمانية** فى التخصص المهنى .

٦ — اقل فاعلية فى **الضبط الاجتماعى** (غير الرسمى) .

٧ — ازدياد الاعتماد على **النظم « غير الشـــخصية »** فى الضـــبط الاجتماعى .

٨ — اقل حرصا على **العقيدة الدينية** .

٩ — اقل ميلا لارجال **المرض** « للاحكام الاخلاقية » .

١٠— حرية اكبر فى العمل والاختيار الشخصى .

وهذه المتغيرات تصف وتقيس تحضر مجتمع « الفولك » فى الوقت نفسه .

ذهب ردفيلد الى أن التحضر يؤدى **لاختلال التنظيم وزيادة العلمانية وزيادة الفردية** ، وقد رأى بدوره أن التحضر على هذا الاساس يهدم المجتمع الشعبى (الفولك) فلا يستمر تجانس المجتمع طويلا كما نقل اهمية العائلة الممتدة وهكذا تتحول نظـــرية ردفيلد الى نظرية فى « **التغير التطورى** » ولا يخفى على المتتبع لآراء ردفيلد أن « تيبوزتلان » كانت المصدر الرئيسى لافكاره عن **المتصل فولك — حضرى** ففى ١٩٢٦ اكتشف فى خصائص هذه القـرية ما طوره بعد ذلك فى نموذج المجتمع الشعبى (الفولك) .

كما اكد اهمية الفهم البنائى للقرية والمدينة حيث يستحيل وجـــود فلاحين دون مدينة ويصعب وجود مدينة دون فلاحيها . وقد وجه أوسكار لويس انتقـــاده له على اساس انه اعتبر **المدينة المصدر الوحيد** للتغـــير وهكذا اغفل اثر العوامل الاخرى (داخلية وخارجية) كما انه لم يحـــاول التركيز على **جوهر المجتمع الحضرى** ثم انه **اغفل الخصائص الســـكانية** وأبرز بعض الاحكام القيمية فى التصنيف « ســـعادة سكان الفولك وسوء احوال سكان الحضر » (٤٤) .

وينتقده لويس كذلك لانه اعتبر أن التحضر يعنى دائما عدم التنظيم والعلمانية والفردية فقد حاول ردفيلد أن يقـــارن الفولك (المغلق) بالمنطقة الحضرية (التى تمثل نسقا جزئيا) كما تناسى أن العلاقة بين الريف والحضر والفروق بينهما لا تكاد تلحظ فى بعض المجتمعات المتقدمة كالمجتمع الامريكى ويضيف لويس الى ذلك أن التغير ليس **(احادى الاتجاه)** أو من الفـــولك الى الحضر على الدوام .

ويتفق ارنسبرج Arensberg وكيمبـــال Kimball (٤٥) فى أن النقد الاساسى الذى يوجد لردفيلد تجاهله للسوق المركزى واهتمامه بالفـــولك (البسيط) وهو النقد نفسه الذى يوجهه رزمان Reissman لردفيلد (٤٦)

على اعتبار انه يتجـــاهل الاهداف الرئيســـية لنظريته ولم يركز كثيرا على الخصائص **الاساسية للمجتمع الحضرى** ، وقد استشهد ريزمان بدراسة ماينر Miner الذى قام بمقارنة أحد المجتمعات المحلية الكندية الفرنسية المنعزلة بآخر نقيضه (غير منعزل — غير متجانس — متزايد الحجم) واستنتج من هذا صعوبة اثبات فروض ردفيلد .

ويذكر جوبرج Sjoberg ان المدينة بصفة عامة كانت تمثل **التغـــير المستقل (الاساسى)** فى تفسير آلفروق الريفية — الحضرية بالنسبة لردفيلد وويرث حيث يرى الاول أن عزلة المجتمع وتجانســـه تعد **متغيرات مستقلة** بينما تعد « العلمانية » والفردية وتكامل أو عدم تكامل الثقافة **متغـــيرات تابعـــة** فى المدينة وينظر الثانى الى المدينة من ناحية ازدياد حجمها وشـــدة كثافتها ألسكانية وسيادة العلمانية واللاتجانس والعلاقات الثانوية وآلضبط الاجتماعى الرسمى الطابع أى انهما بصفة عامة :

١ — يتارنان بين المجتمع المكتفى ذآتيا والمجتمع الحضرى **(الجـــزء المتصل بالكل)** .

٢ — يفترضان **التجانس والاستقرار** فى المجتمع آلقروى ، بينمـــا قد يمر المجتمع القروى بفترات طويلة من عدم الاستقرار .

٣ — المبالغة فى درجة انقسام الحياة الحضرية .

٤ — انهما فشلا — كما فشل اتبـــاع سوروكن Sorokin وزمرمان Zimmerman فى تحليل المجتمعات الريفية والحضرية باعتبارها **مجرد اجزاء** فى السياق الاكبر الذى يضمها .

ومهما قيل من أوجه النقـــد التى وجهت لاعمال ردفيلد وويرث فانهما قدما **اطـــارا جشطالتيا** (ويرث) **وبنائيا** (ردفيلد) نهج على هديه البعض أمثال سميث Smith فى دراسته لمدينة طوكيو (حيث تبع اطار ويرث) وغيره من الباحثين الذين تبعوا اطار ردفيلد .

دراســـــة ميدلتون : (٤٧)

قام لند ، هـ . لند بدراسة لمدينة ميدلتون فى سنة ١٩٢٠ وهى تعتبر مثلا طيبا لدراسة **التغـــير والنمـــو** فى احـــد آلمجتمعات المحلية الامريكية

وقد عاد لدراسة المدينة بعد عدة سنوات بهدف المقارنة بين الوضع فى الحالة الاولى والاخيرة لكشف **انماط التغير** فى الظروف الاجتماعية والاتجـــاهات فى الدراسة الثانية .

وقد افترضا أن **المدينـــة الصـــغيرة تعكس ملامح المجتمع الامريكى الاكبر** ، كما افترضا أن درجة واتجاه التغير يعتمدان بدورهما على القرب الجغرافى من المراكز القـــوية للانتشـــار الثقافى (الحضارى) واستعانا لتحقيق هذه الفروض **بالاتجاه الانثروبولوجى عن طريق استخدام عدة وسائل لجمع البيـــانات** كالملاحظة والمقابلات الشخصية والجماعية والزيارات للمدارس والكنائس وحضـــور المحاضرات والوثائق المكتوبة عن المدينـــة كما استخدما البعـــد « التنظيمى » لوصف المجتمع المحلى (كاســـاليب المعيشة ومحل المسكن وقضـــاء وقت الفـــراغ الممارسة العقيدة ومختلف الانشطة الاخرى وبخاصة ما يتعلق بالاسرة) وقد عادا بعـــد **اقل من ١٠ سنوات** لاستجلاء صور التغير التى حدثت فى المدينة واستخدما ذات الاتجـــاه وطرق جمع البيانات فى دراسة المدينة وقد اتضحت الدراســـة عن بعض الحقائق يمكن ايجازها فيما يلى :

(أ) ان **البنـــاء الاجتماعى** فى الحقبة الاولى كان يتسم (بالتقليدية) وقد تمثلتر دود الفعل لاحداث التغير فى الجـــانب المـــادى المتمثل بدوره فى الادوات التكنولوجية كالسيارة والراديو وآلة الطباعة (اللينـــوتيب) اذ ان هـــذه الادوآت قد ادت الى العـــديد من الآثار على الاسرة والنسق السياسى بل والحياة الاجتماعية فى المجتمع المحلى بصفة عامة .

(ب) ان هناك بعض **الظروف القومية والعالمية** (كالأزمة الاقتصادية) قد عكست آثارها المباشرة على المجتمع المحلى موضوع الدراسة .

(جـ) ان هناك **مقاومة للتغير** حيث تبدو ثمة **جماعات ضاغطة** لهـــا اهتمامات تقليـــدية لا تفضل أن تحيـــد عنها كثيراً بينما ادت **التكنولوجيـــا (المتقـــدمة)** الى احداث التغيير اذ أن التصنيع والتحضر فى ميدلتون كانا من الركائز الهامة للتغير الاجتماعى فى المدينة الى جانب التحديث .

(د) بدات ميكانزيمات التغيير فى **العمـــل** من خلال بعض النـــواحى المرتبطة **بمكانة المراة ودورها** فى المشاركة الاقتصادية مما ادى الى تغيرات تابعـــة فى **سلطة الرجل وفى الادوار الاسرية** والزواجية بصفة عامة .

تعقيب :

الواقع أن دراسة لبندز ، تقوم على الاهتمام بالجوانب المادية فى احداث التغير اكثر من الجوانب غير المادية ويظهر هذا الاهتمام فى التركيز على العلاقة (الانتشارية) بين المدينة والمجتمع المحلى (المدروس) والاهتمام بأثر الادوات التكنولوجية حيث تأتى هذه الوسائل المادية بمثابة « المتغير المستقل » المؤدية لاحداث التغير وكنا بحاجة للتركيز على الجوانب غير المادية) .

« المصـــــادر »

١ — بيلز وهويجر — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة — ج ٢ ص ٨٦٠ ، ص ٨٦٦ .

٢ — Anthropologists in Cities op. cit. p. 2.

٣ — L. Reissman, op. cit. pp. 94 : 114.

وانظر ايضـــا :
W. Michelson, Man and his urban Environment U. S. A. 1976, pp. 3 : 16.

* وتهتم بدراسة العلاقة بين البيئة والانسان .

٤ — Simpson, Sociology of the Community, In Rural sociology. vol. 30. N. 2 Jun. 1955. pp. 136.

٥ — Urbanism as away of life, In R. Sennett. pp. 155 : 159.

٦ — G. Sgoberg, Theory and research in urban sociology (in) Hauser and Schnore (Eds(op. city. pp. 157 : 172.

٧ — مقـــدمة فى الانثروبولوجيا العـــامة — ج ٢ ، المصدر السابق — ص ٨٦٠ : ٨٦٦ .

٨ — The urbanization process op. cit. pp. 36 : 51.

٩ — The cultural role of cities In. R. Sennett. op. Cit.

١٠— محمد الجوهرى — الانثروبولوجيا — دار المعـــارف — ١٩٨٠ .

* استحوذ التغير الاجتماعى على اهتمام العـــديد من علماء الاجتمـــاع والانثروبولوجيا وقد تعـــددت الاتجاهات والمذاهب التى حاولت ان

تفسر هذه القضايا من خلال الحوار الذى قاده على وجه الخصوص الرواد الاوائل أمثـال كونت وسبنسر وفيـبر وماركس وأصحاب الاتجاهات الدارونية والتطورية والوضعية والايكولوجية وأصـحاب فى علم الاجتماع ومن نحى نحوهم من علماء الانثروبولوجيـا التطورية والانتشارية ويمكن الرجوع الى :

نيقولاتيماشيف — نظرية علم الاجتماع — طبيعتها وتطورها — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون فى الباب السادس .

وبوتومور تمهيـد فى علم الاجتماع — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون الباب الخامس .

١١— بيلز وهويجر — المصدر السابق — ص ٨٦٤ .

Gutkind, urban anthropology. pp. 160 : 173.

Ibid. pp. 208 : 221. —١٢

Ibid. pp. 182 : 205. —١٣

١٥— بيلز وهويجر الانثروبولوجيا العامة جـ ٢ ص ٨٦٤ .

** اثارت دراسة Warner العديد من الانتقادات حيث اعتبرت تعريفاته للطبقة (غير مرضية) وتخاصة لدى أنصار الاتجاه الماركسى كما اتهم بالخلط بين الطبقـة والمكانة . غير أنها شجعت غيره من العلمـاء على الحذو حذوه .

روبرت ردفيلد — المجتمع القروى وثقافته — ترجمة فاروق العادلى — الهامش ص ٦٦ .

L. Reissman, op. cit. p. 147. —١٤

The urban process, op. cit. pp. 147 : 149. —١٦

L. Reissman, op. cit. p. 147. —١٧

* اذ أن بعض علماء الغـرب يهتمون بالاتساق المغلقة لتاكيد المتطلبـات

الوظيفية Functional prerequisites للنظـــام الصناعى

الحضرى وبالتالى فانهم يتجاهلون عادة صراع هذه المتطلبات من جهة ودور القـوى التى تعمل للتاثير فيها على الصعيد العالمى من جهة اخرى .

١٨ــ Hardog, urbanization in latin America, N.y. 1975, pp. 110 : 120.

١٩ــ مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ــ جـ ١ ــ ص ٣٦٥ : ص ٤٠٧ .

٢١ــ المصدر نفسه ــ المكان نفسه .

٢٢ــ الفـــروق الريفيـــة الحضرية (فى) ميادين علم الاجتماع ــ المصدر السابق ــ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ص ٨٧ ، ص ٩١ .

٢٣ــ McGee, Op. cit. pp. 198 : 115.

٢٤ــ Ph. Hauser, urbanization in Asia op. cit. pp. 258, 259.

٢٥ــ Op. cit. pp. 211 : 221.

٢٦ــ جيرالد بريز ــ المصدر السابق ــ ص ٦٤ .

٢٧ــ P. W. Gutkind, op. cit. p. 30.

٢٨ــ جيرالد بيريز ــ المصدر السابق ــ ص ٩٩ : ١١٠ .

* يصاحب التصنيع فى دول العالم الثالث عادة مشاركة كبيرة من الدولة ولا يصاحبها عادة ــ كما ظهر فى الغرب ــ ظهور طبقـــة وسطى متميزة .

انظر فى ذلك :

M. Berger, Social groups. In B. Lutifyya & Churchil (Eds) Readings in Arab middle Eastern societies.

٢٩— Hauser, Urbanisation in Asia op. cit. pp. 4 : 9 173.

٣٠— Sovani the nature of City (In) R. Sennet (Ed) Classic essays on the Culture of cities op. cit. ch. 2.

٣١— سمير أمين — المصدر السابق — ص ١٥٥ : ص ٤٢٥ .

٣٢— The American community op. cit. pp. 22 : 64.

٣٣— أحمد ابو زيد — البناء الاجتماعى — ج ١ — بصدر سابق ص ٣٠٠ . ص ٣٠٣ .

٣٤— The American Community, op. cit. p. 77.

٣٥— P.H. Hauser. urbanization in Asia .. op. cit. pp. 37 : 85. Moore. The impact of industry op. cit. pp. 59 : 63.

٣٦— Urban Anthropology. The netherlands, 1974 op. cit. pp. 161 : 171.

٣٧— R. Warren, op. cit. p. 339.

٣٨— M. Nottridge, The sociology of urban living, Boston. 1972. pp. 79, 80.

٣٩— Op. cit. pp. 22 : 50.

٤٠— L. wirth, urbanism as a way of life (in) R. sennett (Ed) classic essays on the Culture of cities.

٤١— On a materialist critique of urban sociology, the soc. Review. Vol. 22 N.Z. May. 1974 p. 208.

٤٢— Op. Cit. pp. 38 : 45.

٤٣— Gutkind, Urban Anthropology, op. cit. pp. 161 : 174.

The little Community, Chicago. 1955. —٤٤

R. Redfield, Avillage that chose progress, Chicagc, London .. 1962, pp. 113 : 138. —٤٥

Culture and Community. op. cit. p. 47. —٤٦

The urban process. op. cit. pp. 133 : 137. —٤٧

R.S. lynde, H. lynde, middle town, foreword by Clark Wissler. N.y. 1929. ٤٨

وانظـــر أيضـــا :

Middle town in transition. N.y. 1937.

« الدراســـة الانثروبولوجية للتحضر »

١ ــ الخصائص الاجتماعية لسكان الاطراف الحضرية :

« دراســـة مقـــارنة »

مقـــــدمة :

ينهض المبحث الراهن على عدة محاور اساسية يتناول أولها بعض المعطيات التى تناقش آثار التحضر والنمو الحضرى للمدن المتروبوليتانية ، ويعرض المحور الثانى فى ايجاز لأهم النتائج التى تمخضت عن دراستين حقليتين لبولاق الدكرور وشبرا الخيمـــة تولى الباحث القيام بهما خـــلال عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، أما المحـــور الثالث فيناقش الوظيفة الاجتماعية للاطراف من واقع المعطيات النظرية والميدانية التى بين أيدينا ، ويتضمن المحـــور الاخير مناقشـــة بعض النتائج المتعلقة بالاطراف المتروبوليتانية فى مصر .

وغير خاف انه بالرغم مما أولاه العديد من المهتمين بالتحضر بالمدينة ككل الا أن **الاطراف** لم تحظى باهتمام هؤلاء العلماء بصورة مماثلة .

والاطراف هى الامتداد الحضرى للمدينة الذى يعكس بنية فرعية لها انساقها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخاصة بها .

اولا : آثار التحضر والنمو الحضرى للمدن المتروبوليتانية :

١ ــ على امتداد الحقبة المترامية منذ الحـــرب الاولى وحتى الآن حاول أنصـــار **المدرسة « الايكولوجية »** من جهة ، وأنصار اتجاه دراسة المجتمع المحلى من جهة اخرى ، وأنصار الاتجاه التفاعلى من جهة ثالثـــة

سبرغور الحيـاة الحضرية بقصد دراسة ميكانزمات التحضر وابراز آثاره ويبدو أنه لا مناص من الاعتراف بالحاجة الماسة لاجراء المزيد من الدراسات الحقلية لاسيما فى مدن العالم الثالث مع المقارنة بين نتائج هذه الدراسات وبين الدراسات التى أجريت عن المدن الغربية قبل أن نصدر اى أحكام مسبقة .

٢ — منذ أكثر من نصف قرن كذلك بدا الاهتمام باجراء دراسات حقلية عن **المدن المتروبوليتانية** فقد قدمت كارولين وير Caroline Ware دراستها الرائدة عن احدى أحياء مدينة نيويورك التى كان للامتداد المتروبوليتانى التدريجى — اثره فى نشأته وتكوينه فقد كان هذا المجتمع المحلى فى الاصل عبارة عن قرية صغيرة تقع خارج مدينة نيويورك اسمها Green Wich Village وهو ذات عنوان المؤلف الذى حررته وير عنوانا لدراستها الحقلية ، وأصبحت القرية بعد ذلك جزءا من وسط المدينة بالرغم من النمط المتميز لشوارعها وخصائصها السكانية المميزة .

وقد ظهرت الصعوبات فى جمع المادة سواء المتعلقة بالبيانات السكانية والاحصاءات الحيوية الخاصة بالمجتمع المحلى أو فى اختيار عينة من بين أفراده لدراستها حيث كان السكان يضيقون ذرعا بالدراسة ويأنفون من اعتبارهم عينة تعامل « كفئران التجارب » وكان البعض الآخر — من المتعلمين تعليما عاليا — يترفعون عن أن يكونوا موضوعا للبحث وحتى هؤلاء الذين لم يترفعوا لم يكن لديهم الوقت الكافى الذى يسمح باستبارهم ، وبعد أن فشلت فى جمع الاستمارات وصحائف الاستبيان الذى تم توزيعه على السكان لاستيفائه استعانت وير بمجموعة من الدارسين من داخل المجتمع المحلى وقامت بتدريبهم لملء استمارات الاستبيان من خلال المقابلة الشخصية غير أن وير فى نهاية الامر لم تفلح فى الاستفادة من نتائج دراستها أو عرضها بصورة مرضية .

٣ — تعد الدراسة التى قدمها وليام فوت هويت W.F. Whyte لأحدا **الأحياء المتخلفة** فى مدينة كبيرة هى Cornerville من بين الدراسات البارزة فى المجال الحضرى ، وكانت بداية مشكلة البحث حين تساءل هويت كيف يمكن لباحث من خارج المجتمع أن يبدأ فى دراسة أحد الاحياء الايطالية المتخلفة بينما لم يبد أستاذه المشرف على الدراسة فى الوقت نفسه أدنى اهتمام بالظاهرة موضوع الدراسة أو يثير لديه اى حماس للعمل

بل ان هويت الذى ينتمى بحكم ظروف نشأته للطبقة الوسطى — العليا لم يك على درجة من الوعى بالحياة فى الاحياء المتخلفة ، وتوقع فون هويت أن تستلزم مثه الدراسة الحقلية الاستعانة بفريق عمل لجمع المادة الميدانية كما بدأ الاتصال ببعض الافراد كان ابرزهم دوك Doc الاخصائى الاجتماعى وعضو احد « **الشلل** » فى المجتمع المحلى ، وقد عرض عليه هويت رغبته فى دراسة المدينة ومشكلاتها بينما عرض دوك عليه ان يرافقه الى الشل المنحرفة التى يعرفها والى نواصى وزوايا الشوارع للتعرف على بعض هذه الشلل ، ومن ثم بدأ هويت فى استئجار حجرة من احدى الاسر الايطالية التى تعيش فى الولايات المتحدة ليعيش معهم كملاحظ مشارك كما بدأ فى تصميم « سوسيوجرام » a sociogram للتعرف على طبيعة العلاقات بين أعضاء المجتمع ، وليس بخاف أن دراسة هويت عن مجتمع الناصية قد اضحت واحدة من الدراسات الحقلية الاثنوجرافية الرائدة فى المجال الحضرى وقد افلحت هذه الدراسة فى ابراز ميكانزمات الشلة واعراض **الاختلال فى التنظيم الاجتماعى** للمنطقة المتخلفة كما أن ملاحظات هويت وبصيرته النافذة قد نجحت فى سبرغور مجتمع الناصية من جهة وعرض أوجه الحياة الاجتماعية فى المناطق المتخلفة من جهة أخرى .

٤ — حرص علماء الانثروبولوجيا الحضرية على اعطاء دفعة للدراسات الحضرية حين تركز اهتمام روادها **بالفهم الشمولى للمناطق الحضرية** واعتبارها كذلك أجزاء من مجتمعات أكبر منها مع استخدام الملاحظة بالمعايشة كأداة اساسية للدراسة ، كما حددت هذه الاداة مجال عملهم فى قطاعات بعينها من المدينة وتركزت انظارهم كذلك على دراسة انساقا معينة أو ظواهر بعينها وأدى هذا الى ظهور بعض الدراسات الممتازة مثل دراسة اليوت ليبو Elliot libebow عن شلة الناصية فى واشنطن بعنوان «Tally's Corner» وغيرها .

٥ — تعد دراسة أوسكار لويس Urbanization without Breakdown واحدة من الدراسات الهامة عن تأثير الهجرة الريفية الحضرية على الاسرة والثقافة التقليدية ففى الوقت الذى ظل علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الحضرية يؤكدون — دون النزول الى الميدان — التأثير السلبى للحياة الحضرية على الشخصية والاسرة والعقيدة حيث بدأ وكان التحضر يؤدى بالضرورة الى الاسراع بالانحراف وبالصور الاخرى

لسوء التنظيم الاجتماعى ، جاءت دراسة أوسكار لويس Lewis لتيبوزتلان — المكسيك — Tepoztelan-mexico city لتوضح أن **التماسك الاسرى كان قويا فى المدينة عنها فى القرية** وان الشخصية الحضرية لا تعيش فى عزلة كما يعتقد البعض وليس التحضر مرادفا بحال من الاحوال للعلمانية وخسوف النزعة الدينية بل ان التحضر يختلف باختلاف المناخ الاقتصادى والثقافى الذى يوجد فيه .

٦ — يربط رتشرد باشام R. Basham بين الفقر (كمشكلة اجتماعية) وبين الازدحام السكانى (بالنسبة للعديد من الشعوب) حيث تتجسد هذه الازدواجية فى الاحياء المخطئة التى يقصدها الفقراء طمعا فى الحصول على السكن ، وفى الاحياء المتخلفة ونتيجة للازدحام والضوضاء تقل ساعات النوم ، ففى دراسة لمستوطنى أحد الاحياء المتخلفة من الزنوج فى نهاية الحرب الثانية اتضح ان السكان ينامون اقل من خمس ساعات يوميا ابان الليل ، وفى دراسات لأحياء متخلفة فى شيكاغو وواشنطن ونيويورك ومدن أمريكية كبرى شمال الولايات المتحدة اتضح أن الاطفال يعودون من المدرسة ليلعبوا فى الشوارع ثم يعودون للمنزل لتناول الطعام فقط ومنها للشارع مرة اخرى حيث يعودون منها فى النهاية الى المنزل للنوم او مشاهدة التلفزيون .

أما البالغون فانهم يعانون من التوتر والقلق الذى يتبدى عادة فى الادمان على الخمور التى تفصح عنها الاضطرابات الاسرية كذلك ، وفى هذه الاحياء المتخلفة حيث الازدحام الرهيب تتعدد المشكلات ، ويلقى بريز تبعة المشكلات الحضرية على الطوفان المستمر للبشر بغض النظر عن قدرة المدينة على استيعابه ، وقد أوضحت الدراسات التى تمت فى عدة أحياء متخلفة فى احدى المدن الاندنوسية أنه نظرالضيق المسكن وكبرحجم الاسرة يضطجع عادة كل ثلاثة او اربعة اشخاص فى فراش واحد .

وقد أفصحت دراسة الاحياء المتخلفة فى كوالا لمبور Kuala Lumpur عن نتائج متشابهة تجسد اثر **الازدحام** الرهيب داخل المسكن الذى يكاد يخلو من النوافذ تماما .

أما الاحياء المتخلفة فى مدن الصين فتعد بدورها مراكز **للأمراض**

الاجتماعية المصاحبة للكثافة السكانية الكبيرة كالانتحـار ، ومن المدهش حقـا أن معدلات الجريمة والمرض العقلى تعـد أقل بالمقارنة بغيرها من المدن الغربية ، ففى الصين يزدآد الاهتمام بالانساق القيمية والاخلاقية والدينية الطابع التى تدعم التنظيم الاجتماعى وتسانده .

٧ — يلخص باشام Basham حقيقة الوضع القائم فى عالم اليوم بأن **نمو السكان يتم الآن فى مدن** ، وأن ٤/٣ العدد الاجمالى لسكان هذه المدن يتحركون ليس تجاه المساكن المجهزة والاحياء التى كانوا يحلمون بالانتقال اليها بل الى مناطق متخلفة مكتظة بالسكان حيث يستأجرون مساكن ضيقة لا تكاد تستوعب أفراد الاسرة الواحـدة بينما يتجه آخرون الى المنـاطق « الحكر » حيث يضعون **أيديهم بصورة** غير مشروعة على الارض الفضاء ويشيدون بيوت دون أن يسددوا الضرائب غير أن هذه المسـاكن تكون معرضة للازالة فى أى وقت وهؤلاء واولئك قد جاءوا للمدينة فى الغـالب لنقص فرص الحياة فى الريف يحدوهم الامل فى أن تتدم المدينة لهم حيـاة أيسر وفرصا **حياتية أفضـل والملفت للنظـر** فى الدراسات الحقلية التى أجريت فى ليمـا أن الانحراف فى الاحيـاء المتخلفة أعلى واكثر تنوعا منها فى مناطق الحكر ، ومن المفيد أن نذكر أن مشاكل التخلف ونقص المساكن تتصلان معـا فى حلقة دائرية فالتخلف يبدو أنه يعجّل بنمط التحضر الذى يؤدى بدوره الى زيادة التخلف آلامر الذى دفع هاجمـلر Hagmullber للقول بأن **التحضر فى العالم الثالث هو سببا ونتيجة للتخلف المستمر والفقر المتزايد** .

٨ — يشير مكجى McGee الى الصورة المعاصرة للامتداد الحضرى والازدياد السكانى فى العالم الثالث حيث يبدو النمـو الحضرى على اتصال غير وثيق بسوق العمل فى المدينة ، وهنا يكون التحضر التابع نتيجة للخبرة الاستعمارية التى اجتازها العالم الثالث ، كما أن هذا **التحضر التابع يصبغ** النظم والسكان والعلاقات الخارجية للبلدان النامية بصبغة التبعيـة ، وتبرز هذه الدراسات أنه بقدر **هامشية الناس** فى الاحيـاء المتخلفة فى هذه الاحياء البعيدة وضآلة اجورهم — التى تكفى بالكاد لشراء الطعـام — بقـدر ما يلجـأون الى بيع قوة عملهم بأقل أجـر ممكن فهم لا يملكون سواها .

والكثير من بلدآن العالم الثالث كأمريكا اللاتينية تعـانى من **تضخم أحياء واضعى اليـد** التى تضم أعدادا كبـيرة من المهاجـرين الريفيين

وحثالة البروليتاريا حيث يجسد الحسينى (٨) كيفية ظهور هـذه الاحياء بالقول انه عندما يبدأ بعض الذين يعيشـون فى أحد الاحياء المتخلفـة فى المدينة الرئيسـية فى تنظيم صفوفهم ويتحـركون كجماعة ألى قطعة من الارض الفضاء التى قد تكون مملوكة للدولة ففى لمح البصر يظهر واضوا البد على تلك الارض ويبنون فوقها المساكن من مواد مؤقتـة ، وفى الوقت الذى تفتقـر فيه هذه الاحياء للخدمات يبذل السكان جهودا شاقة للحصول على اعتراف الدولة بالامر الواقع وهو ما يحدث عادة بمرور الوقت .

٩ — ينجذب المتخصصين فى الانثروبولوجيا الحضرية عادة لدراسة سكان الاحياء المتخلفة ومدن الصفيح وأحيـاء « الجيتو » حيث تتسم هذه الاحيـاء **بعزلتها الاجتماعية النسبية** التى تملى بدورها خصائص سكانية — سلالية أو اقتصادية — محددة وتمنح تلك الخصائص لهذه المنـاطق هوية واضحة المعالم .

وقد ميز البعض أمثال ليفين M. Fried وفريد J. Levin بين أحيـاء « الجيتو » المغلقة حيث تعيش بعض الاقليات كاليهود والزنوج وبين الاحياء المتخلفة التى تضم عادة سكانا قدموا للمدن (الصناعية) من مناطق ريفية ويتمسكون بثقافاتهم الفرعية .

وهذه الاحياء المتخلفة تمثل مجتمعات تحولية يعبر من خلالها السكان الريفيون من مرحلة ما قبل الصناعة الى الحياة الحضرية — الصـناعية المعقـدة ، ويرى ليفين وفريد أن مشكلات **التفكك الاسرى** والبطـالة والمشكلات الاجتماعية والنفسية ومشكلات الاقليات والازدحام السكانى وغيرها تعد من الخصائص المميزة لهذه الاحياء .

١٠ — تكشف الدراسات التى أجريت عن الاطراف المزدحمة والاحياء المتخلفة فى المدن الكبرى عن غياب التخطيط الموجه لتحسـين أحوال سكان هذه المنـاطق ، فقد درس هاندن Handin الاحياء المتخلفة السـكنية السيئة فى بوسطن وأبرز أنه فى الوقت الذى تكاد تغيب فيـه السـياسة الاجتماعية تماما **تتدهور الاحوال** الاجتماعية والاقتصادية فى هذه المنـاطق بصورة ملفتة للنظر .

ويعتقد ليفين Levin وفريد Fried أن لهذه الاحياء المتخلفة المزدحمة بالسكان **وظائف اجتماعية** من بينها أنها تعد سوقا محليا للعمال **ذو المكانة المنخفضة** وغير المؤهلين للمدينة كما أن هذه الاحياء تعد **بوابة الدخول الى المدن ذى التنظيم الحضرى — الصناعى المعقد** حيث يتفشى الفقر — فى هذه الاحياء — الا أنها تتسم بالاستقرار النسبى حيث تبذل محاولات للتوافق الاسرى كنتيجة لضيق ذات اليد وتتاح الفرصة للحراك الاجتماعى التدريجى للقوة العاملة من الريف الى المدينة الصناعية غير أن العديد من سكان هذه الاحياء المتخلفة سيعجزون عن دفع ايجار السكن ويداومون على الانتقال من حى متخلف لآخر نتيجة لضيق ذات اليد .

وبينما يرى جانز Gans فى الاحياء المتخلفة « **قرى حضارية** » يرى البعض الآخر أنها تعد بمثابة « **جزرا حضرية** » تتيح فرصا **للعلاقات الاجتماعية الوثيقة** بين افراد الطبقة العاملة فى المجتمع المحلى المتخلف حيث يتاح لهم — فيها — أن يألفوا الحياة فى المحيط الحضرى الصناعى بينما يرى الفريق الثالث فى هذه الاحياء المتخلفة « **خلجانا للامراض الاجتماعية** » « تضم المهاجرين للمدينة من مستويات طبقية دنيا ولا ينبغى ان يغيب عن اذهاننا أن الاوضاع الاقتصادية والبناء الطبقى يلعب الدور الاساسى فى تشكيل بنية هذه المناطق . وتعد حالة مصر حالة فريدة حقا ، فسكان (اقليم القاهرة الكبرى) الى جانب مدينة الاسكندرية يقدران بأكثر من ربع سكان الجمهورية فى الوقت الحاضر حيث يطلق بعض الثقاة على الاقاليم الحضرية التى تمثل التحام عدة مدن ومدن كبرى معا كاقليم القاهرة الكبرى « **مجتمعات حضرية** » ويرجع هذا التضخم الحضرى الى ارتفاع معدلات الهجرة الريفية وتحذر جانيت أبو لغد من دراسة **المتروبوليتانيات الفرعية** (ألتى تعطى مثالا لها بامبابة والجيزة) كمحاولات مستقلة اذ أن هذه المحلات قد ظهرت نتيجة للامتداد المتروبوليتانى فى القاهرة ولا يمكن بحال من الاحوال فهمها الا فى ضوء هذا السياق .

ويتفق كوستللو Gostello مع أبو لغد وبوترسن Potersen

(*) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء — سكان الجمهورية فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ .

فى أن المهاجرين الريفيين للقاهرة يستقرون عادة فى أطراف المدينة فى الاماكن التى تتمتع بتجانس دينى وعرقى ومعدلات خصوبة عالية وهى مناطق تشبه مناطق الطرد الريفية التى وفدوا منها حيث يساعد المهاجرون السابقون المهاجرون الجدد على التأقلم مع الحياة الحضرية .

ويلفت النظر الى الفروق الحضرية بين الدول فى الشرق الاوسط بقوله أن بعض الدول مثل ليبيا تحارب بالفعل تجمعات المهاجرين على أطراف المدن نتيجة لما يثار عن فاعلية الانتماء الاجتماعى (لهم) فى المناطق الحضرية .

بينما يرى أنه منذ بداية الستينيات شهدت مصر تغيرات هامة لمست المجتمع الريفى والحضرى على حد سواء فى الوقت الذى اتجهت فيه كل التحركات الاجتماعية من مركز المدينة للاطراف حيث يصبح السكان فى الاطراف الحضرية اكثر تجانسا بعكس ما هو الحال فى لبنان (نتيجة لتعدد الأيديولوجيات والصراعات) والطريف حقا أن التاريخ الاجتماعى للقهارة يشهد أن الاطراف كانت تضم المراكز الاقتصادية النشطة كالمدابغ وفابريقات الخل ومعاصر الزيوت والمغازل والمناسج تحيط بها مناطق سكنية تعيش فيها الشرائح الفقيرة المجهدة .

ثانيا : الدراسة الحقلية :

ينهض هذا الجزء من المقال الراهن على بعض نتائج خرج بها الباحث من دراستين حقليتين طبقت فيهما الادوات ذاتها وهى صحيفة المقابلة (الاستبيان) فضلا عن المقابلات الحرة والملاحظة على مجتمعين محليين من مجتمعات الاطراف المزدحمة التى يضمها اقليم « القاهرة الكبرى » وأول هذه المجتمعات المحلية منطقة شبرا الخيمة ويقع شمال العاصمة كامتداد لحى شبرا الاهل بالسكان وقد اختيرت (عزبة عثمان) فى شبرا الخيمة مسرحا للدراسة الحقلية وهذه العزبة هى منطقة سكنية تتصل بمدينة القاهرة بواسطة كوبرى علوى (أحمد عرابى) بينما تمتد العزبة (عرضا) حتى تتصل بغيرها من قرى محافظة القليوبية .

هذا بينما يقع ثانى هذه المجتمعات المحلية المدروسة وهو حى

« بولاق الدكرور » غرب العاصمة كمنطقة وسيطة تربط امبابة بمدينة الجيزة وبغيرها من القرى القريبة التابعة لمحافظة الجيزة .

ولا يخفى على الدارس للمنطقتين أن المجتمعين المحليين استقرا بمساكنهما ومؤسساتهما ومرافقهما على الرقعة الخضراء التى كانت مخصصة قبلا للزراعة قبل أن تزحف العاصمة على هذه الاجزاء وتضمها نتيجة للزيادة السكانية التى تفوق المعدل المتوقع ونتيجة للهجرة الريفية الى الحضر وبخاصة من المحافظات القريبة .

وقد تمت دراسة عزبة عثمان بشبرا الخيمة فى الفترة من يناير حتى مارس ١٩٨٤ بينما تمت الدراسة الحقلية الثانية فى الفترة من يناير حتى ١٩٨٥ (*) وكان مجموع أسر عزبة عثمان ٣٥٠٠ أسرة أختيرت عينة منها على أبعاد منتظمة بنسبة قدرها ٢٠٪ من المجموع الكلى حيث بلغ عدد الاسر ٧٠٠ أسرة تم دراسة ٦٧٦ أسرة منها بنسبة تقدر بـ ٩٦٫٦٪ من حجم العينة المراد دراستها بينما بلغ عدد الاسر فى بولاق الدكرور حدا من الضخامة اضطر الباحث معه الى تحديد قطاعا كبيرا يتوسط المجتمع المحلى تماما بين شارع على اسماعيل وشارع ترعة زينين حيث بلغ عدد الاسر فى هذه المنطقة ٦٣٢٥ أسرة تم تحديد الاسر المدروسة منها على أساس ٢٠٪ من مجموع الاسر أو ١٢٦٥ أسرة تم دراسة ١٢٣٩ أسرة منها بنسبة تصل الى ٩٧٫٩٪ من العينة المطلوب دراستها ، وقد استخدمت صحيفة مقابلة (استبيان) موحدة مكونة من ٦٠ سؤالا لتسهيل المقارنة بين المجتمعات المحلية موضوع الدراسة بينما كانت المقابلة الشخصية تتم عادة فى مثل المبحوث حيث كانت الوحدة السكنية تختار على أبعاد متساوية (١ ، ٥ ، ١٠ ، ... الخ) فى منطقة شبرا الخيمة بينما درست كل أسر المنطقة المختارة والتى تمثل قلب حى بولاق .

وقد اكتفينا فى السطور التالية بطرح النتائج العامة لتأكيد بعض المعطيات النظرية أو المقارنة بين المجتمعين المحليين ، بينما أرجانا الدراسة الفصيلية الى مؤلف لاحق بعون الله . ومن شأن العرض الذى بين أيدينا فى الورقة الراهنة اثراء الحوار حول الاطراف الحضرية ووظائفها الاجتماعية فى أحد المجتمعات الحضرية فى العالم الثالث هو اقليم القاهرة الكبرى .

(أ) الخصائص الديموجرافية :

ان أول ما يسترعى نظرنا هنا ان معظم ارباب الاسر فى المجتمع المحلى الاول (عزبة عثمـــان) والثانى (بولاق الدكرور) من **الشباب الذين تقل اعمارهم عن ٥٠ عاما** (٧٠٫٩ فى عزبة عثمـــان و ٦٤٪ فى بولاق) ويعنى هذا أنهم فى عنفوان قوتهم الانتاجية وأنهم فى حالة الهجرة للعاصمة ينزحون اليها عادة فى سن صغير نسبيا حيث يستقرون فى الاطراف ، وقد أوضحت الدراسة الحقلية للمجتمعين المحليين ان معظم أفراد العينتين **لا يتعـــدى تحصيلهم الدراسى المرحلة الابتدائية** ، وبعبـــارة اخرى فان نسبة اميـــة ارباب الاسر المدروسة بلغت ٢٧٫٧٪ فى عزبة عثمان بالمقارنة بـــ ٤٠٫٩٪ فى بولاق ويعنى هذا أن ثمة تفوقا ملحوظا فى الفرص التعليمية — التى تزيد عن مرحلة التعليم الالزامى — فى بولاق أكثر منها بالنسبة لعـــزبة عثمان بينما يزيد معـــدل الامية فى بولاق عنـــه فى شبرا الخيمة . كما أن معظم افراد العينة **يدينون بالاسلام** (٩٠٫٥٪ من عينـــة عزبة عثمان و ٩٤٫٨٪ من عينة بولاق ، وهى نتيجة تكاد تتمشى مع التناسب العددى بين المسلمين والمسيحيين فى الاحصاءات المختلفة على مستوى الجمهورية .

وقد أوضحت دراسة المجتمعين المحليين أن اكثر من نصف مجمـــوع العينتين المختارتين قد **هاجروا من محافظات اخرى** وان الغالبية الساحقة تنتمى الى أصول ريفية .

ومع أنه كان من المفترض أن يتجه المهاجرون من « الوجه القبلى » الى بولاق ويتجه المهاجرين من الوجهالبحرى الى شبرا الخيمة فان النتائج التى بين أيدينا قد أوضحت أن معـــدلات المهاجرين من الوجه البحـــرى والقبلى تكاد تتساوى فضلا عن أن أزمة الاسكان فى القاهرة قد دفعت بالكثيرين ممن ضاقت بهم سبل العثور على مسكن الى اللجـــوء للاطراف مبتعدين — رغما عنهم — عن الاحيـــاء التى شهدت طفولتهم وشـــبابهم المبكر ، ويعنى هذا — من بين أشياء أخرى — أن الوضع الراهن الذى أسهم فى تكوين هذه الاطراف — التى تكاد تضيق ذرعا بسكانها — لا يرجع فقط للهجـــرة المستمرة اليها من المحافظات الاخرى بقدر ما يرجع كذلك الى الامتداد الحضرى للمدينة المتروبوليتانية نفسها لضم هذه المنـــاطق حيث تتحول بدورها الى محلات مزدحمة كما أن **هجـــرة « القـــاهريين » انفسهم للسكنى فى الاطراف** نتيجة لتخمـــة الاحيـــاء الاصلية وازدحامها

بالسكان يؤدى الى سرعة تحضر هذه الاطراف ويزيد من سبل الاتصال بينها وبين الاحياء الاخرى فى المدينة المتروبوليتانية . وقد اتضح ان ابرز مبررات الهجرة للعاصمة تتمثل فى البحث عن عمل ووجود فرص طيبة وهذا يعنى من ناحية اخرى أن الاماكن الطاردة للقوى العاملة كانت تفتقر بدورها لهذه المميزات كما أن من الدوافع الاساسية للاستقرار فى هذه الاطراف **تشجيع الاهل والبلديات** ممن يسكنون بها منذ وقت طويل فضلا عن سهولة العثور على مسكن والقرب من محل العمل وقد بلغت نسبة هذه المتغيرات (مجتمعة) ٨٤٫٥٪ فى عزبة عثمان و ٨١٫٥٪ فى بولاق الدكرور .

(ب) المسكن فى الاطراف :

اذا كانت الحضرية تعنى عند ويرث Wirth — من بين اشياء اخرى — البعد الجغرافى بين محل السكن ومحل العمل فان نتائج الدراسة قد اوضحت انه من بين كل خمسة اشخاص يعيشون فى عزبة عثمان يعمل نحو ثلاثة منهم **خارج المنطقة** بينما يعمل منهم نحو اربعة اشخاص من سكان حى بولاق كذلك خارج المجتمع المحلى ، ولا يشكل ذلك صعوبة تذكر اذ أن وفرة المواصلات فى المدينة ورخصها تقلل عادة من مشاكل البعد الجغرافى بين محل السكن ومكان العمل ،والجدير بالذكر أن الشوارع والحوارى الجانبية فى كلا المجتمعين المحليين ضيقة — نتيجة لغياب التخطيط فى الكثير من الاحيان — بينما تبدو المساكن القديمة غير متآلفة او منسجمة مع باقى المنازل التى نصطف معها على الجانب نفسه ويبدو أن معظم المساكن القديمة فى الاطراف قد وجدت قبل التفكير فى دخول هذه المناطق ليحتويها « كردون المدينة » فتتحول بدورها فى النشاط الزراعى وتصبح مناطق حضرية **مكدسة بالسكان** تجسد التحضر السريع الذى يفتقر للمؤسسات الانتاجية والخدمية ويشوه المدن المتروبوليتانية بأكثر مما يعمل لصالحها . غير انه من المفيد ان نذكر أن الغالبية الساحقة من العينتين المدروستين فى المجتمعين المحليين تقطن فى **مساكن مشيدة بالطوب الاحمر** ومستوفة « بالمسلح » حيث يختلف هنا وضع مناطق الاطراف عن مناطق « الحكر » التى تتكون عادة من بيوت تبنى على أراضى للدولة او مؤسساتها — من الطين او الخشب او الصفيح فى الكثير من الاحيان — حيث تتناثر هذه المناطق « الحكر » فى مداخل وخارج نخوم المدينة .

وقد افصحت الدراسة الحقلية عن انه من بين كل اربعة اشخاص تضيق (صدور) ثلاثة منهم بمشاكل الحى **ويتطلعـــون الى الحياة فى مناطق اخرى** (معظمها من الاحياء غير الطرفية *) وهى من وجهـــة نظرهم « احسن كثير من هنا » فقد افاد ٧٣٪ فى عزبة عثمان ، و ٧٢ر٢٪ فى بولاق بانهم يفضلون الاقامة فى احيـــاء اخرى ومصدر الشكوى من الحى الذى يستقرون فيه حاليا يتبدى فى **نقص الخدمات والمرافق** (التعليمية — الصحية — الترفيهية — المواصلات ... الخ) ، وتصـل نسبة من صرحوا بذلك الى ٨٦٪ فى عزبة عثمان فضلا عن ســوء الخدمة فى المرافق وسوء حالة المساكن **وانتشار الجـرائم** (التى تشـكل ٨٤ر٧٪ فى عينـة بولاق) ، والملفت للنظر ان نسبة لا بأس بها من مساكن الاطراف محرومة من ابسط الضرورات اذ ان ٨ر٤٪ من مساكن عينة العـزبة و ٤ر٥٪ من مســاكن بولاق محرومة تماما من توفر دورات المياه ولك ان تتصـور كيف يقضى الرجال والنساء والاطفال حاجتهم الطبيعية كما ان ٤ر٦٪ من مســاكن العـزبة و ٢ر٦٪ من سكان عينة بولاق لا توجـد بها مجارى مما يؤدى الى طفح المياه بصورة سيئة داخل المنـازل ويؤدى ذلك لانتشار الامراض، فى الوقت الذى تفتقـر فيه ٢١٪ من مساكن العـــزبة ، و ٢ر١٠٪ من مساكن بولاق للمياه النقية .

ومن الملفت للنظر كذلك ان نسبة لا يســـتهان بها من عينة البحث تصـــل الى ٢ر١٣٪ فى عزبة عثمان و ٣ر٩٪ فى بولاق تقطن فى شـقق مشتركة مع آخرين كما ان ٢٧ر٢٤٪ من مساكن العـــزبة مقابل ٧ر٣٥٪ فى بولاق مملوكة للسكان وهى نسبة لا بأس بها تدل على أن هؤلاء الملاك عادة من بين ابناء المنطقة « الاصليين » ولا تزيد هذه المساكن من أن تكون مساكن صغيرة الحجم وقديمة . ومع هذا فمن اليســير ان نتتبع السمات الحضرية فى الاطراف اذ ان معظم المساكن تتوفر بها الاجهـزة الكهـربائية الحديثة كالثلاجات والغسالات واجهزة التسـجيل ، فلدى ٤ر٥٤٪ من مســاكن شــبرا ، ٩ر٨٠ ٪ من مساكن بولاق توجـد الغســالات كما انه لدى ٧ر٨١٪ من مساكن العـزبة فى مقـابل ٩٠٪ من مساكن عينـــة بولاق تتوافر أجهزة البوتاجاز ، وفى ٢ر٦١٪ من مساكن العـزبة فى مقابل ٧١٪ من مساكن بولاق توجد اجهـزة تسجيل ، ولدى ٤ر٩١ من عينـــة عزبة عثمان فى مقـابل ٣ر٨٥٪ من مساكن بولاق تتوفر اجهزة التلفزيون .

(*) أى الاطراف .

وقد ذكر ٨٨ر٦٪ من ارباب الاسر فى العزبة ، و ٦٨٪ من ارباب الاسر فى بولاق بأن لديهم اقارب يقطنون فى الحى نفسه او فى الاحيـاء المجاورة وهو ما يعطى انطبـاعا بان المهاجرين للمدينـة يكونون حلقـة جاذبة لاقربائهم حيث يسكن الآخرون عادة فى المنطقة نفسها واحيانا الحارة نفسها والمنزل نفسه ويشكلون معـا « **نوايات فرعية** » تقترب فى طبيعتها وهويتها الثقافية من « النوايات الاساسية » الطاردة لهم ، الامر الذى يعـد معطلا لعملية الذوبان فى المدينة وهم يتزاورون مع الاهـل والاقارب والبلديات بصفة مستمرة ولا تتعدى فترة الانقطاع عن التزاور عادة شهرا بأكمله (٢ر٤٩٪ لسكان العزبة ، و ٨ر٦٦٪ لسكان بولاق) (١٧) .

٣ — الاسرة فى الاطراف :

اتضح ان معظم ارباب الاسرة فى المجتمعين المحليين من **المتزوجـين** (٩ر٩٦٪ فى عزبة عثمان و ٥ر٨٩٪ فى بولاق) والاسرة سواء فى المجتمع المحلى الاول او الثانى اسرة زواجيـة كما ان معظم المتزوجين فى المجتمع الاول من المقترنين **بزوجة واحـدة** ، وتبلغ النسبة ٩ر٩٥٪ من مجمـوع المتزوجين فى المجتمع المحلى الثانى ٢ر٨٥٪ ، وليس هناك شك أن النمط الزواجى (النووى) الذى يعيش فيه الزوج مع زوجة واحدة واولادهما يعد اكثر مسايرة للظروف الاقتصادية فى المجتمع الصناعى والحضرى (١٨) بينما يزداد الاحساس بوطأة الزواج الثانى وانجاب اطفال آخرين غير أنه من المفيـد أن نذكر فى هـذا المجال أن الاسرة فى المجتمعين المحليين هى اسرة يقل عدد اولادها عادة عن خمسة اطفال ، ومع هذا فان ٦ر٣٧٪ من اسر عزبة عثمان ، ٧ر٣٢٪ من اسر بولاق يبلغ أطفالها ٥ اطفال فأكثر فاذا تصورنا أنه من بين كل ثلاث اسر تنجب اسرة منها على الاقل خمسة اطفال فأكثر فى مجتمعات الاطراف لوضحت لنا حقيقة الوضـع القـائم ، والجدير بالذكر كذلك أن الكثير من مساكن الاطراف التى يقطن فيهـا افراد المجتمع المحلى الاول تتكون عادة من حجـرة او حجرتين حيث تصل هذه النسبة الى ٦ر٥٩٪ بينما تصل الى ٧ر٥٤٪ فى بولاق . ومع هـذا فان كثرة الاولاد مع صغر سن الزوجين واحتمال الحمل (المتكرر) للزوجة قد دفع ٢ر٧٢٪ من مجموع الاسر فى العزبة ار٧٠٪ من اسر بولاق الى **استخدام الوسـائل المختلفة لتنظيم الاسرة** ، (وهى نسبة كبيرة الحجم نسبيا تزيد عن النسبة التى تنظم الاسرة على مستوى الجمهورية وان كنا نبـدى تحفظـا على زيادة معـدلها هنا فالواقع أن الاسر تبـالغ عادة

فى الادعاء باستخدام هذه الموانع) ولا يمكن تفسير ذلك الا فى ضوء الاسباب التى أبدتها الاسرة نفسها ، فقد برزت الاسباب الاقتصادية والصحية كدوافع للتنظيم ويعنى أولهما أن الاسرة تقدر التكلفة الاقتصادية للضيف القادم كما تعلن صراحة عجزها عن الوفاء بهذه الالتزامات ، أما المتغير الثانى فيعنى أن حمل الزوجة يشكل تهديدا لصحتها وقد بلغت نسبة هذين المتغيرين معا فى عزبة عثمان ٤ر٥٥٪ بالمقارنة بـ ١ر٦٦٪ فى حى بولاق ، والملفت للنظر أن نسبة لا بأس بها تصل الى ثلث مجموع الزوجات فى المجتمع المحلى الاول هن من الاقارب .

ويميل معظم أرباب الاسر فى الاطراف الى **قضاء وقت الفراغ مع اسرهم** ومع أن هذا يعنى أن الاسرة متماسكة نتيجة للانسجام والمودة (١٥) مما يعنى مزيدا من الاهتمام بالتنشئة الاجتماعية للابناء فهو يعنى كذلك أن الاسرة تقنع بالجلوس فى المنزل لمشاهدة التلفزيون او تخرج للنزهة او لزيارة الاقارب توفيرا للنفقات التى يمكن أن يتكبدها رب الاسرة فى حالة الجلوس على المقهى أو الخروج بصحبة الاصدقاء والزملاء ، وتصل نسبة هؤلاء فى عزبة عثمان ٦ر٧٧٪ وفى بولاق ٤ر٨١٪ وقد أفاد ٢ر١٤٪ من أرباب الاسر فى بولاق بأن هناك مشاكل أسرية بينهم وبين الزوجة أو الابناء أو الوالدين ، وأتضح أنهم يلجأون عادة للاصدقاء والاقارب للمساعدة فى التغلب على هذه المشكلات ، وفى عزبة عثمان يستشير الشخص عادة الاصدقاء والمعارف والجيران لمواجهة المشكلات الاسرية أو المشكلات الشخصية التى تواجهه .

٤ — الحالة المهنية والدخل :

اذا تتبعنا الحالة المهنية التى يعمل المبحوثون بها فى المجتمعين المحليين موضوع الدراسة لاتضح لنا أن غالبية أفراد القوة العاملة فى الاطراف يعملون بالمهن اليدوية والفنية (البسيطة) والمهن الكتابية والتجارة ونسبتها معا ٩ر٨٠٪ فى عزبة عثمان (شبرا الخيمة) بالمقارنة بـ ٦ر٧٧٪ فى بولاق ، وتفصيل هذا التصنيف المهنى كالآتى :

نوع المهنة	عزبة عثمان	بولاق
المهن اليدوية البسيطة	٢٣ر١	٢٧ر٨
المهن الفنية	٢٧ر٤	٢٢ر٤
التجارة	١٢ر٢	١٣ر٣

وغنى عن القول أن معظم أفراد العينتين ممن يعملون **بالمؤسسات الصناعية والخدمية** (بالقطاع العام والخاص) حيث يعملون بها **كعمالين أو عمالا غير مهرة** كما أنه من الشائع — لظروف الهجرة العمالية للقوة العاملة المدربة الى الدول النفطية أن تعطى هذه المؤسسات للعمال الذين يشغلون مكانات دنيا فرصة الحراك المهنى — اذا أحست بجدية العامل وسرعة استيعابه — الى المهن الفنية (البسيطة) ، وقد لاحظ الباحث أن مصانع النسيج والزجاج بشبرا الخيمة ومصانع تعبئة المياه الغازية بالدقى والدخان بالجيزة تستوعب الكثير من العمال ، حيث اتضح أن نحو ٢٥٪ من عينة بولاق ممن يعملون بهذه المؤسسات الصناعية بالفعل .

وقد أوضحت نتائج الدراسة أن نسبة تصل الى ٧ر٥ من عينة عزبة عثمان ، و ١٢ر٣ ٪ من عينة بولاق من المشتغلين بمهن « اضافية » بعد مواعيد العمل الرسمية ، ويعنى هذا من جهة أن الدخل الاصلى قاصر على سداد الالتزامات الحياتية غير أنه يعنى من جهة اخرى أن التطلعات فى المدينة لا تقف عند حد ، ومع هذا فنحن نبدى شكوكنا فيما يتعلق بمثالة هذه النسب التى يفترض أن تزيد عن ذلك .

وغير خاف أن سكان هذه الاطراف المزدحمة ينتمون كذلك لآباء يعملون عادة بالحرف البسيطة التى تضم الزراعة والتجارة الصغيرة المحدودة

والاعمال اليدوية والفنية البسيطة اذ يبلغ مجموع هذه النسب مجتمعة٧٨ر٥٪ فى عزبة عثمان و ٧١ر٦٪ فى بولاق وهذا يعنى بدوره أن الأبنـاء قد ورثوا من الآباء المهن نفسها (باستثناء الزراعة) ومما يساعد على ذلك انخفاض مستوى الابناء التعليمى ونقص كفاءتهم وتدريبهم المهنى ، ومن الشواهد على ذلك أن ٣٨ر٧٪ من الآباء فى عزبة عثمان كانوا ممن يعملون بالزراعة ولا يدع هذا مجـــالا للشك أن الزراعة كانت من بين الانشطة الرئيسية فى الاطراف الى المدينة (ويزداد معدل تحضرها) كما يعنى ذلك ايضـــا أن الذين هاجروا للمنطقة من مناطق ريفيـــة كانوا ينتمون لآباء يشتغلون بالزراعة ويعانون بدورهم من البطـــالة والبطالة المقنعة (٢٠) .

ويفصح توزيع دخل الاسرة على بنود الانفـــاق المختلفة من مسكن ومزاج وتعليم ومواصلات وغيرها عن أن **الطعام يستنزف القدر الاكبر من دخل الاسرة** اذ أن ٧٠٪ من عينـــة عزبة عثمان ينفقون نصف دخولهم فأكثر على الطعام وحده اى أن الطعام يستهلك الجزء الاكبر من دخولهم كما أن ٩٠ر٢٪ من عينـــة بولاق تعـــانى من المشـــكلة نفســـها ، وغير خاف أن الاجور فى المؤسسات الصناعية بشبرا الخيمة تعد أفضل (قليلا) من مثيلتها التى يحصل عليها ارباب الاسر فى بولاق غير أن هذه النسب الكبيرة من ارباب الاسر فى الاطراف التى تكاد تنفق معظمدخولها على لقمـــة العيش فحسب ، تجسد مأساة حقيقية ، ومن الطبيى ان ينخفض ما تتكبـــده الاسرة من نفقات على المسكن والمواصلات العامة فى الاطراف بصـــورة لا تتعـــدى عادة ربع الدخل الشـــهرى (٢ر٨٨ ٪ فى عزبة عثمـــان ، ٧٦ر٨ ٪ فى بولاق) غير أنه ليس بخاف أن ما تنفقـــه الاسرة على التعليم وحده (المصروفات والادوات المدرسية والدروس الخصوصية والمجموعات الدراسية) يكاد يلتهم جزءا كبيرا من دخل الاسرة فى الاطراف ناهيـــك عن النفقـــات المخصصة لاستهلاك الميـــاه والكهرباء والكيروسين والبوتاجاز وغيرها فضلا عن تكاليف الملبس والمزاج ونفقات العلاج والترفيه وغيرهما ، ومع ذلك فقد أجاب ٨ر٢٢٪ من أسر عزبة عثمان و ٨ر٢٠٪ من أسر بولاق بأنهم يتمكنون عادة من الإدخار من دخـــولهم ومن أن الادخار هنا « نسبى » ويتفاوت من أسرة لاخرى ومن شهر لآخر كما يخضع للعديد من الاعتبارات الا أنه مما لا شك فيه أن هذه الاسر لا تستدين — على أقل تقـــدير — من الآخرين ، بينما يمكن أن تهدد الفاقة غيرها من الاسر التى ليس لديهـــا أدنى رصيد مادى أو مدخرات .

٥ — الضبط الاجتمـــاعى :

الحياة فى الاطراف ليست بالقطع حياة بسيطة فالاقتراب من المدينـــة يصبح عادة مصدرا للمتاعب وبخاصة لأولئك الذين الفـوا حياة القـرية بل ان المتواتر أن المدينة تصـدر عادة للاطراف المزدحمة والاحياء المتخلفة العـديد من **المشكلات والامراض الاجتماعية** ، ونظرة خاطفـة الى قائمة الجرائم المنتشرة فى هذه الاطراف توضح هذه الحقيقة حيث تتصدر قائمـة الجرائم المنتشرة فى شبرا الخيمـة **المشـاجرات** حيث تتلاصـق المساكن ويزداد هرج الاطفال مما يؤدى للاحتكاك المستمر ويتم التشـابك بالعصى واستخدام الآلات الحـادة وبخاصة اذا كان سبب المشاجرة يتصـل بما يمس الشرف أو يخدش الحيـاء ، وتأتى السرقة فى المرتبـة الثانية ثم النشل ثم ادمان المخـدرات فالقتـل **والاغتصـاب** ، وفى بولاق تحتـل المشاجرات المرتبة الاولى ينها السرقة ثم المخدرات ومن بعـدها النشـل فالقتل ثم **الاغتصاب** .

أما عن أساليب الضبط الاجتماعى المتبعـة فى المجتمعين المحليين **فان اللجوء للشرطة (الضبط الاجتماعى الرسمى) يحتل المركز الاول ،** ومن بعده اللجوء للناس (الجيران — الاصدقاء) ، ومن بعـد ذلك كبـار السن ممن يستدعون للتدخل فى هذه الحالة ويحتلون المركز الأول ، ومن بعدهما رجال الدين ، وقد ظهر الى جانب ذلك اللجـوء لاعضاء الاحـزاب فى بولاق كوسيلة من الوسائل التى يلجـأ اليهـا أفراد مجتمع الاطراف فى حالة حدوث الجرائم والرغبة فى مواجهة الانحرافات داخل الحى المزاوجة بين الحـلول الرسمية وغير الرسمية ، وقد يرجع سبب اللجـوء للشرطة الى أن هذه الاطراف تضم العـديد من البشر الذين ينتمون لثقافات مختلفة أو نزحوا من مناطق شتى .

٦ — القيم والاتجـــاهات :

حين ســأل الباحث المبحوثين عن اتجاهاتهم نحو بعض القضـ ايا الحياتية للتعرف على أبعـاد نسق القيم السائد فى الاطراف (من خـ ـلال استمارة الاستبيان والمقابلات الحرة) توفرت بعض الاستخلاصات التى يمكن الاسترشاد بها فى هذا الشـأن حول السلوك الانجـابى وجاءت استجابتهم اللفظية تؤكد عدم تفضيلهم لأحد النوعين (الذكور والاناث) قبل ولادة الزوجة على الآخـر ، ومع أن هذه الاستجابة تحمل فى طياتها

قدرا متوقعـا من (القـدرية) حيث يعجـز الانسان عن التحكم فى نوع الجنين كما تحمل قناعة تكشف عن التسـاوى بين النوعين فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية الا أن هذه الاستجابة اللفظية تبدو مخالفة لتوقعـاتنا اذ أن نسق القيم التقليـدى لا يزال وراء **تشجيع انجاب الذكور** ، وهناك نسبة ضئيلة فى الاطراف لا تكاد تتعـدى ١٠٪ من مجموع أفراد العينـة فى المجتمعين المحليين **تعارض بشـدة الاستمرار فى تعليم الفتـاة بعـد مرحلة التعليم الالزامى** غير أن اثنين من كل خمسة اشخاص قد عارضـوا اشتغال الفتاة أو وضعوا شروطا تقيد حراكها المهنى، ولعل ابرز هـذه الشروط ان على المرأة أن تعمل فى مجالات بعينها تتمشى مع طبيعتهـا الانثوية كالتدريس والتمريض وترفض الميادين الاخرى تماما .

هذا بينما أبدى ٤٧ر٥٪ فى عزبة عثمان و ٤٩ر٢٪ فى بولاق اعتراضهم على اشتغال المرأة بالسياسة وترشيحها فى الانتخـابات العامة ، ويعنى هذا ببساطة شديدة أن العمل السياسى من شأن الرجال وحدهم اما المرأة فانهم ينكرون عليها الانشـغال به فهى والحال كذلك اقل كفـاءة من الذكر ولا ينبغى أن توضع القضايا المصيرية للمجتمع فى أيديهم .

وغير خاف أن الاطراف تعـد مسرحا خصـبا **للغيبيات** فالسـحر والحسـد من بين المعتقـدات الاساسية ويلجأ الناس الى اقامة جلسات الزار لعلاج الامراض العصبية والنفسية كما أن للممارسات الدينيـة وجلسات الذكر مكانة واهمية كبيرة للنجاح فى الحياة الدنيا والآخـرة فى نظر الناس .

٧ — المشـاركة الاجتمـاعية :

ان رؤية سكان الاطراف للمشاركة الاجتماعية من الامور التى تدعـو الى التمعن ، فالناس بصفة عامة لا يرحبون بالمشاركة الاجتماعية فى مناشط هذه المجتمعات المحلية (التى تجمع الناس من كل مكان) وهكذا تبدو الاطراف غاصة بالاغراب وبينما تكاد عقبـات التنمية تتبلور فيما يخصـون عنـه من مظاهر النقص الشـديد فى المؤسسات والمرافق الانتاجية والخدمية — أو سـوء الخـدمة — بصورة تقلل من فاعليتها أو جدواها فانهم ينتظرون

عادة أن تهبط عليهم الاصلاحات وأن تزال العقبات « حتى تنصلح الاحوال » فعدم توافر المركبات العامة وعدم رصف الشوارع وعدم توفر المجارى بالمنطقة يستلزم كسح المخلفات والفضلات من المازل والشوارع بصفة مستمرة ، وانتشار المياه القذرة الراكدة فضلا عن اكوام القمامة فى كل مكان يهددالسكان بانتشار البعوض والامراض الوبائية كما ابتليت منطقة بولاق فضلا عن ذلك بعدم وجود كوبرى علوى يربط المنطقة بحى المهندسين مما يضطر الاهالى لعبور خط السكة الحديدية معرضين أرواحهم لخطر القطارات والحوادث المترتبة عليها .

وقد طرح سؤال للتعرف على مدى استعداد الناس للمشاركة فى حل مشكلاتهم التى تقف عقبة فى وجه التنمية المحلية فأفاد ٣٦ ٪ من مجموع أفراد عينة عزبة عثمان بأن على الدولة وحدها يقع عبء معالجة مشكلات المجتمع المحلى والنهوض به فى مقابل ٤٢ر٢٪ فى حى بولاق بينما ذكر ٢٦ر٩٪ فى العزبة بأن عليهم وحدهم « على عاتق الناس أنفسهم » يقع عبء التنمية المحلية فى مقابل ٩٪ فقط فى بولاق ، ويأتى اخيرا الحل — الاكثر واقعية المتمثل فى أن على الدولة والناس معا يقع عبء التنمية ، وتشكل هذه النسبة ٢٣ر١٪ مقابل ٤٨ر٨٪ فى بولاق وقد طرحت هنا فكرة مخاطبة الجهات المسئولة بالاضافة الى جمع التبرعات من أهالى المنطقة (٢٣) .

وقد اتضح أن نسبة لا تكاد تتعدى خمس أفراد العينة فى المجتمعين تشارك فى **جمعيات اختيارية** وهذه الجمعيات هى اما جمعيات (اجتماعية) تؤدى لهم خدمات فى المناسبات المختلفة كالوفاةوالمرض والعجز والشيخوخة وغيرها ، وتصل هذه المشاركة الى أدنى حد لها فى عضوية الاحزاب السياسية . أما عن المشاركة فى الانتخابات العامة فان معدل الذين يشاركون عادة فى الانتخابات لا يتعدى ٤٧ر٤٪ فى بولاق ويعنى هذا ببساطة أن أكثر من نصف سكان الاطراف لا يشاركون مطلقا فى التصويت على القرارات المصيرية الخاصة بالمجتمع القومى .

وغير خاف أن **الامية وغياب الوعى يقفان وراء ظاهرة اللامبالاة والعزوف عن المشاركة السياسية** بالصورة التى تشير اليها هنا والملفت للنظر كذلك أن من اسباب عدم المشاركة فى الانتخابات بالنسبة لـ ٩٥٪

من مجموع أفراد العينة من أرباب الاسر فى عزبة عثمـــان عدم الدراية وظروف العمل حيث تقف هذه المبررات وراء نقص المشاركة الســياسية بينما أجاب الاشخاص المشاركون بأنهم يؤيدون عادة انتخاب الشـــخص المتعـــلم (تعليما عاليا) والذى يحظى بمكانة اجتماعية عاليـــة ، ومن الطريف أن البعض يضيفون (الى هذه الخصائص) الثراء والتدين كصفات لابد من توافرها فى القائد أو الزعيم السياسى .

ثالثـــا : الوظيفـــة الاجتماعية للاطراف :

تفصح النتائج التى أفرزتها الدراسة الحقلية عن أن الاطراف تؤدى مجموعة من الوظائف الاجتماعية نبرزها فيما يلى :

١ — تضم مجتمعات الاطراف عادة **ثلاث شرائح من السكان :**

(أ) **الشريحة التى نشأت أصلا فى المجتمع المحلى** حين كان النشـــاط الاقتصادى فيه ينهض على الزراعة وقبل أن تزداد فيه اليد الطولى للمدينة المتروبوليتانية ليصبح أحد تخومها أو أطرافها فيستوعب بالتبعية أعـــداد هائلة من قوتها العاملة .

(ب) **الشريحة التى هاجرت من محافظات اخـــرى** — فى الوجهين القبلى والبحرى — لاسيما من المحافظات القريبة حيث تنتمى غالبيـــة هذه الاسر الى مناطق ريفية طاردة للسكان نتيجة لنقص فرص العمل بها .

(جـ) **الشريحة « القاهرية »** النشأة التى قذفت بها المدينة للاطراف نتيجة لفشلها فى العثور على المسكن فى الاحياء التى تعيش فيها .

٢ — ان العلاقات الاجتماعية فى الاطراف علاقات وثيقة (حتى وان احتدام الخلاف بينها أحيانا) سواء بين الاسر التى تعيش داخل المجتمـــع المحلى أو بين هذه الاسر وأقاربها ومعارفها فى مجتمعات محلية اخـــرى داخل أسوار المدينة المتروبوليتانية او بين هذه الاسر والبلديات والمعـــارف فى القرى التى نزحوا فيها وهذا ينفى عن سكان الاطراف شـــبهة العـــزلة والعلاقات السطحية هذه الآراء التى طالما رددها علماء الاجتماع الحضرى « الكلاسيكيون » .

٣ — الاسرة فى الاطراف اسرة زواجية تعد الانجاب احد اهم وظائفها فالزوجة عاده لا تعمل خارج المنزل ولكن الاسر لاسباب اقتصادية او نتيجة لاعتلال صحة الزوجة تستعين عادة بالوسائل الصناعية لتنظيم الاسرة وبينما يرحب الشباب فى الاطراف بالزواج من اقارب فان اسرة الاطراف يسودها التماسك عادة بينما يتدخل الاهل والاصدقاء والجيران سريعا لحسم أى خلافات فى المحيط الاسرى وينفى هذا بدوره عن اسر اطراف المدينة شبهة التفكك والتصدع الاسرى واهمها عملية التنشئة الاجتماعية وقد يحدث الاهمال فى الرعاية نتيجة لتزايد عدد الاولاد وليس نتيجة لعزوف الاسرة عن القيام بوظائفها الاساسية .

٤ — تتميز مجتمعات الاطراف بأنها مجتمعات شابة تزداد فيها الاعمار الوسطى فضلا عن صغار السن (ممن تقل اعمارهم عن ١٥ سنة) غير أن ارتفاع معدل الامية وانخفاض الرعاية الصحية ونقص التدريب المهنى يستتبعه انخفاض الدخول نتيجة لامتهان القوة العاملة للمهن اليدوية والفنية البسيطة .

٥ — رغم أن بعض اطراف المدينة المتروبوليتانية (مثل مجتمع شبرا الخيمة) يزخر بالعديد من المؤسسات الصناعية التى بدأ استقرارها منذ نهاية الحرب الثانية الا أن بعض الاطراف الاخرى (مثل مجتمع بولاق) لا يكاد يشهد وجود مثل هذا الحشد من المؤسسات الصناعية غير أن القوة العاملة فى الاطراف تحتل عادة **قاع السلم المهنى** فى هذه المؤسسات الصناعية .

ويعمل غالبية افراد القوة العاملة فى الاطراف خارج مجتمعات الاطراف نفسها حيث تتوفر المواصلات العامة السريعة والزهيدة التكاليف ويبدو أن عامل الاطراف لا يهمه كثيرا مدى قرب أو بعد مكان العمل عن محل السكن بل انه يهتم بالاكثر بالحصول على العمل المناسب ذو الاجر المرتفع لاعالة اسرته .

٦ — تتيكن الاسرة عادة فى مجتمعات الاطراف من الحصول على المسكن ذى القيمة الايجارية المناسبة لامكانياتها الاقتصادية كما أن معظم

المساكن تستعين بالاجهـزة الكهربائية الحـديثة كالثلاجة والغســـالة والتلفزيون التى تشتريها عادة بالتقسيط أو من خلال ادخار ثمن الجهـاز المطلوب شراؤه .

٧ — ان مجتمعات الاطراف التى تمتد يد المدينة المتروبوليتانية اليها لتضمها تعـد محرومة فى الوقت نفسه — نتيجة لغيـاب التخطيط — من المرافق والخدمات العامة — صحية وتعليميةوترفيهية وغيرها — كما تعانى هذه المناطق من سوء الخدمة فى المرافق الموجودة ، ومن الواضح أن الكثافة السكانية الرهيبـة فى هذه المناطق لا يصاحبها اهتمام مماثل بالخـدمات والمرافق بينما تعـد هذه المناطق مجتمعات محلية مستهلكة اكثر منهـا منتجة اى أن التحضر هنا الذى يحـول الرقعة الخضراء الى منطقـة مزدحمـة بالسـكان يعـد وبالا على المدينـة (الاصلية) والمناطق الطرفية معا .

٨ — بينما يشكو الناس من غياب التنمية المحلية فان **الاحســاس العــام مؤداه أن على الدولة وحدها يقع هذا العبء** ، وقد يكابر النـاس فيذكرون بأنهم سيتولونها بأنفسهم دون أن يفعلوا شيما ، أما من يروا بأن هذه مهمة الجهـود الذاتية والحكومية معـا فهم ليسوا اغلبية سـكان هذه الاطراف مع انهم اكثر الفئات واقعية ، ولا ينبغى أن ننكر أن تجـاهل الدولة لسكان هذه المناطق يؤدى الى تحول هذه الشرائح الى قوة بشرية رافضة ساخطة تشعر بالظلم الاجتماعى فيسهل اصطيادها لمسـالك غير مأمونة العواقب .

٩ — أن العـديد من الجرائم المنتشرة خاصـة فى المدن من سرقة ونشل وادمان للمخدرات واغتصـاب هى من نصيب هـذه الاطراف التى يستقر بها العديد من أرباب الجرائم والعصابات ، والملفت للنظر أن الناس يفضلون عادة الاستعانة بالاصدقاء والجيران ورجال الدينو الاسـاليب الاخرى غير الرسمية للوقوف فى وجه هذه الانحرافات السلوكية .

١٠ — لا زال نسق القيم التقليدى يضع المحاذير فى وجه تعـليم واشتغال الفتاة ومشاركتها الاجتماعية ويقدس الغيبيات حيث تختلط بعضها

بالمقدسات الدينية مهيمنة على عقول نسبة ليست بالقليلة من سكان هـذه المناطق .

١١ — تعد هذه الاطراف مناطق تكاد تختفى فيهـا **النعرات العرقية والاقليمية والقرابية** وان لم يفقـد النـاس رغبتهم فى ان يعيش اقاربهم ومعارفهم وبلدياتهم فى الحى نفسه أو حتى فى البيوت نفسها (التى يقطنون فى احد مساكنها) ولكن دون أن تشكل هذه الشرائح جماعات متحدة متماسكة على اسس عرقية أو اقليمية أو تنهض على غير ذلك من الاسس التى يزداد الاهتمام بترسيخها فى المجتمعات المحلية البسيطة ريفية أم بدوية .

١٢ — ان الجمعيات « الاجتماعية » الاختيارية الطابع كالجمعيات المهنية أو الدينية أو التى تقدم مساعدات فى حالة حدوث الازمات والكوارث فضلا عن ان الجمعيات التى تعرف باسم « جمعيات النقود » — التى يشارك فيها الاصدقاء والجيران والمعارف ليحصل كل منهم بصورة دورية على مبلغ (مجمد) يعد بدوره محصلة للمبالغ التى قام الشخص بدفعها فى صورة اقساط منتظمة (يومية أو اسبوعية أو شهرية) — تستقطب العديد من سكان هذه الاطراف حيث تعوض هؤلاء عن المساندة القريبة والعرقية والمادية التى افتقدوها بعد انتقالهم للاطراف .

رابعا : الاطراف الحضرية فى الثروبوليتانيات المصرية :

« مقارنة النتائج »

يرى بعض الثقاة ان علم الاجتماع الحضرى ينبغى أن يتم فى السنوات القادمة بدراسة **البناء الاجتماعى الحضرى** الذى يتأتى من خلال دراسة انماط عديد من المدن مما يتيح الفرصة لظهور علم اجتماع حضرى مقارن لطبيعة البناء الاجتماعى الحضرى وينطبق هذا الكلام عينه على الانثروبولوجيا الحضرية نفسها لكى يثبت أقدامها (٢٤) ولابد والامر كذلك من العودة الى مناقشة نتائج دراستنا فى ضوء نتائج الدراسات الاخيرة المتاحة اذ تتفق معظم الدراسات السوسيوانثروبولوجية والديموجرافية التى

تناولت المدينة المصرية فى ان القرويين الذين ينتمون الى هذه المدن — وعلى الاخص القاهرة ينتمـون للفئة العمرية الشابة ويقيمون بمجـرد وصولهم للمدينة فى مناطق الاطراف التى تتعـايش فيها اساليب الحيـاة الحضرية والريفية فضلا عن التجانس والروح الدينية الراسخة التى تظهر فى الالتزام بأداء الفـروض الدينيـة والخصـوبة المرتفعة التى تميز الريف المصرى حيث تلعب الاسرة والقرابة والجماعة الاجتماعية دورا اساسيا بينما تنمو هذه الاحياء بطريقة عشوائية حيث نجد الأزقة الضيقة والحوارى المسدودة الملتوية والمتعرجة ، وتاريخ العاصمة فى نظر هؤلاء الثقـاة هـو امتـداد للاطراف بقدر ما هو تكثيف سكانى للداخل فقد اتسعت المدينة من المقطم الى الهرم ومن حلوان الى شبرا .

وتبرز هذه الدراسات بجلاء انه فى الاطراف تسكن عادة **الطبقـة الدنيـا** ، ففى اقصى الجنوب نجد اجزاء من بندر الجيزة ونلمس قطاعا يمتـد من مصر القديمة الى السيدة زينب وفى اقصى الشرق نجد الخليفـة والحسين ، وفى اقصى الشمال نجد اطراف شـبرا الخيمة وشـبرا البلد والساحل ثم امبابة وفى وسط المدينـة بولاق والسبتية والى جانب الجيوب الثانوية فى بولاق الدكرور وبين السرايات حيث المبانى العتيقـة والشوارع التى تخلو من التخطيط والكثافة السكانية العالية وانخفاض مستوى المعيشة والحجم المرتفع للاسرة . وحيث تختلط المسـاكن بالمنشـآت الصـناعية والمحلات التجارية ومخازن الجملة وتجار الحـرف اليدوية والمؤسسات المخصصة للصناعات الثقيلة وبعض المعاهد والكليات الجامعية بينما تعيش الطبقة العليا والوسطى فى معظم المناطق القريبة من النيل (٢٥) .

وقد أفصحت احدى أبرز الدراسات التى أجريت عن اطـراف مدينة الاسكندرية أن سكان الاطراف اصغر سنا كما ترتفع نسبة الاميـة فضلا عن نسبة من لم يحصـلوا على شهادات دراسية بينما ينخفض دخل الاسرة ونصيب الفرد من الدخل الشهرى .

وقد اتضح أن المتوسط العمرى لكل من الازواج والزوجات فى مناطق الاطراف اقل منه فى المدينة وان معـدل الخصوبة يتزايد كلما اتجهنـا للاطراف ومع أن حجم الاسرة يميل للاتسـاع النسبى فان الاتجاه للانكماش يعد من أهم مظاهر التغير .

وقد أوضحت النتائج الحقلية أن التزايد النسبى للذكور عن الاناث يصاحبه فى الوقت ذاته انخفاض العمالة النسائية للزوجات وقد أبرزت الدراسة الراهنة أن الناس فى هذه الاطراف يشعرون بالتجانس كما يزيد الاحساس بالمشاركة الاجتماعية عند الفئات الوافدة من خارج المجتمع المحلى حيث كانت هذه الفئات الوافدة اكثر ميلا لتدعيم علاقتها بالجيران .

أما نمط العلاقات الاجتماعية « شبه الاولية » لسكان الاطراف فانعكس على تفضيل الجماعة القرابية وازدياد الاهتمام بزيارة الاهل والاقارب ، حيث يشعر الناس — كما هو الحال فى المناطق الريفية — بالتجانس وتكاد تكون حدود التسامح ضيقة عن مثيلتها فى المدينة ويزداد الحرص على سمعة الاسرة نتيجة لوطأة المعايير الاجتماعية .

ومن النتائج الطريفة التى أبرزتها الدراسة الحقلية أن الاسرة كانت هى محور الاهتمام الاساسى لاعضائها بصورة تتمثل فى « **التمركز حول المنزل** » و « **التمركز حول الطفل** » حيث يقضى الزوج والزوجة أغلب وقتهما مع الابناء فى المنزل .

وقد ابرزت دراسة أخرى تناولت أحد أطراف العاصمة وأحد توابعها الزراعية أن انضمام مجتمع « الأطراف » الى كردون المدينة لم يؤدى الى لا شخصية العلاقات والى زيادة المعقلانية وانعدام التجانس كما اعتقد ويرث كما أبرزت تلك الدراسة ان القوة العاملة قد اتجهت للاشتغال بالقطاع الثالث (قطاع الخدمات غير المنتج) نظرا لانتشار الامية ونقص التدريب المهنى بين أفرادها الذين يمثلون قطاعا عانى من البطالة المقنعة وقد حاول غالبية هؤلاء الافراد أن يخلقوا مجتمعا يقترب فى ثقافته من ثقافتهم التقليدية ، وهكذا تعددت الجماعات والثقافات الفرعية التى لا يبدو أن التصنيع كان العامل الحاسم فى جذبها للمدينة ، ومن شواهد ذلك أن الدراسة الحقلية قد اكدت وجود ٣ جماعات على الاقل فى مجتمع الاطراف جماعة تحركت من مركز المدينة للاطراف وقد أطلق الباحث على أفرادها Modern-urbanites وجماعة وفدت — من الوجه البحرى أو القبلى — الى الاطراف ولاسيما فى مناطق ريفية وقد اطلق على أفرادها Traditional urbanites ثم السكان (الاصليين) وهم سكان المنطقة التى كانت زراعية اساسا (فى الغالب) قبل أن يحتويها النمو الحضرى

لتتحول الى محلة متروبوليتانية تابعـــة نتيجة للابتداد الحضرى وقد أطلقت الدراسة عليهم Rural urbanites وخلاصة القـــول انه رغم الفـــروق الحضرية بين المدن الكبرى فى مصر فاننا نستطيع ــ بصورة تعسفية بقصد التحليل والدراسة ــ أن نتحـــدث عن خصائص اجتماعية وديموجرافيـــة لسكان هذه المدن والعواصم غير أن تفســـير نشأة هذه الاحياء فى ضـــوء التوجيهات الايكولوجية والتاريخية والديموجرافية من جهة أو فى ضـــــوء الوصف الاثنوجرافى أو دراسة الثقافة الفرعية من جهة اخرى ليس بالامر المرغوب (فى الوقت الحاضر) والاجدى لنـــا أن نحاول تفسير هذه النشأة كذلك فى ضوء **الاوضـــاع الطبقية والعوامل الاجتماعية الاقتصادية** من جهة وفى ضوء التضخم والابتداد الايكولوجى للمدينـــة فى مواجهـــة هذه الاطراف المحرومة من جهة اخرى .

٢ — « الهامشـــية الحضرية » *

دراسة عن احياء جامعى القمامة بمدينة القاهرة

مقـــــدمة :

١ — **الثقافة الهامشية هى ثقافة فرعية** لجماعة من الناس تستقر عادة على أطراف أحد المجتمعات المحلية فهى ثقافة نوعيـة مخالفة للثقافة المحيطـــة . وقد استخدم بارك R. Park مصطلح الانسان الهـــامشى marginal man للدلالة على الشخص الذى يتحـرك خلال اكثر من عالم اجتمـــاعى Social world دون أن يكون مستوعبا تماما فى واحـــد منها (١) .

ويتفق بارك مع سيمل Simmel وفيلن فى أن الهامشية تعكس وضع الشخص داخل جماعة بعينها وما يتضمنه ذلك عادة من تناقض وجـدانى وفشل فى التوافق مع الوسط الثقافى .

وقد حـذو حـذو بارك فى هـذا المضمار Frazier ، وهيـــوز Ev. C. Hughes وطومسون Thompson وويرث L. Wirth (٢)

ويفهم من تحليل بارك Park أن ثمة علاقة بين مفهوم الهامشـــية والشور بالغربة فالشخص الهامشى يحس بالغـربة والعزلة كذلك .

١ — حظيت الهامشية الاقتصادية بصـفة عامة وهامشية العمـل بصفة خاصة باهتمام البعض أمثال منجـــر Menger على أساس ما سبق أن ارســـاه Ricardo وسميث Smith من تحليلات فى هذا الشـــأن . واستمر هذا الاهتمام من خلال أعمال بكمـــان Beckmann ، فون ثينين Von Thuenen, يستيفن Steven ، كما يمكن تتبع جـــذوره الفـكرية فى كتابات ماركس وجيفونس Jevons .

هذا بينما اهتم البعض أمثال برلمان Janice Perlman, ونان Nun, بالهامشية الاجتماعية (٣) .

ويعتقد نان Jose Nun ان **الهامشية هى الابن البار للتنظيم الرأسمالى** حيث تعمل الراسمالية على تهميش قطاعات كبيرة من الفقراء ممن يعملون فى مجال التجارة البسيطة والحرف الصغيرة والخدمات الشخصية .

ويرى ويب Webb ان القطاع التقليدى هو القطاع الهامشى سواء فى الريف او الحضر بل ان المدن الكبرى فى الدول النامية تتميز — كما يذكر روبرتس Bryan Roberts (٤) بازدواجية مهنية وبازدواجية تكنولوجية حيث تجذب اليها من الريف القوى العاملة غير المدربة والامية فتعمل بها بالاعمال العرضية غير المنتجة ويتكالب الدخل المنخفض والامية ونقص الخدمات المقدمة وفقدان المشاركة فى تجسيد هامشيتهم الحضرية وعزلتهم الاجتماعية . وتشير سوسيولوجية **الانسان الهامشى** من وجهة نظر بارك للعمليات التى تعجل بظهور الصور المختلفة لانحسار أو نكوص التوافق والتكيف ، والملاحظ انه بينما شغل دوركايم بالضغوط التى تدفع المجتمع الى نماذج يمكن التنبؤ بها سلفا فان بارك يلفت النظر للقوى التى تهددنا من خلال هذه الضغوط .

٣ — تتضمن الهامشية قدرا — ضئيلا أو كبيرا — من **الاغتراب** Alienation فالمجتمعات والجماعات الهامشية تعانى من الشعور بالغربة عن الثقافة المحيطة بها وعن الجماعات الاخرى من حولها ، بل ان الهامشى فى اغترابه يخلق عالما بعيدا عنه ، وحينئذ لا يصبح العمل هو ذلك النشاط الانسانى الوجودى الخلاق بل ان هذا العمل يجعله مغتربا عن طبيعته وعن ذاته ايضا (٥) بل انه فى ظل اغتراب الانسان الهامشى عن المجتمع المحيط به تصبح الحياة الاجتماعية صورة لفقدان الحرية الانسانية (٦) ومن شأن هذا ان يجعل الانسان عازفا عن تنظيم العمل الجماعى للتغلب على الاحوال السيئة (مثل عدم العدالة ، والاستغلال) التى يقع بالضرورة تحت نيرها (٧) .

٤ — اذا تركنا جانبا النظرية التى قدمها لويس عن **العلاقة بين الفقر**

والهامشية فان التقارير الاخيرة للامم المتحدة تؤكد ان ثمة علاقة موجبة بينهما فقد أوضحت هولنستير Hollnsteiner فى مقالها عن الخدمات الاساسية لاطفال فقراء الحضر فى الدول النامية أن أطفال الاحياء المتخلفة يواجهون الحرمان الدائم . فمع الفقر والاكتظاظ السكانى وسوء انعدام الخدمات الصحية والتعليمية ونقص المساكن المناسبة وبازدياد معدل الهجرة الريفية للمدن تتكون الجيوب الكبرى من فقراء المدن ، وتتكلم هوللتز عن الفجوة بين المخطط الحضرى وسكان المناطق الهامشية حيث ترجعها بدورها الى اغتراب الاول عن فهم حياة الفقراء فى هذه المناطق ، الامر الذى يستلزم استخدام المدخل متعدد الابعاد الذى يتضمن تقديم خدمات فى مجالات رعاية الامومة والطفولة وتنظيم الاسرة وانتاج الغذاء والتكنولوجيا المناسبة فضلا عن تبصير الناس بضرورة المشاركة فى تنمية مجتمعهم المحلى (٨) ، وما من شك فى أن الظروف الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية تعد مسئولة أساسا عن تهميش بعض شرائح المجتمع وتحديد مجال نشاطهم الاجتماعى غير أن الشكل الاخير للشرائح والمناطق الهامشية هو من صنع الهامشيين أنفسهم من خلال القرارات الحياتية اليومية التى يصنعونها بأيديهم (٩) .

ويرجع محجوب الحق الهامشية الى البؤس والحرمان الذى يتعرض لهما اكثر من ٤٠٪ من سكان الدول النامية ، فالهامشية هى الوجه الآخر للفقر **وفقدان العدالة الاجتماعية** (١٠) ففى القاع تتعرض حياة هذه الشرائح للخطر نتيجة لنقص المياه ونقص الرعاية الصحية وانتشار الامراض وازدحام المساكن والافتقار للقدرة على السيطرة على الطبيعة او المشاركة فى وضع استراتيجية التنمية المحلية (١١) .

٥ — يربط جيرالد بريز Breese بين الهامشية والهجرة الريفية الى المناطق الحضرية فالمهنة الهامشية تعد سمة عامة بالنسبة للمهاجر الحضرى الذى ينزح للمدينة بينما يكون غير معد لشق طريقة بنجاح فى المجتمع الحضرى : وهو يؤكد أن نصيب الدول النامية اكبر من مثيلاتها المتقدمة فى القطاع المعروف بالخدمات « الهامشية » ومصداق ذلك أن معظم من ينزحون للحضر فى العالم ليس لديهم مهنة محددة فهم يعملون حيثما اتفق. ويسكنون فى مساكن مؤقتة ، الامر الذى يؤدى لظهور الاحياء المعروفة بالحافة الغضة Shanty towns ألتى تفتقر للخدمات وتنتشر فيها القذارة وتقترب من مدن الاكواخ Septic fringes ولا يبدو أن التصنيع هو العامل الحاسم فى هجرة الريفيين الى المدن فالغالبية العظمى من المهاجرين تتجه عادة الى قطاع الخدمات والاعمال غير الفنية (الهامشية) (١٢) .

ويطلق على الاحيـــاء الهامشية أو أحياء واضعى اليد فى الهند أحياء الباســـطى Bustees أو جاجى Jhugges أواهاتا Ahata وفى تونس Gourbis أو Bidonville وفى بغـــــداد Seritas وفى فنزويلا Ranchos ، وفى بيونس ايرس Villas M. Serarias ، وفى ساوباولو Barrios ، وفى بورتو البجـــر Villas de Malacas وفى ســـــانتاجو Cuttampas Barrios clande وفى كولومبيـــــا Broblacones وفى كراكاس Cerros أو Quibradas وفى مكســـــيكوسيتى Jacales Tugorios أو Colonias proletarias فاذا أخذنا مثالا بالهنـــد فان أحيـــاء الباسطى Bustees or Bustis هى عبـــــارة عن أكواخ صغيرة مؤقتـــة يتم بناؤها بوضع اليـــد وتفتقر الى الخـــدمات كما تنتشر على طول الطرق الرئيسية المؤدية للمدينة والمناطق الفضـــــاء البعيدة والاجزاء المهجورة التى تشـــوه المدينة وتكاد تقتصر سكناها على الوافدين الجدد للمدن .

٦ — يرى بريز أن المدينة كلما تضخمت وازداد امتدادها للقـــــرى المجاورة ظلت هذه القرى بمثابة جيوب هامشية تفتقـــر للخدمات والمرافق الحضرية بينما تنسلخ كذلك من وظيفتها الانتاجية المتصلة بالنشاط الزراعى وبعبارة اخرى فان الاحيـــاء الهامشية هى أحياء متخلفـــة تعانى من نقص فى الخدمات والمرافق وتوجـــد عادة على الاطراف أو فى بعض الاحيـــاء التى تتسم بخصائص ايكولوجية وعمرانية بعينها فهى تقـــوم عادة على أراضى مملوكة للدولة أو لاشخاص وتشيدعادة من المخلفـــات المكونة من مبـــــان متداعية أو أكواخ صغيرة يأوى اليها مئات بل عدة آلاف من واضعى اليد . وعادة ما تجد الدولة نفسها مضطرة للاعتراف بالامر الواقع مع محـــــاولة مدها بالخدمات الاساسية كالميـــاه والكهرباء أو خطوط المواصلات الحكومية السريعة . ومن ســـوء حظ هذه المناطق الهامشية انها تصبح مسرحا للفقراء وارباب السوابق والاكتظاظ السكانى ، وتؤدى الى المزيد من المشـــكلات الاجتماعية والصراعات الثقافية .

ان نمو المراكز الحضارية فى دول العالم الثالث يفوق المناطق الريفية فى هذه الدول غير أن هذه المراكز الحضرية تزخر بمدن الصفيح واحيـــــاء واضعى اليـــد التى تعكس جميعا ظروفا بالغـــة الســـــوء كما تعبر عن الهامشية الاجتماعية — الحضرية حيث تجذب الاعداد الغفيرة من المهاجرين الريفيين للعمل بها . فالجيـــل الذى يهاجر الى المدينـــة بمفـــرده قد يظل محتفظ بالرواسب الريفية الى حد ما ، الامر الذى يجعل من المدينة نموذجا

معقدا من المناطق المتخصصة داخل بنـــاء ايكولوجى اكثر عمومية (١٣) .

وهذا ما دفع الحسينى أن يذكر أن مفهـــوم الهامشية الاقتصـــادية والاجتماعية والسياسية ينبع من حقيقة اخفـــاق اعداد كبيرة من المهاجرين الريفيين فى آلالتحاق بأعمال صناعية ولجوئهم الى أعمـــال حرفية وضيعة فى هذه المدن ، وهى الحرف غير الانتاجيـــة التى يطلق عليها عادة المهن « الهامشية » بل ان قطـــاع عمال الصناعة فى هذه الدول يظل عازلا عن المشاركة السياسية أو يحاول المشاركة فى ظل محاكاة مشوهه للديموقراطية الغربية (١٤) .

٨ ــ تعبر **الهامشية الحضرية عن هامشـــية اقتصاديةوسياسية وثقافية** ايضا ، وهذه تصبغ العلاقات بين المحلة الصغيرة والمجتمع الاكبر وتصبغ العلاقات بين العصبيات داخل المحلة الصغيرة نفســـها ، ويشـــير شـــاك W. A. Shack فى معرض حديثه عن العلاقات القبلية والسلالية فى اثيوبيا أن سكان المدن الافريقية لا يفقدون هويتهم السلالية والقبليـــة بل ان هذه الهـــوية تتدعم أو تقوى بمرور الوقت بينما تختلف هذه الصورة من مدينـــة افريقية لاخرى . كما أن الهامشية السلالية لا تعنى بالضرورة عدم التنظيم والعلمانية والفـــردية بالصورة التى اشار اليها ويرث Wirth ويعنى هذا أن المدينة لا تغير الناس آليا أو تجعلهم حضريين بصورة واحدة. كما لاحظ شاك أن الجماعات السلالية التى تشـــارك أساساق أحـــد القطاعات النوعية للبناء المهنى الحضرى تتأثر بدى أسهام هذه الجماعات والثقافة السائدة منجهة كما تتأثر بالتسهيلات التى تقدمها الاغلبية لتحقيق التكامل الاجتماعى والثقافى بينهما وبين هذه الجماعات السلالية من جهـــة أخرى (١٥) .

٩ ــ **ان الهامشية الايكولوجيـــة** تتمشى مع هامشية اقتصـــادية وسياسية ودينية وثقافية وهكذا ، وعلى ســـبيل المثال فان البروليتاريا الحضرية التى تشعر بهامشيتها تعـــد قوة للتغير ذات تأثير فعال يســـهل دفعها بواسطة « الديموجوجيين » الى تيارات غير مأمونة .

وتتمثل الهامشية الاجتماعية كذلك فى ازدياد معدلات انحرأف الاحداث والتصدع الاسرى والابية وضعف المعايير الاخلاقية والخيانة الجنســـية والبغـــاء وغيرها من المشكلات الاجتماعية الاقتصادية التى تهـــدد الاسرة

وجماعات الرفاق والجيرة والامتثال لمعايير الضبط الاجتماعى ونسق القيم فى المجتمع .

وتتضح الهامشية الاقتصادية من خـلال تفاقم الفقر بالنسبة لبعض الشرائح وانخفاض مستوى الانتاجية وأنخفاض المهـارة ونقص التدريب المهنى وعدم المساواة وارتفاع معدل الديون .

١٠ — ان نوعية الجماعات الهامشية تتضمن فئات عديدة — أشار اليها أبو لغد — ومنها :

(أ) **شريحة المهاجرين غير المهرة للمدينة .**

(ب) **الذين يقيمون فى أماكن خارج المدينة** او اطرافها كسكان المقابر .

(جـ) **النساء اللائى يعلن غيرهن دون أن يتـوفر لهن العمل المناسب** والمهارات اللازمة .

(د) **سكان المنازل المنهارة** ممن يعيشـون فى خيام او أكواخ أو مساجد قديمة .

(هـ) **أطفال الشوارع** (الذين بلا عائل يرعاهم) .

وهناك بعض دراسات انثروبولوجية عن جماعات هامشيه مثـل دراسـة بونى ويكان Unni Wikan وايفلين ايرلى وغيرهما .

١١ — هناك اختلافات خاصة بطبيعة مناطق مستوطنات « **واضعى اليـد** » فى أمريكا اللاتينية وجزرالكاريبى يتجه القادمون الجدد مباشرة للاحيـاء المتخلفة فى المدينة . وقد يحاول سكان الاكواخ اذا ساعدتهم الدولة أن يحسنوا أوضاعهم ويبدو أن المستوطنات التلقائية فى أفريقيا وآسـيا لا تدخل فى أطـار هذه الفئة حيث يتجه اليها المهاجرون من الريف مباشرة ليتصلوا بآخرين من الاسرة او القبيلة . فهذه المستوطنات هى اسـتراحة منتصف الطريق بين القرية والمدينة ، واذا كان ساكن الحى المتخلف يدفع ايجارا مقابل المسكن ، فان احيـاء وضع اليد الحضرية هى أحياء بلا شرعية

ونادرا ما يدفع واضع اليد الحضرى ايجارا فى هذه الاحيـــاء والنتيجـــة هى الهبوط بظروف هذه المناطق الى الأسوأ .

وتعتبر **مدن الاكواخ** بالنسبةللمهاجر الى المدينة ، وخاصة فى افريقيا وجنوب شرق آسيا ، منطقة مستقبلة للمهـــاجرين ذات ملامح مألوفة فهى ليست مطابقـــة للمدينة بشكل كامل فى هذه المجتمعـــات المحلية الهامشية اقاربه وشـــبكة علاقاتهمما يؤدى الى التغلب على الصـــدمة الثقافية Cultural Chock

وفى سنة ١٩٥٨ ضمت ليما على سبيل المثـــال نحو ٠٠٠ر١٠٠ من واضـعى اليـد ما لبث أن زادوا الى ٠٠٠ر٤٠٠ نسمة فى ســنة ١٩٦٤ ، وفى أفريقيا وجنوب شرق آسيا ادتهذه الظاهرة الى تهديد الكيان الحضرى برمته .

وليس من اليسير أن نتطرق للحديث عن الهامشية الحضرية الا اذا وضعنا فى الاعتبـــار الظـــاهرة التى يطلق عليهـــا عادة التضخم الحضرى Over Urbanization والتى تنتج عن الزيادة الرهيبـــة غير المتوازنة فى سكان الحضر بالقيـــاس بالامكانيات الفعليـــة والاحتيـــاجات المتزايدة للسكان (١٦) .

١٢ — **بازدياد معدل التضخم الحضرى** تزداد الاحياء المتخلفة ومدن الصفيح ويشـــير الن مونتجوى الى مدن الاكواخ ، كصورة من صـــور الاستيطان التلقائى (الهامشية) التى تقام بوضع اليد حيث تضم الفقراء ، فضلا عن الشرائح العاملة التى تحصـــل على أجور منخفضة واولئـــك الذين ينزحون فى الاحياء الشعبية لكى يوفروا ايجار المسكن ويوفروا فى بناء منازل لهم فى ظل ظروف افضل فى المستقبل (١٧) .

وترى أبو لغد (١٨) انه فى داخل القاهرة هناك مناطق الاكتظـــاظ السكانى والاسكان السيء ، والفقـــر ، والهامشية الاقتصـــادية أو العمل فى القطـــاع غير الرسمى (غير المنتج) . واذا كانت هذه القطـــاعات الهامشية داخل مدينة القاهرة تؤكد لنا حقيقة أن مدن العالم الثـــالث خاصة تحتوى على عدة طرق للحيـــاة ليست كلها حضرية وليست كلهـــا حديثة فهى من وجهة نظرها توضح أن هذه القطـــاعات لا يمكن أن تفهم الا فى ضوء علاقتها بالمدينة والنسق القومى بل والنسق (العالمى) وبعبارة

اخرى فى ظل علاقات التبعية للاستعمار . وقد أوضح حجازى أن وجود انساق اجتماعية وانماط حضارية جلبها معهم المهاجرون الى العاصمة يتمشى مع ميلهم الى تكوين جيوب ثقافية ، يحتفظون فيها بمعظم مقومات الثقافة الاصلية . الامر الذى يؤدى الى تعطيل عملية التكيف الاجتماعى والثقافى فى العاصمة (١٨) . كما استنتج عودة أن المهاجر الى مدينة القاهرة عادة ما يكون فى مرحلة الشباب وفى سن العمل ، الا انه أمى ، وغير مدرب كما انه أعزب ومتحرر من كثير من الالتزامات العائلية حيث تمثل هذه النوعيات من المهاجرين خطورة تهدد التنمية اللصناعية والاقتصادية برمتها (٢٠) .

١٣ — أن المدينة تزحف عادة على الاحياء الهامشية لتضمها اليها

ويذكر الحسينى مثالا طريفا عن أحد المناطق الهامشية فى مدينة القاهرة التى يطلق عليها « مدينة الاموات » وتقع فى الطرف الجنوبى الشرقى للعاصمة فمى حى الامام الشافعى بدأ الاحياء يزحفون على الاموات ويطاردونهم حتى ان مدينة الاحياء تتداخل مع « مدينة الموتى » بصورة تابضة للنفوس (٢١) .

ثانيا : « الدراسة الحقلية منشاة ناصر » :

تقع هذه المنطقة على اطراف العاصمة وسط مرتفعات المقطم وشرق طريق صلاح سالم . وقد نشأت هذه المنطقة عام ١٩٦٠ ويربو عدد سكانها على ٦٠٫٠٠٠ نسمة . بينما يشكل مجتمع (الزبالين) نحو ٦٠٠٠ نسمة منهم ، وهم يشتغلون بمهنة جمع القمامة من بعض أحياء القاهرة ويشكلون مجتمعا محليا على مشارف منطقة الاطراف نفسها . ويؤدى التسق المهنى والايكولوجى الى هامشية هذا المجتمع وسكانه مما سيأتى ذكره فيما بعد .

ومن المعروف أن **الزبالين** يستقرون فى العاصمة فى بعض المناطق التى تقع على أطراف المدينة ، وهذه المناطق هى عزبة النخل ، المعتمدية ، والبراجيل ، وعين الصيرة ، وطره ، وحلوان ، ثم منشية ناصر التى تعد اكبر التجمعات المعروفة بالنسبة لهم .

ويستقر مجتمع « الزبالين » فى المنشية فى حضن جبل المقطم حيث تمتد منطقة وضع اليد مكونة مجموعات متراصة من عشش الصفيح والحجارة

بينما تنتشر هذه الاحياء النقية للشرب والكهرباء والمستشفيات والمدارس الحكومية كما تبتعد عن « خطوط » المواصلات العامة حيث تعد عربات جمع القمامة وتصريفها الشكل الوحيد من اشكال الاتصال بالعالم الخارجي وتنتشر الازقة غير المرصوفة ، بل ان المرء ليجد صعوبة بالغة فى السير فى الشوارع نفسها حيث تنتشر أكوام القمامة المتبقية وجثث الحيوانات المتعفنة فى الشوارع بصورة ماساوية .

(أ) يوجد بالمنطقة ٣ مقاهى صغيرة (غرز) ، ٤ حوانيت للبقالة وقصاب أو أكثر ، ٢ مكبس للورق ، بينما توجد كنيسة ملحق بها قاعة لمحو أمية أطفال المنطقة . وقد أجرى البنك الدولى دراسة للارتقاء بالمستوى العمرانى Upgrading لمنشية ناصر سنة ١٩٨٠ للتعرف على المشكلات التى يشكو منها مجتمع « الزبالين » واعداد البرامج التى يسهم السكان فيها لتحسين الظروف المعيشية .

(ب) أفصح الحصر ألسكانى للاحياء آلتى يسكنها « الزبالين » والذى اشرف على البنك الدولى ، فى منشية ناصر ، أن عددهم يبلغ ٤٨٨٠ نسمة ، منهم ٣١٪ من الذكور ، ٤٩٪ من الاناث .

كما تبين أن ٥ر٢٠٪ من مجموع السكان تقل أعمارهم عن العشرين ، وأن ٦ر٣٩٪ تتراوح أعمارهم من ٢٠ : ٤٠ سنة و ٢٤٪ من ٤٠ : ٦٠ سنة. هذا فضلا عن ٦ر١١٪ تزيد اعمارهم عن ٦٠ سنة ، وينبغى التنويه هنا أن العمر الزمنى لمجتمع الزبالين والمنشية بصفة عامة لا يتعدى **ربع قرن من الزمان** ، الامر الذى ينعكس بدوره على أنخفاض معدلات صغار السن عن المتوقع لمحدودية عدد آلزيجات التى تمت فى المنطقة ، فضلا عن ارتفاع معدل كبار السن وان كنا نشك من جانبنا فى صدق النسبة الاخيرة (٦٠ سنة فأكثر) نظرا لان الكثير من سكان المنطقة ليس لديهم شهادات ميلاد أو بطاقات شخصية — لاسباب سنفصلها فيما بعد — مما يجعل الناس يخطئون فى تقدير اعمارهم الفعلية .

(جـ) وقد أجريت ألدراسة الراهنة بهدف التعرف على أحد المجتمعات المحلية التى يحتلها « واضعو اليد » فى أطراف مدينة القاهرة حيث اختيرت منشاة ناصر (الاحياء التى يقطنها جامعوا القمامة بصفة خاصة) للتعرف على العوامل التى تصاحب تهميش هذا المجتمع المحلى من الوجهة الايكولوجية والاقتصادية والاجتماعية من جهة ، وآثار هذا

التهميش الحضرى من جهة أخرى . وتحدد المجال الزمنى بالحقبة الممتدة من أول ديسمبر ١٩٨٢ الى نهاية فبراير ١٩٨٣ .

وقد قدر عدد الاسر بنحو ١١٠٠ أسرة موزعة على ثلاثة محاور اساسية تمتد فى شكل حلزونى على ارتفاع الجبل بينما تستقر فى النهاية عند قاعدته بينما زحفت مجموعات سكانية اخرى فكادت تلامس شريحة « الزبالين » .

(د) بعد أن قام الباحث **بالدراسة الاستطلاعية** للمنطقة (*) اتضح انه يمكن تقسيمها بحسب درجة تجانسها الى منطقتين : الاولى وتضم نحو ٦٨٠ اسرة ، ثم أختيار ٣٣٩ أسرة منها تمثل الى نحو ٥٠٪ من مجموع هذه الاسرة بينما تضم المنطقة الثانية نحو ٤٢٠ أسرة تستقر عند قاعدة الجبل . ولما كانت المنطقة الثانية التى تستقر عند قاعدة الجبل تتمتع ببعض التسهيلات المعيشية التى يحرم منها سكان المنطقة الاولى من مجتمع الزبالين ، فقد تجاوزها التقرير الراهن الذى يعرض لنتائج دراسة المنطقة (الاولى) . وتضم العينة ٣٣٩ « زرابا » — كما أسلفنا — ممن يجمعون القمامة ويعيشون حياة هامشية أكثر من أقرانهم فى المنطقة الثانية من جهة ، ومن أقرانهم الذين يعملون فى مهن غير مهنة جمع القمامة داخل المنشآة من جهة أخرى . كما أنهم أكثر هامشية من أقرانهم الذين يسكنون الاحياء الشعبية والمتوسطة والراقية فى العاصمة بصفة عامة .

ويقوم « الزراب » (*) بنقل القمامة الى الزريبة وفرزها وبيعها للتجار ، وتضم القمامة عادة الزجاج والحديد والخرق البالية والورق وغيرها من المخلفات الخشبية والمعدنية لتصنيعها ، وبيعها لكبار المعلمين الذين يتولون بدورهم بيعها للمؤسسات التى يتعاقدون معها بمبالغ مجزية دون أن ينال « الزراب » نصيبه الحقيقى .

(*) تضمنت هذه الدراسة الاستطلاعية الاتصال بالسكان والافراد الذين نالوا حظا من التعليم ورجال الدين بالمنطقة

(*) « الزراب » هو الشخص الذى يملك زريبة وتضم الزريبة عادة الحوانات التى تعيش على الفضلات وعربات جمع القمامة فضلا عن القمامة نفسها .

(هـ) تتنوع هامشية هذه الشريحة ، فهى هامشية ايكولوجية من جهة واقتصادية من جهة ثانية . فهذه الشريحة على سبيل المثال تحتل مكانة هامشية فى النسق المهنى حيث يمكن الحديث عن القطاع الرسمى الذى يضم « عمال البلدية » الذين يتولون نظافة شوارع المدينة مع نقل القمامة فى عربات يدوية الى صناديق ضخمة موضوعة فى الشوارع الرئيسية يتم تفريغها بدورها فى عربات آلية الى الاماكن التى تحددها المحافظة ليتم فرزها والتخلص من المتبقى منها . وهذه الشريحة العاملة مثل اى شريحة تحصل على أجورها من الدولة بصورة منتظمة .

اما القطاع غير الرسمى فيضم :

١ — **كبار « الواحية »** الذين يتعاقدون على تصريف فضلات المؤسسات والفنادق وأماكن اللهو وأماكن اقامة الطبقة العليا والوسطى فى المدينة (الزمالك — جاردن سيتى — وسط البلد ... الخ) .

٢ — **صغار « الواحية »** (*) الذين يتعاقدون على تصريف فضلات البيوت من باقى أنحاء المدينة فضلا عن الاحياء التى توصف بانها احياء شعبية ويقومون بتسليمها للزرابين .

(و) **أما (الزرابون)** موضوع الدراسة الراهنة فهم يقومون بتحميل القمامة وفرزها والاستفادة منها مع بيع ما يصلح للبيع منها وهذه الشريحة تحتل — كما ذكرنا — مكانة دنيا فى السلم المهنى . الامر الذى يساعد **المسافة الاجتماعية** Social distance بينها وبين سكان المدينة ولا يخفى على الزائر للمنطقة ما يطلقه سكان الاحياء المجاورة من نكات ساخرة على من يقيمون بجمع القمامة .

كما أن تربيتهم للخنازير تستثير عادة تقزز الناس واشمئزازهم ، الامر الذى يستثير **هامشية ثقافية وفكرية** ايضا ، هذا فضلا عن الهامشية الاجتماعية ألتى تتمثل فى أن الغالبية الساحقة من هؤلاء الزبالين اما انهم

(*) ينتسب هؤلاء للواحات الداخلة وبخاصة لبلدة « الشيخ وألى » و « الهنداوى » ، « والوافية » ، « وعزبة عين القضاء » ، « وعزبة النباة » .

قد طردوا من أماكن أخرى كانوا يعيشون فيها قبل ذلك (كمنطقة امبابة) . أو هاجروا من مناطق أخرى ريفيـــة ينتسب معظمها الى الوجه القبـــلى (محافظات أسيوط وسوهاج بصفة خاصة) . فاذا وضعنا فى الاعتبـــار أن بعضهم يتهربون من اثبات مواليدهم للافلات من أداء الخـــدمة السكرية ويحرمون بالتـــالى من استخراج بطاقات لاثبات هويتهم ، لأفصـــح ذلك عن وجود هامشية سياسية لا شك فيها .

وليس بخاف أن الهامشية الاجتماعية تسير فى معيـــة مع الفقـــر والامية والمرض وترجع آلى سوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والسكنية والبيئية التى يعيشون فى ظلها .

(ز) قام الباحث باعداد استمارة مقـــابلة (استمارة استبيان) وتم تجربة الاستمارة قبل نزول الميدان ، ومن ثم تم اعداد الصـــحيفة التى تضمنت نحو ٧٥ سؤالا . ويمكن من خلال مناقشـــة نتائج الدراسة التعرف على العـــديد من الملامح السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بهذه الشريحة ، هذا فضـــلا عن الاســـتعانة بكبار السن والملاحظة وغيرها من الادوات .

ثالثـــا : نتـــائج الدراسة الميدانيـــة :

(أ) أبرزت الدراسة الميدانية أن ٤٤٪ من أرباب الاسر آلذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان (٣٣٩ من أرباب الاسر) تبلغ أعمارهم من ٢٠ : ٤٠ سنة أى أنهم فى عنفوان قوتهم الانتاجية . هذا فى الوقت الذى تعد فيه جميع القمامة من الاعمال غير الفنية التى لا تحتاج الى تكريس هـــذه الطـــاقة البشرية لانجازها ، كما أن تكريس هذه القوة آلشابة هنا يعـــد اهدارا لطاقة كبرى فى المجتمع .

(ب) أوضحت الدراسة أن جميع أفراد العينـــة الذين طبقت عليهم استمارة المقابلة قد **هاجروا من محافظات أخرى** اذ أن ٨٦ر٤٪ قد هاجروا من محافظة أسيوط (مركز البدارى خاصة) ثم محـــافظة سوهاج ٥ر٩٪ ، كما اتضح أن ٥٦ر٦٪ من المهاجرين قد نزحوا للعاصمة للبحث عن عمل اى أن البطـــالة الدائمة أو المقنعة كانت من الاسباب الرئيسية الدافعـــة للهجرة .

(جـ) أن النسبة الغالبية من السكان **يدينون بالمسيحية** ولعـــل هذا

يفسر من جهة أخرى تربيتهم للخنازير ، وبيعها لبض القصابين فى العاصمة ، اذ أن تربية هذا الحيوان وأكله من المحرمات فى الاسلام .

(د) **تفتشر الامية** بين المشتغلين بجمع القمامة فتصل الى ٨٣ر٢٪ من مجموع افراد العينة كما أن ٩٠ ٪ من المعـــولين (الزوجة والاولاد) ليسوا بأحسن حالا من آبائهم فهم يجهلون كذلك القراءة والكتابة .

(هـ) بلغت **نسبة المتزوجين** فى العينـــة ٩٦ر٨٪ ، فالسن المبـكر هى السن المفضلة للزواج الذى يتم عادة ما بين ١٥ — ٢٠ سنة بالنسبة للذكور والاناث ، ويســاعد على ذلك عدم التقيـد بوجود شهادات للميلاد أو اثبات الشخصية . وأن كان من الضرورى أن يتم حضور رجال الدين لأداء الطقوس الدينيـة المتعـارف عليها ، واللفت للنظر أن ٢٥ر٨ ٪ من الزوجات قد تزوجن فى سن تقل عن ١٥ عاما . ويتمشى مع السن المبـكر للزواج ازدياد معـدل الخصوبة ، اذ أن ٥٥ر٤٪ من أسر العينـة يتراوح عدد أولادهم من ٤ الى ١٠ أولاد .

وقد أفاد ثلثا مجموع الاسر المدروسة بأن ٦٨ر٨٪ لا يستخدمون وسيلة من وســائل منع الحمل . من بين هؤلاء أفاد ٥٨ر٨٪ بأنهن لا يرحبن بهذه الوسائل لرغبتهن فى الانجاب . وهكذا تتفاعل الظروف الاجتماعية لتشكل ملامح هامشية هذه الشريحة فى ظل **بطـالة مقنعـة** وهى تزيد من انجابها لكى **يعيش أولادها** فى ظل ظروف العمل فى المهنة نفسها والزواج من العصبية ذاتها . وهكذا تستمر دورة حياة الاسر دون توقف .

(و) أفصحت الدراسة الحقلية أن الاسر تستعين بعـربة يجرها عادة ثلاثة حمـير لنقل القمـــامة (٩٨ر٨٪ من الاسر المدروســـة) ويرجع ذلك الى صعوبة الجبـل مما يستلزم الاستعانة بأكثر من حمـار لجـر العـربة ولا يشـكل ذلك أعباء تذكر لوجود فضلات القمامة التى تقـدم للحيوانات التى تبدو عادة غاية فى الضعف والهزال ابان ســيرها ، وتتولى الاسرة فرز القمـامة داخل المنزل نفسه (٩١ر٤٪ من مجمـــوع الاسر) ويتم التعـامل مع المعلمين الذين يتولون شراء الفضـلات المصنفة بأثمان بخســة ، بينما يشعر الزراب عادة بالظلم الاجتماعى والاحبـاط ، غير انه لا يملك فكاكا من هذا التنظيم « الهرمى » كما أنه ليس بمقـــدوره الحراك بين أكثر من تاجر أو معلم لاحكام هؤلاء التجـــار السيطرة على السوق .

(ز) وقد أفاد ٩٠ر٩٪ من أفراد العينة بأنهم يتعاملون من خلال **وسطاء وهم شريحة (الواهية)** التى تقوم بتحصيل المبالغ المالية من أصحاب المساكن ولا تؤدى عملا يذكر سوى تسليم القسامة للزراب ، لينقلها بدوره الى زريبته لفرزها وتصنيفها ، كما أفاد ٣ر٦٩٪ من أفراد العينة بعدم ترحيبهم بوجود هؤلاء الوسطاء ، وقد اتضح أن أكثر فضلات القسامة هى الورق (٩ر٤٠٪) ثم الخضر والفاكهة (٤ر٤٠ ٪) .

(ح) غير خاف أن الظروف البيئية السيئة التى تعيش فى ظلها هذه الشريحة وامتلاء الازقة والشوارع بالفضلات الحيوانية والادمية والنباتية ، تؤدى لتكاثر الحشرات وتساعد مع وجود الحيوانات داخل الزرائب ونقص المياه على انتشار الرائحة الكريهة داخل المنطقة . وقد اتضح أن ٩ر٣٣٪ من « الزرابين » مصابون بأمراض وأن أكثر هذه الامراض شيوعا هى أمراض الجهاز الهضمى . كما أن ٤ر٢٨٪ من الاسر المدروسة بها اشخاص مرضى . كذلك وان أكثر الامراض السائدة بين افراد الاسرة هى أمراض الجهاز التنفسى ثم الجهاز الهضمى ، اى أن العمل فى جمع القسامة يشكل خطرا اساسيا على صحة هذه الشريحة وباقى افراد الاسرة . هذا فضلا عن اصابة الجميع دون استثناء بسوء التغذية لنقص الرعاية الصحية وانتشار الادمان على المكيفات .

ومن الملفت للنظر أن المنطقة تكاد تخلو تماما من وجود مستشفى عام غير أن هناك بعض الاطباء (الخصوصيين) حاولوا اقامة عيادات بالمنطقة لعلاج المرضى نظير مبالغ زهيدة .

ومن الطريف كذلك أن أحدى الراهبات الفرنسيات التى يربو عمرها على الثمانين تقيم فى المنطقة وقد كرست جهدها لتعويدهم على عادات النظافة وحثهم على الاهتمام بأنفسهم وأولادهم .

(ط) تحدث المشاكل بين هؤلاء الزبالين وعمال البلدية وعساكر المرور بسبب ما يترتب على مرور عربات القمامة المحملة بأطنان القاذورات فى شوارع العاصمة ، وتساقط بعض الفضلات بفعل الاتربة والرياح ، وقد ذكر ٩ر٥٤٪ من أفراد العينة بأنهم يقومون بدفع رشاوى لعمال البلدية وعساكر المرور لتسهيل أمورهم .

ولهذا يتطلع اكثر من نصف ارباب الاسر المدروسة (٤ر٥٨٪ من المجموع الكلى لتغيير مهنتهم والعمل فى قطاع الصناعة أو قطاع الخدمات

رغبة منهم فى الابتعاد بانفسهم عن المشاكل العديدة والتى تنتج عن العمل فى جمع القمامة . بينما يقترح ٧٠٫٨٪ أن تقيم الدولة مصانع للقمامة حيث يقومون بالعمل بها نظير أجور ثابتة تضمن لهم ولأسرهم حياة أفضل اذ ان ٨٦٫٣٪ لا يشتركون فى التأمينات والمعاشات فاذا تعثرت ظروفهم المهنية انقطعت سبل العيش بهم وبأسرهم التى يتولون رعايتها . ومع أن بعضهم يذكرون أن هناك « رابطة » يمكن أن تساعدهم فى حالات المرض والوفاة ، الا أن دورها لم يتضح بعد . بينما يلجأ نحو ٥٠٪ من أسر العينة الى الاشتراك فى جمعية خيرية تكفل المساهمة فى حالة الكوارث ، والأزمات .

(ى) لا تكمن المشكلة الاساسية فى حياة هذه الشريحة فى ضآلة دخولها الشهرية اذ أن الاسر التى تزيد دخولها عن مائة جنيه قد بلغت ٢٠٫٤٪ من مجموع الاسر . بينما كانت هناك ٤٩٫٥٪ من مجموع الاسر تتراوح دخولها من ٦٠ جنيها الى أقل من ١٠٠ جنيه . ولم تزد نسبة الاسر التى تقل دخولها عن عشرين جنيها عن ١٫٧٪ من مجموع اسر العينة ، بل فى **ظروفها البيئية والسكنية والمعيشية والخدمية السيئة للغاية** .

(ق) **ان المشكلة الاكثر الحاحا — كما رآها افراد العينة — هى نقص المياه النقية** (٣١٫٧٪ من مجموع الاستجابات) ، يلى ذلك مشكلة الكهرباء (١٨٫١٪) ثم المدرسة (١٦٫٩٪) والمستشفى (١٥٫٣٪) والمواصلات (١٢٫٩٪) .

غير أن سلبية هذه الشريحة تظهر فى القاء العبء على الدولة للقيام بالاصلاحات اللازمة دون محاولة السكان الاسهام فى اجراء هذه الاصلاحات .

استخلاصات :

تعرضت الدراسة الراهنة لشريحة هامشية تعمل بجمع القمامة من بعض أحياء العاصمة — لاسيما فى الاحياء المتخلفة والمتوسطة الحال — والتى تسكن بدورها فى أطراف العاصمة حيث تشكل مجتمعا هامشيا فى تلك المنطقة .

وقد أوضحت الدراسة الراهنة أن هذه الشريحة تشمل المهـــاجرين من الوجه القبلى (لا سيما مدينـــة أسيوط) ، ممن قاسوا من البطـــالة فى فى موطنهم الاصلى فهرعوا الى المدينة . ونظرا لوجود اقارب لهم يمتهنون هذه المهنة وقلة خبرتهم بالعمل الانتـــاجى والصناعى وقلة حنكتهم ، فقـــد فضلوا الاشتغال بجمع القمامة كحرفة لا تستلزم أية خبرات أو مهـــارات حرفية ، ولمـــا كانت عملية نقل وفرز القمامة تتم بطريقة بسيطة وبدائية ، بينما تتربى على الفضلات الحيوانات والدواب فان الجهات المسئولة تلجأ الى اجلائهمن منطقة لاخرى ، كلما اتسع النطاق العمرانى للمدينة وامتـــد الى الاطراف .

وقد سكن هؤلاء فى منشية ناصر وتنوعوا حول جبل المقطم فسكنوا فى بعض الاجزاء المهدة ، وحول قاعدته ، وشيدوا مســـاكن من الصفيح والاحجار بصورة بدائية تكاد تخلو تماما من المنافع الاســـاسية والمرافق الحيوية .

وقد حرمت المنطقة الهامشية من ابســـط الخدمات والمرافق فاصبح الناس يعيشون فى شبه عزلة ايكولوجية وصاحب هذه الهامشية الحضرية هامشية اقتصادية دفعت بهم فى يد شرائح من المستغلين سواء من الواحية أو كبار التجار والمعلمين فضلا عن اضطرارهم لدفع رشاوى لعســـاكر المرور أو اتاوات لعمال البلدية وغيرهم لتسهيل مرورهم فى شوارع المدينة .

وهـــذه الشريحة هامشية بكل المقاييس ، ففى غيـــاب التأمين على الحياة أو الانضمام لنقابة أو رابطة تدافع عن حقوقهم تجاه غيرهم وفى ظل الظروف الصحية والبيئية السيئة ، يصبح هؤلاء لقمة سائغة فى فم قوى ضاغطةلها مصالح احتكارية .

وتتضح الظروف المعيشية عن أن **المنطقة تكاد تخلو تماما من المرافق والخـــدمات** فالمياه النقية والكهرباء والمستشفى والمدرسة ومكتب البريد أو مكتب الصحة والجمعية التعـــاونية الاستهلاكية غير متوفرة بل ان اغلب الزرائب تكاد تخلو من دورة المياه والحمام والمطبخ وهى بهذه تفتقر لابسط الضرورات الانسانية وعادة ما يتم شراء المياه من خارج المنطقة باستخدام العربة التى تحمل القمامة باستخدام ألفناطيس أو البراميل ، نظير مبـــالغ نقدية تصل الى ٥٠ قرشا للبرميل الواحد .

اما وقت الفراغ فيقضيه الافراد فى المقهى الصغير داخل المنطقة او فى الاستماع للمذياع (الذى يقتنيه ٥٨ر٦٪ من أفراد العينة) . ومن الملاحظ ان ٤٩ر٤٪ من ارباب الاسر ينفقون ربع دخولهم فاكثر على المزاج . الامر الذى يدل على **غيبة الترشيد فى الانفاق** . كما اتضح أن الدخل يعتبر كافيا بالنسبة لـ ٥٩ر٦٪ من أفراد العينة بينما يعد غير كاف بالنسبة لـ ٤٠ر٤٪ من المجموع كما أتضح أن ٧٢ر٦٪ من الاسر تنفق الكثير من نصف دخلها الشهرى على الطعام ، الامر الذى يعكس الانشغال بلقمة العيش فحسب .

وقد اسهمت الامية وازدياد المسافة الاجتماعية بينهم وبين سكان المدينة فى احساسهم بالدونية والاحباط والظلم الاجتماعى (*) . هذا فضلا عن حرمانهم من بعض حقوقهم الاجتماعية والسياسية نتيجة لاهمالهم فى المطالبة بحقوقهم وتقصيرهم فى استخراج ما يثبت هويتهم وعدم وجود شهادات رسمية لاثبات الزواج . الامر الذى يؤدى الى تعميق أحساسهم بالغربة مما يؤدى لتقاعسهم عن المشاركة السياسية او المشاركة فى عضوية هيئات رسمية .

وقد لاحظ الباحث اقبالهم على تعاطى المخدرات بصورة ملفتة للنظر وابتعادهم عن المشاركة فى تنمية المجتمع المحلى الذى يعيشون فيه . فاذا اضفنا الى ذلك هامشيتهم الثقافية التى تتمثل فى وجود ثقافة « فرعية » مخالفة للثقافة الحضرية ، التى يتبلور من خلالها نسق القيم فى المجتمع الحضرى ، اتضح لنا تعدد صور الهامشية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لهذه الشريحة من شرائح المجتمع التى تعيش فى العاصمة حياة هامشية فريدة .

(*) يمكن الرجوع كذلك فى الابعاد الاجتماعية والمسافة الاجتماعية الى : أحمد ابو زيد — البناء الاجتماعى جـ ٢ — الاسكندرية — ١٩٦٧ — الفصل الاول .

« المصـــــادر »

(*) سبق نشر هذه الدراسة فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع — اكتوبر ١٩٨٤ .

١ — Ch. winick, Dictionary of Anthropology. N.Y. 1958 pp. 38, 343.

٢ — D. L. Sels (Ed.) International Encyclopedia of the Social sciences, U.S.A. 1972 vol. 11, 12.

٣ — David Harvey. Social Justice and the City, Great Britain, 1979, pp. 127 : 155.

٤ — Cities of peasants, Great Britain 1978, pp. 136 : 170.

٥ — D. H. Sills (Ed.) Op. Cit. Vol. 1, 2 pp. 264-268.

٦ — G. Osipov., Sociology, 1969, p. 2.

٧ — Chesnokov and Karpushin, Man and Society Moscow, 1966, pp. 16, 17.

٨ — Government strategies for urban areas and community participation In unicif Assignment children social planning with the urban poor Suisse 1. 82.

٩ — انظر المقال الذى تحدثت فيه Unni Wikan عن الحياة وسط الفقراء فى القاهرة فى :
Possibilities of change in living conditions.

حيث ناقشت آراء أوسكار لويس عن هامشية الفقراء والاوضاع الاجتماعية التى يعيشون فى ظلها .

١٠ــ ستار الفقر ــ خيارات امام العالم الثالث ــ ترجمة أحمد بليغ تقديم أسماعيل صبرى عبد الله ــ القاهرة ــ ١٩٧٧ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ١٣٤ .

١١ــ عزت حجازى ــ الهجرة الى مدينة القاهرة . المركز القومى للبحوث ١٩٧١ ــ ص ٢٧ ، ص ٣٣ .

١٢ــ مجتمع المدينة فى البلاد النامية ــ ترجمة محمد الجوهرى تصدير بغدادى . القاهرة ــ ١٩٧٣ ــ ص ٣٨ ، ص ١٥٦ ، ص ٢٢١ .

١٣ــ محمد عاطف غيث ــ دراسات انسانية أجتماعية ، ١٩٦٥ ــ ص ١١٩ : ص ١٥٢ .

١٤ــ التنمية والتخلف ــ القاهرة ــ ١٩٨ ــ ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٧ .

١٥ــ W.A. Shack. Urban Ethnicity In-Ethiopia (In) A. Southall (Ed.) Urban Anthropology N.Y. Oxford Univ. Press. 1978, pp. 25, 275.

١٧ــ التحضر فى العالم الثالث فى : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث ترجمة وتعليق محمد الجوهرى وعلى ليله واحمد زايد ــ القاهرة ــ ١٩٨٢ ــ الفصل الثالث عشر .

١٦ــ Urbanization in Egypt. Rhe Amer. Univ. Cairo, The Social Res. Center. Without, p. 313.

١٧ــ التحضر فى العالم الثالث (فى) : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث المصدر السابق ــ الموضع نفسه .

١٨ــ Janet, L. Abu Lughod, Research priorities for the study of urbanisation and development, The Symposium on social Research for development. Social Research cent, Univ. in Cairo, May 1981.

١٩— القاهرة — ١٩٧١ — ص ٢٧ ، ص ٣٣ .

٢٠— الهجرة الى مدينة القاهرة — المجلة الاجتماعية .

٢١— المدينة — دراسة فى علم الاجتماع الحضرى — القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٢٣ ، ص ٢٩٠ .

٢٢— U.S. Dept. of Commerce, National Technical information service, Conversion of solid waste to fuels. C.B.B. Enham, Et. Al Nayal weapons center, China Lake, California, Jen, 1976.

٢٣— Joint Housing projects Committee, International Development Association, Progress Report, Solid waste Management practices in Cairo, Submitted to Governorate of Cairo 1980 (Unpublished).

٢٤— جريدة الاحرار العـــدد ٢٣٩ فى ١٩٨٣/٢/٢١ عن مجلة المختـــار ريدرز دايجست (نوفمبر ١٩٨١) .

٣ — الفقـــراء فى المدينـــة

دراســـة انثروبولوجيـــة فى حى بولاق

استخدمت الدراسة التى بين ايدينـــا اسلوب **الملاحظة بالمعايشة** فى دراسة الفقـــراء فى حى شعبى حيث قامت بهـــا البـــاحثة النرويجيـــة Unni Wikan من حى بولاق بمدينة القاهرة وذلك بمساعدة مركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الامريكية بالقاهرة ، ومجلس البحوث النرويجية للعلوم والانسانيات وقامت الدراسة الانثروبولوجية بانجاز العمل الميدانى من خلال قضاء ما يزيد على ١٠ شهور بالحى المذكور (*) **عايشت فيهـــا الفقـــراء** مستخدمة الملاحظة بالمشاركة مع السؤال عما يغمض عليهـــا فهمه من ظواهر .

وقد بدأت الباحثة النرويجية الدراسة الحقلية بعد أن قضت مايقرب من عامين فى مصر لتعلم اللغة العربية كما أجتازت كذلك « كورس مكثف » لدراسة اللغة العربية بالجامعة الامريكية فى القاهرة حيث مكنها ذلك من العمل — دون مترجم — مع استخدام تكنيكات الملاحظة بالمعايشة .

وقد هدفت الباحثة الى دراسة الفقراء فى أحد أحياء القاهرة لاختيار الفقر كما يختبره الفقراء أنفسهم كما كانت تنشد كذلك الى تحليل الظروف التى تصاحب الفقر كمـــا يراها الفقراء أنفسهم وتعبر الباحثـــة عن ذلك بقولهـــا :

«In this analysis I choose my point of departure the poor people's own understanding of their life situation».

وهنا يحاول الانثروبولوجى — من خلال المشاركة — **أن يفكر كما يفعل الناس أنفسهم فى المجتمع الذى يقوم بدراسته .**

(*) من سبتمبر حتى ديسمبر ١٩٦٩ ومن نوفمبر ١٩٧٠ حتى ينـــاير ١٩٧١ ، وشهر أغسطس ١٩٧٢ .

«The anthropologist tries through participation to learn, to think as «people do themselves».

وقـد كونت الباحثة صداقات ، وشاركت فى انشطة محلية وحاولت أن تتصرف كما يتصرف الناس وقد اضـطرها ذلك أن (تفطم ذاتها) عن أسلوب حياتها التقليدى الذى اعتادت عليه ، ومع ان هذا لم يكن يسيراً فان البـاحثة الانثروبولوجية قـد وضعت نفسها فى وضع استعداد لتمثـل Assimilate الثقافة المصرية الشعبية ودراسة فقراء بولاق ومشاركتهم حياتهم المعيشية بقصد التعرف على ملامح الفقر ، كما حاولت المساهمة بعد ذلك فى تحسين ظروف هؤلاء الفقراء . وقد تعرفت فى البداية على احدى آسر الحى — عن طريق صديق — وتتكون هذه الاسرة من الزوج ، والزوجة وستة من الاولاد تتراوح اعمارهم بين ٢ : ١٨ سنة ، واثابت الباحثة خلال الشهر الاول مع هذه الاسرة فى غرفة واحدة وكان عليها أن تشارك الفتيات البالغات من اعضاء الاسرة فراشهن ، ولم يكن ذلك يرضى الباحثة بأى حال من الاحوال فلم يكن الفراش نظيفا وكان كذلك عليها أن تشارك الاسرة فى طعامها المحدود **(حتى لا تؤذى مشاعرهم)** وقد اعتادت أن تشاهد بعينيهـا الحشرات وهى تزحف تجاه أطباق الطعام (ورغم ذلك كانت مضطرة أن تأكل منه أسوة بهم) حيث كانت تقنع نفسها بأنها لو قدر لها أن تولد بينهم لكانت ستشاركهم قيمهم ومأكلهم ومشاربهم ، غير أنها سارعت الى البحث عن (شقة خاصة) فى مرحلة لاحقة فكانت تكتفى بقضاء اليوم كله فى الحى ثم تغادره الى مسكنها الخاص لكتابة التقارير والخلود للراحة فى نهـايـة اليوم .

ومن خلال الاسرة (الاولى) استطاعت الباحثة أن تتعرف على بعض الجيران والاقارب (الـذين يسـكنون فى حى بولاق) وسرعان ما كونت صداقات مع اسر المنطقة الامر الذى حفز الاسرة (الاولى) على تحذيرها من التردد عليهم ولم تكن هذه النصيحة مخلصة بأى صورة من الصور فقد كان من شأنها أن تزيد من عزلة الباحثة عن المجتمع المحلى مما يضـطرها الى الاعتماد على الاسرة المضيفة بصورة كاملة ، وقد تمكنت الدراسة من اقناع الاسرة الاولى بأنها تختلط بالاسر الاخرى لتتمكن من اتقان اللغة وبان دراستها للمنطقة تقتضى منها أن توزع علاقتها بالتساوى على هـذه الاسر (وهى مبررات ثانوية) وكانت كل أسرة تسألها دائمـا : هل تؤثرها على باقى الاسر فى المنطقة ؟ وأين كانت قبل حضورها ؟ ومن قابلت ؟ ولمـاذا

تزور غيرها من الاسر ؟ وتمكنت فى نهاية الامر من أن توطد علاقتها تماما بـ ١٧ اسرة ممثلة للشرائح الدنيا التى توثقت علاقتها بهم فى المنطقة (فقراء الحى) .

وقد ذكرت الباحثة انه بينما كان من اليسير عليها أن تتصل بالاناث والاطفال كان الامر صعبا بالنسبة للرجال الذين لم يكن من السهل أن تختلط بهم وتتعمق فى فهم دوافع سلوكهم بل كانت تتعرض كثيرا لمعاكساتهم.

وغنى عن القول أنها **عاشت احداث الحى يوما بعد يوم وعاشت حياة الاسر ساعة بساعة** ، ولحظة بعد لحظة .

والشكل التالى يوضح **اسلوب الاتصال** الذى اتبعته الباحثة والذى تكونت بمقتضاه مجموعة الاسر الفقيرة التى عايشتها الباحثة فى الحى المتخلف :

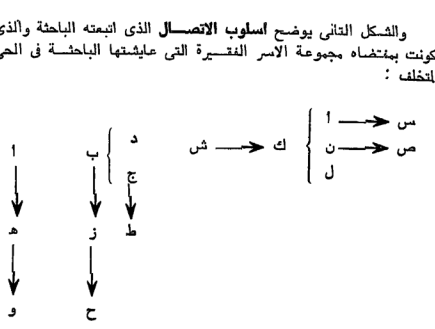

وقد بررت الباحثة انتقالها فى وقت لاحق الى شقة مستقلة برغبتها فى أستغلال وقتها على الوجه الامثل وهو مبررا يخفى رفضها للمعيشة داخل الحى ومشاركتها للفقراء وكانت تترك المنطقة مساء كل يوم لتسجيل ملاحظاتها الميدانية باستثناء بعض المناسبات التى استحسنت الباحثة أن تقضى امسياتها مع أسر المنطقة هذا بينما عزفت الباحثة عن تسجيل اى ملاحظات اثناء وجودها فى الميدان حرصا على عدم اثارة مخاوف الناس أو احساسهم بأن حركاتهم المعتادة محسوبة عليهم .

وقد درست الباحثة **الصراع** بين الناس فى الحى ، وسجلت كل ما

وقع تحت بصرها من الوان الشجار ، والشتائم ، وعراك الاطفال فضلا عن اداء الفروض الدينية فى المنزل ، والتزاور بين الاسر ... الخ .

وقد قامت الباحثة فى النهاية بمساعدة بعض الاسر الفقيرة من خلال تقديم الملابس والهدايا داخل الحى وذلك من واقع المساعدات التى حصلت عليها من السفارة النرويجية بالقاهرة ، كما سجلت الصعوبات التى قابلتها فى الميدان ومنهـا :

١ — معاكسات الرجال والاطفال لها التى كانت تصل فى بعض الاحيان الى حد توجيه الالفاظ الجارحة والنابية لها أو قذفها بالحجارة والخضروات الفاسدة .

٢ — الشك فى هوية الباحثة الامر الذى وصل فى بعض الاحيان — ولدى بعض الافراد — الى حد الاعتقاد بأنها جاسوسة (تريد أن تنقل ما تراه للعدو الصهيونى) .

٣ — تذمر اعضاء المجتمع المحلى ممن لم توزع عليهم الملابس والهدايا أو أولئك الذين ظنوا بأن غيرهم قد نالوا من المساعدات أو الهدايا أكثر منهم شخصيا .

نقد الدراسة والتعقيب عليها :

١ — ابدت الباحثة الانثروبولوجية امتعاضها الواضح من اساليب الحياة ومقومات المعيشة — كالطعام والنوم وغيرها من صور حياة الفقراء — فى المجتمع المحلى — ومع انه ليس من المفروض أن يحث الباحث الانثروبولوجى الناس على قبول الوضع الراهن أو يوصيهم بعدم السعى الى تحسينه فانه لا ينبغى من ناحية اخرى أن يبدى **تأففه وامتعاضه واحتقاره** لمجريات حياتهم المعيشية ، فالباحث هنا يدرس الشرائح الفقيرة وقد حدد هدفه من الدراسة فى التعرف على أساليب الحياة الاجتماعية والثقافية للفقراء حيث تذكر الباحثة :

«First I want to open the eyes....»
«to the bumilliating human conditions»
«Created by poverty : to show how»
«Poverty pervades and vulgarizes all»
«aspects of life .... and cripples»
«individual potential for development and happiness».

وهذا يعنى أن استخدامها لبعض العبارات الوصفية والتى تعبـــر فيها عن سوء الاوضاع يفسر امتعاض الباحثة فى الوقت نفسه الامر الذى يقلل من قيمة هذه الملاحظات مثل :

«The bed was full of fleas, and I itched like mad whilst being almost unable to move etc....»

It was not uncommon .. for the bread to fall into their children exrement etc.....

٢ ـــ اتسمت بعض اوصافها **بالعمومية والارتكاز على الاسلوب الروائى** دون أن تفصل فى وصف أنماط السلوك التى على أساسها توصلت الى مثل هذه الاحكام ففى ملاحظاتها عن الاثنين ٧ أغسطس ١٩٧٢ سجلت :

« يا الهى اننى مريضة متعبة من هذه الحياة » .
« مشاجرات وشائعات ... أفتراء ونفاق » .
« واعجاب بالنفس وتذارة ـــ بعض الصغار يتشاجرون » .
« الصياح يتصاعد فى كل مكان ... أصوات ومشاجرات » .
« لاتفه الاسباب بين الكبار والصغار حيث يختلط الحابل بالنابل » .
... الخ .

٣ ـــ كانت الباحثة **تؤجل** تسجيل ملاحظاتها الميدانية فى بعض الاحيان لعدة أيام ومن المعروف أن ذاكرة الباحث لا تستطيع أن تحتفظ بكل شىء فضلا عن أختلاط الوقائع خلال الفترة التى يتكاسل الباحث

فيهـا عن تدوين ملاحظاته الحقليـة اليومية مما يؤثر على دقة الملاحظات .

٤ — ذكرت الباحثة لافراد الاسر أنها تريد أن تتعلم اللغة العربية اساسا وأن هذا هو الهدف الحقيقى من احتكاكها بالمجتمع ومن المعروف أن هناك اخلاقيات Ethics بعينهـا ينبغى أن يتقيد بهـا البـاحث الانثروبولوجى . ولا يجوز له أن يخفى هويته وغرض بحثه الا فى احيان معينـة كالحرص على حياته كمـا فى حالة دراسة ومعايشة الجمـاعات المتطرفة او لحرجه ازاء بعض الموضوعات الحساسة كالسلوك الجنسى أو الشذوذ الجنسى ولا يجب أن يتورط البـاحث فى تضليل الناس بانتحال ادوار أو مكانات معينة أو بأن يعدهم بأن بوسعه أن يفعل الكثير دون أن يكون هذا فى مقدوره .

٥ — أن هـدف الدراسة الحقليـة فى مجـال الانثروبولوجيا الحضرية وانثروبولوجيا التنمية لا يتمثل فى تقديم بعض الملابس أو الهـدايا بصورة غير مدروسة فقـد يؤدى ذلك فى الواقع الى زيادة معاداة الناس للباحث — كما حدث بالنسبة للباحثة — لاحساسهم بانه لم تراعى العدالة الاجتماعية فى التوزيع ، ومن الممكن فى هذه الحالة أن يقوم الباحث بدراسة الشرائح الفقيرة دراسة تفصيلية — مع الارتكاز على معايير معينة فى تحديده لها لضمان عدالة التوزيع . أو أن يتولى مساعدة الناس من خلال **المؤسسات الرسمية** المحليـة القـائمة فى المجتمع المحـلى كما انه من المفضـل أن يستعاض عن المساعدات المادية الجزئية بامداد الاسرة بمشروعات انتاجيةتؤدى دورا اساسيا فى تحويل الاسر المعتمدة الى أخرى منتجة .

ومع هذا فان **الدور الجرىء** الذى قامت به الباحثة باستخدام تكتيكات الملاحظة بالمعايشة من خلال تعلم لغة المجتمع المدروس ، والاحتكاك بالمجتمع المحلى **والتعرف بالاسر والاتصال بها والحياة معها ورؤية الفقر وملابساته من خلالهم** ليس بالمهمة اليسيرة على وجه الاطلاق وبخاصة أن الباحث هنا سيدة **اجنبيـة** دخلت الى هذا المجتمع فى مرحلة حساسة من تاريخه (اتسمت بوجود ما يعرف بحرب الاستنزاف مع اسرائيـل والشك فىهوية الاغراب والاجانب ابان ذلك الوقت لاحتمال تحيزهم مع الطرف الاخر فى القتـال

الدائر بين اسرائيل والمجتمع المصرى) ممـــا اضاف الكثير من الشكوك على مهمـــة الدراسة الانثروبولوجية فى احـــد المناطق المتخلفـــة Slum Area بالمدينة حيث يسود الفقر ، والاميـــة ويزداد سخط الشرائح الدنيـــا نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التى يعيشون فى ظلها من ناحية وبطء عجلة التنمية الاجتماعية فى هذه الاحياء عنها فى باقى أجزاء المجتمـــع من ناحية أخرى .

وقد حاولت الباحثة كذلك المقارنة بين هذه الدراسة الحقلية فى مصر وتلك التى اجرتها فى عمان خلال عام ١٩٧٤ .

(*) أنظر :
Unni Wikan .. life Among the poor in Cairo .. TABISTOCK publications.

الفصل السادس

« الانثروبولوجيا الصناعية »

الانثروبولوجيا الصناعية هى دراسة الظواهر المرتبطة بالتصنيع والمدن الصناعية باستخدام المناهج والادوات المتعارف عليها فى علم الانثروبولوجيا .

ولا جدال أن الانثروبولوجيا قدترددت طويلا قبل أن تحاول اقتحام ميدان المجتمعات الصناعية المعاصرة فقد ظلت الانثروبولوجيا فى تعلقها «الرومانسى » بدراسة المجتمعات البدائية والبلدان المتخلفة اقتصاديا ولعل هذا يفسر العبارة التى قالها مالينوفسكى Malinowski تلميذه رشاردز Richards : « انه من الجدير به أن يهتم بدراسة الحياة البدائية لا الحضرية » (١) .

ففى المجتمعات البدائية يتوفر التجانس والعزلة والترابط والعلاقات القرابية الوثيقة بينما يؤدى التصنيع والتحضر الى زيادة الحراك ويتسع المجال للمزيد من التحولات فى البناء الاجتماعى (٢) . وقد وجد علماء الانثروبولوجيا الذين صرفوا النظر طويلا عن الدور الحيوى الذى يلعبه **التغير الاجتماعى** — فى المجتمعات المحلية الصغيرة المنعزلة — من واجبهم التركيز على **التغير البنائى** الذى يعد من أبرز المظاهر فى المجتمعات الصناعية الحديثة ولذا اهتم هؤلاء العلماء **بالهجرة** الى مناطق الصناعة والعلاقة بين عمال الصناعة ومواطنهم الاصلية والعلاقة بين البدنات الاصلية والفئات العرقية الوافدة الى المناطق الصناعية ، والتحول الذى يلحق **البناء التقليدى** نتيجة لدخول الصناعة ، وقد ثبت معظم هذه الدراسات الحقلية فى مجتمعات العالم الثالث وقادها بعض الرواد أمثال : ميشيل Mitchell (٣) ، سوثال A. Southall (٤) ، بانتون M. Banton (٥) ، روث بندكت R. Benedict (٦) ، كينت ليتل K. Little (٧) ، وغيرهم من العلماء .

وبينمـــا ذهب أصحاب المذهب التطورى أو الارتقائى Evolution الى أن المجتمع الصناعى بشكله الموجود فى غرب أوربا يمثل قمة التطور (٨) اعتقد أصحاب المذهب الانتشـارى diffusionism أن الانتشار الثقافى يتم من المنـــاطق المتقدمة صناعيا والاكثر رقيـــا الى تلك التى تفتقـــر الى خصائص التصنيع ، ويحثنا هذا الاتجاه على الاعتماد على **التـــاريخ** لمعرفة نوع التغيرات التى تحدث دائما عن طريق الاحتكاك ودراسة الاتصال بين الجماعات المتباينة وبخاصة لدى الجماعات القبلية فى افريقيا والتى تمـــر الان بعملية تحول سريع ، ويرى البعض ضرورة **اعادة تركيب الاوضاع** التى كانت سائدة قبل ان تطرأ المؤثرات الخارجية أو تحـــديد ما ســـمى « **بنقطة الصـــفر** » zeropoint لتحديد الاحداث اللاحقـــة عليها حيث تتفـــاوت استجابة المجتمعات المحلية لهذه المؤثرات بين المحافظة قـــدر الامكان على الكثير من الملامح التقليدية وبين محاولة أكتساب ملامح النمط الصناعى (٩) .

والتصنيع بالنسبة للدارس الانثروبولوجى لا يدل على نوع التنظيم الاجتماعى الذى يســـود بواسطة المصـــانع على مدى متسع فحسب بل يعنى كذلك جميع آثار المجتمعية التى تلحق البناء الاجتماعى نتيجة لدخول الصناعة . فالتصنيع يدل **على الآثار السياسية والديموجرافية والاقتصادية التى تنتج عن التغيرات التكنولوجية فى مجال الانتاج** حيث تتضمن هذه الاثار — من بين أشياء أخـــرى — وجود السوق « المفتوح » والســـعى الرشيد للحصول على الربح ، وازدياد أهمية المنظمات والهيئات الرسمية ، وانتقال الاهمية الاقتصادية الى السوق ، وظهور المدن الصناعية ومرونة الحـــراك بين الطبقات .

والتصنيع يشير على هذا الاساس الى **القطاع الثـــانى** من قطاعات الانتاج الذى يتضمن الاستخدام المنظم للقوة الالية للانتـــاج فى مؤسسات « كبيرة » الحجم تقوم على التخصص وتقسيم العمل وهو يؤدى الى اتساع مجال السوق والى التطور فى النواحى الانتـــاجية والى ازدياد نســـبة من يعملون بالحرف الصناعية (وبخاصة المهن الفنية التى تستلزم قـــدرا من التعليم والتدريب المهنى) والى ازدياد التعامل بالاجر النقدى ، ومن ازدياد التخصص الصناعى قد يشتهر المجتمع المحلى بصفة عامة بانتاج صـــناعة أو صناعات معينة .

كما يزداد أتصاله بغيره من المجتمعات المحليـــة لتسويق المنتجـــات

الصناعية أو استيراد المادة الخام غير أن هذه المؤشرات لا يمكن أن تفهم فى عزلة عن البناء الاجتماعى الذى تعمل من خلاله .

وقد حاول البعض دراسة التصنيع باستخدام « **النماذج** » (المجتمعات القديمة أو الحديثة) ومن أمثلة هؤلاء أنتونى ليدز Leads الذى قدم تحليلا تاريخيا للمجتمات فى عدة أنماط على النحو التالى :

أ — **مجتمعات زراعية توسعية** ذات اقتصاديات زراعية أساسا كامبراطوريات الشرق الادنى فى التاريخية .

ب — **مجتمعات زراعية تقليدية** تتميز بالاقتصاد الزراعى واشكال التكنولوجيا البسيطة ومن أمثلتها دول أمريكا اللاتينية قبل الحرب الثانة .

د — **مجتمعات صناعية مستمرة** فى تقدمهـا وتتميز بالتخصص والنشـاط الانتاجى ومن أمثلتها اليابان ودول غرب أوربا .

د — **الدول الصناعية « الاستاتيكية »** .

وقد حاول ليدز تطبيق هذا النموذج على البرازيل . وهو يعتقد أن المجتمعات المتخلفة صناعيا تمر الان بعملية تصنيع (ثانوى أو تابع) أمـا مراكز التصنيع الاساسية فتتمثل فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية حيث حقق الانسان عن طريق التصنيع أهدافه المرغوبة ، وخلال فترة تنميـة هذه البلدان كانت مشاركة بقية دول العـالم تتمثل فى كونهـا أسواقا فقط وهذه المشاركة الهامشية لم تحدث الا تغيرا ضئيلا فى بنياتها الاجتماعية .

ويذكر آدامز Adams أن التصنيع قد انتشر خارج مراكز نشأته بعد الحرب الثانية بصفة خاصة بما صاحبه من تغيرات واسعة النطاق غير أنه يلفت النظر الى أن النظام « الرأسمالى الغربى » من جهة و « الاشتراكى » من جهة أخـرى لا يمثل بالضرورة أفضل ما يمكن أن تصبو اليـه البلدان النامية (١٠) .

(*) وهو مقولة منطقة لبعض الدول الصناعية المتقدمة والتى تتميـز بالتوازن بين أهدافها ومواردها .

غير أن الاهمية التى يلعبها التصنيع فى تحويل البيئات الزراعية الى أخرى صناعية وظهور سلسلة من الاثار اللاحقة فى الانساق « التقليدية » قد شجعت العلماء الذين اهتموا بموضوع التغير أن يتخذوا من التصنيع نقطة انطلاق **لدراسة الاثار الاجتماعية والتغيرات اللاحقة له** وعلى الاخص بالنسبة للقيم المرتبطة بالتنمية الاقتصادية والحراك الاجتماعى حيث اهتموا بآثار التصنيع على التنظيم الاقتصادى وانعكاس هذا التأثير على النسق **الديموجرافى والايكولوجى** والانساق التقليدية بصفة عامة (١١) ومن بين هؤلاء العلماء فوستر G. Foster (١٢) الذى اهتم بدراسة آثار التكنولوجيا الصناعية على نسق القيم فى المجتمعات « التقليدية » .

وفى حالة التركيز على المدن الصناعية ينصب الاهتمام عادة على المناطق الصناعية المحدودة التى يفترض تماثلها مع المحليات والقرى الصغيرة — التى نعرفها — حتى يمكن دراستها تمشيا مع المدخل الانثروبولوجى — بنفس الطريقة (١٣) .

ويذكر ابراهامسون M. ABRAHAMSON (١٤) أن التصنيع يشير الى زيادة استخدام القوة البخارية ومصادر القوة الجامدة بالمقارنة بمصادر القوة الانسانية والحيوانية (المرتبطة بالانتاج قبل الصناعى) وأن التحضر كذلك يشير الى نسبة السكان الذين يعيشون فى الحضر فان كلاهما يتضمن — من وجهة نظره — حراك الناس من المهن الزراعية الى المهن غير الزراعية والصناعية مع شيوع الاجر النقدى (وبخاصة فى المجال الحضرى) بما يواكبه من آثار **كالحراك الاجتماعى ، واختفاء الاسرة الممتدة وتغير التنظيم الاجتماعى** ، وهو يعتقد أن التصنيع والتحضر فى غرب أوربا ينطلقان معا (*) ولكن العلاقة بينهما فى دول العالم الثالث غير واضحة حيث يسبق التحضر التصنيع فى بعض الاحيان وينتج عن ذلك ازدحام وفقر المدن التى تنمو فى الحجم (لا فى فرص العمل) ومع ذلك فان العلاقة التاريخية بين التحضر والتصنيع قوية (*) حتى أننا ز ٠راسة نتائجها يصعب علينا أن نذكر متى

(*) يستشهد ابراهامسون بالمؤشرات الدالة على التصنيع والتحضر التى وضعها Cutright وتتضمن التطور التكنولوجى وزيادة معدل التعليم ونقص حجم الاسرة ، وبالتحليل الذى قدمه Williams, Bell, Shevky عن المكانة حيث تنعكس آثار التصنيع فى زيادة تقسيم العمل وتنعكس آثار التحضر فى زيادة عدد الاناث فى قوة العمل وفى انخفاض معدل المواليد .

ينتهى الواحد ويبدأ الاخر فهما يؤديان معا الى زيادة معدل الهجرة وازدياد النمو السكانى .

ويتفق جـوبرج Sjoberg مع ولكنسـون Wilkinson فى ارتبـاط التصنيع بالتحضر مما يؤدى الى تضخم المدن فى الدول الاخذة بالتصـنيع باكبر من معدلها الطبيعى (١٥) .

ويعتبر التصنيع اساس تطوير الاقتصاد الوطنى وضمان أسـتقلال البلاد وتعزيز قوتها الدفاعية والطبقة العـاملة فى الصـناعة هى الطبقة (الطليعيـة) فى المجتمع التى تقـود « الفـلاحين والحرفيين وغيرهم من الكادحين » فى طريق التقدم (١٦) .

وقـد اهتم اتبـاع الانثروبولوجيا التطبيقية بالانتفـاع بالمعـرفة الانثروبولوجية لخدمة قضايا التنمية فى المجتمـع والتعرف علىالتحـديات الثقافية التى تقف عائقا أمام التنمية الاقتصادية والصناعية فى بعض هذه المجتمعات ، وبينما حاول البعض أمثال ايفانز برتشارد الكشف عن حقيقة استغلال الانثروبولوجيا التطبيقية بواسطة الادارة الاستعمارية حذر البعض الاخر من المبالغة فى توجيه هذا الاتهام (١٧) .

وينظر البعض امثال بيلز وهويجر (١٨) الى ضروب التنمية الصناعية التى تقدمها الدول المتقدمة صناعيا للدول المتخلفـة صناعيا باعتبارها من اشكال « **الاستعمار الجديد** » أو تعويضا عن الظلم السابق التى تعرضت له هذه البلدان ومن بين ما استشهدوا به من أدلة ما ذكره الرئيس ترومان من أن مساندة الولايات المتحدة للدول المتخلفة تهدف الى أن تأخذ بيـدها لبلوغ مستوى التقدم بمعناه المألوف فى الولايات المتحدة نفسها .

وقد تبنى معظم علماء الانثروبولوجيا الاجتماعيـة الاتجـاه الوظيفى Functionalism كاستراتيجية مناسبة للدراسة (١٩) .

واستأثر التصنيع والتغير الثقافى باهتمام بعض رواد هذا الاتجـاه امثال مالينوفيسكى Malinowski الذى حاول استجلاء آثـار التصنع على بعض المجتمعات المحليةالقروية فى افريقيا (٢٠) .

ويهتم أنصار هذا الاتجاه بدراسة التصنيع فى ضوء علاقته بالسياق الجتمعى للمجتمع المحلى فقد أوضح ارنسبرج وكيمبال Kimball أن العلاقة بين التصنيع والمجتمع المحلى علاقة دينامية أذ بينما يؤثر المجتمع المحلى على التنظيم الاجتماعى فى الصناعة يؤثر هذا التنظيم الصناعى بدوره على البناء الاجتماعى فى المجتمع المحلى فالتصنيع والمجتمع يشبهان « متصلا » بحتلا لتصنيع أحد أطرافه والمجتمع المحلى الطرف الاخر ولا يتسنى دراستهما الا بترجمة هذا « **المتصل** » الى مجموعة من أنماط السلوك التى يسهل قياسها .

وقد ازداد اهتمام علماء الانثروبولوجيا بدراسة التصنيع بعد التحول الكبير من دراسة المجتمعات الصغيرة المنعزلة الى المجتمعات الصناعية الكبيرة فتكونت **جمعية الانثروبولوجيا التطبيقية** عام ١٩٤١ ، وقد اخذت هذه الجمعية تهتم منذ ذلك الوقت بنشر الدراسات التى تدور فى المجال الصناعى ، وتبلور هذا الاهتمام على يد Warner وعلماء جامعة شيكاغو ، ومن ثم ازداد اهتمام بعض علماء الانثروبولوجيا بدراسة البناء الاجتماعى فى مجتمعات صناعية حديثة وبمعايير الضبط الاجتماعى بها كما ازداد الاهتمام بدراسة التحولات الحديثة فى الانشطة الاقتصادية وفى نمط العلاقات فى المجتمعات الصناعية والنظم الاجتماعية المتشبة مع التقدم التكنولوجى (٢١) فيها ويرجع الفضل لعلماء الانثروبولوجيا فى الاهتمام أساسا بالمجتمعات غير الغربية وعلى الاخص مجتمعات العالم الثالث فقد اهتم هاوسر على سبيل المثال (٢٢) بدراسة العلاقة بين التصنيع ونمو المدن فى آسيا وتوصل الى أن التصنيع قد أدى الى حراك القوة العاملة من الانتاج الاولى (الزراعة) الى الثانوى (المهن غير الزراعية) وبخاصة فى القطاع الثالث (أو ما يعرف بقطاع الخدمات) .

ولعل الفترة التى تلت الحرب الاولى قد شهدت بصفة خاصة ازدياد الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية الحقلية فى المجتمعات الصناعية أما الفلسفة التى بدأت تقف وراء هذا الاهتمام فتمثلت فى الرغبة فى الانتفاع من المفاهيم والاساليب وأدوات البحث التى يستخدمها علماء الانثروبولوجيا فى دراسة هذا النوع من المجتمعات الانسانية (٢٣) مادام التصنيع يؤدى الى تحولات هامة فى البناء الاجتماعى للمجتمع تستحق الدراسة (٢٤) ولعل الحافز الى ذلك يكمن فيما وصفه روبرت ردفيلد بقوله « ومع نمو وانتشار الحضارة تمتد العلاقات الانسانية خارج المجتمع المحلى وتفقد الكثير من تماسكها وانسجامها كما هو الحال عندما تتطور وتنمو ميادين النشاط الصناعى » (٢٥) .

والتصنيع والتحضر أيضا يشبهان غيرهما من الظواهر فى أنهما لا يعملان فى عزلة عن باقى عوامل التغير الاجتماعى محلية وقومية ودولية ومن ضرورات الدراسة فى هذه الحالة استجلاء هذه العلاقة التفاعلية وتفسير صور التغير البنائى فى مجتمعات صغيرة الحجم نسبيا اذ يرتبط التصنيع مع مختلف أوجه النشاط الاقتصادى والديموجرافى والسياسى ، ولا يغيب عن الذهن أنه منذ قيام الثورة الصناعية ازداد الاتصال بين الدول وتشابكت علاقاتها ولم تصبح الاسواق قومية فحسب بل بدأت تأخذ الطابع الدولى لكثرة الاتصال بين الدول وتشابك علاقتها الاقتصادية فى الوقت الحاضر (٢٦) .

امثلة لبعض الدراسات الحقلية :

١ ــ دراسة لويد وارنر (٢٧) :

اشتهر وارنر بدراساته وابحاثه الحقلية فى المجال الصناعى وترجع شهرته اساسا الى دراساته التى اجراها فى الولايات المتحدة فى الاربعينيات من هذا القرن عن مدينة Yankee City وتقع هذه المدينة فى ولاية « نيو انجلند » حيث كانت تضم حوالى ١٧ الف نسمة .

وقد قام وارنر بدراسة عمال الاحذية فى المدينة وذلك بهدف القاء الضوء على **النسق الاجتماعى للمصنع** من ناحية والعلاقة بين الصناعة والمجتمع المحلى الذى توجد فيه من ناحية اخرى .

وقد استخدم الباحث المدخل الانثروبولوجى واستعان بعدة وسائل لجمع البيانات من المجتمع **المحلى والمنظمات الرسمية وغير الرسمية الى جانب النقابات والاتحادات** وساعده ذلك على الخروج بواحدة من الدراسات الرائدة فى هذا الميدان (*) .

(*) سبق أن اشترك لويد وارنر فى ابحاث هاوثورن التى قام بها مايو كما سبق له أن استعان بالاتجاه الانثروبولوجى فى دراساته الحقلية فى استراليا وايرلندا .

ويمكن ايجـــاز **اهم النتائج** التى خرج بها من دراسته فى النقـــــاط الاتيـــة :

أ ـــ قدم وارنر صورة صادقة **للبناء الاجتماعى** فى المدينة وقد وضع عـــدة مؤشرات لتحديد الوضع الطبقى والتدرج الاجتماعى كالتعليم المهنى ، الملكية ، الدخل ومكانة الأسرة والاصدقاء والنادى الذى ينتمى اليه الشخص علاوة على ما يتسم به من الخصائص الاخرى الشخصية والسلوكية ، وقد تمكن وارنر Warner التمييز بين عدة **طبقـــات اجتماعية واقتصادية** هى :

العليا العليا ، العليا السفلى ، الوسطى العليا ، الوسطى السفلى ، الدنيا العليا ، الدنيا السفلى .

ب ـــ اكتشف أن نصف سكان المدينة على وجه التقريب ينتمون الى عـــدة قوميات حيث يمكن تقسيم سكان المدينة الى ١٠ **جماعات** هى :

جماعة يانكى سيتى ، الايرلنديين ، الفرنسيين ، آلبهود ، آلايطاليين ، البولنديين ، اليونانيين ، الارمن ، الروس ، والزنوج .

جـ ـــ أستنتج وارنر أن هناك عدة **فئات مهنية** ومنهـــا على سبيل المثـــال الموظفين ، العمال المهرة ، أصحاب الورش الصغيرة ، العمال شبه المهرة ، العمال غير المهرة .

د ـــ ابرز وارنر الدور الذى لعبته **الطبقة العليا** حيث تمكنت من السيطرة على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية واستحوذت على بناء القوة فى المدينة .

هـ ـــ كانت المدينة تقوم أساسا على صناعة الاحذية باعتبارها عماد النشاط الاقتصادى فيها وقد ادى استخدام **الالات الصناعية** (الحديثة) الى حدوث تغيرات فى البناء المهنى (الكلاسيكى) مما ادى الى القضاء على التدريب الحرفى (التقليدى) وأصبح العمال المهرة **نصف مهرة** ازاء التغيرات التى طرأت فى النسق الحرفى .

و — استشعر Warner منذ بداية قيامه بالدراسة أن العمال يبذلون الجهود التى ترمى لتوحيد صفوفهم كما قاموا بتكوين نقابة عمالية للدفاع عن حقوقهم (وتكتلوا للدفاع عنها ضد ادارة المصنع) وبدأ اضرابهم الفعلى سنة ١٩٣٣ حيث اضطرت الحكومة للتدخل لانهاء الصراع القائم عن طريق التفاوض مع العمال .

ز — لم تفت وارنر هذه الفرصة فقام بدراسة الظروف المصاحبة للاضطرابات كظاهرة من ظواهر الصراع الدائر بين العمال واصحاب الاعمال .

ح — اكتشف وارنر أن أصحاب الاعمال قد ابتعدوا عن السكنى بجوار محال عملهم مما ادى الى تحول العلاقة التى تربطهم بالمدينة الصغيرة الى (علاقة ثانوية) وأصبح قادة النقابة فى الموقف الجديد هم المثل الاعلى للعمال (بدلا من أصحاب العمل) .

ط — لم تعد للمدينة الصناعية مكانة اقتصادية عالية وانخفضت كذلك مكانة المصنع فى المجتمع المحلى وأدت الاضطرابات الى اضعاف الادارة وتزكية الروح النقابية بين العمال .

تعقيب :

برغم الشهرة الواسعة التى اكتسبتها دراسة وارنر والثراء الحقيقى الذى اتسمت به فى توصيفها للواقع الاجتماعى الا أنها أفاضت فى تبسيط **ظاهرة التدرج الاجتماعى** فى المجتمع الامريكى بالصورة التى توحى بأن فى وسع افراد الطبقة الدنيا (الدنيا) أن يصعدوا (سريعا) الى الطبقة العليا (العليا) متى توفرت لهم السمات الشخصية والظروف الاجتماعية والمهنية المناسبة ، ولكن الواقع ليس بهذه البساطة التى يفترضها وارنر فى وصفه للمجتمع (الرأسمالى) الغربى كما أن الامر لا يتوقف على الخصائص الشخصية فحسب بل على جماعات المصلحة فى المجتمع الامريكى .

٢ — دراسة كوترل (٢٨) :

ومن بين الدراسات التى لا يسوغ اغفالها الدراسة التى قام بها كوترل Cottrell لمدينة Caliente Nevada وهى مدينة صحراوية

صغيرة شيدت كمحطة لخدمة قاطرات السكك الحديدية وكان الباحث يهدف من هذه الدراسة اكتشاف رد الفعل ازاء التكنولوجى بعد أن فقدت المدينة الاساس الاقتصادى لوجودها (حيث افترض كوترل أن مدينة كالينت فى طريقها الى الذبول بعد أن بطل استخدام الفحم الحجرى وبدأ استخدام الديزل) ولعل هذا هو السر فى انه أطلق على دراسته المنشورة عن المدينة عنوان Death by Dieselization وقد استعان بالاتجاه الانثروبولوجى مستخدما النظرة الضيقة حيث اعتبر المدينة بمثابة حالة Case وخرج من دراسته بعد نتائج يمكن اجمالها فيما يلى :

ا — أن المدينة كانت تتميز بامتدادها العمرانى وجذبها لمختلف التخصصات للعمل فى صيانة القاطرات وازدهر فيها بالتالى النشاط الصناعى والتجارى والخدمات .

ب — استمرت المدينة قائمة على اساس صيانة القاطرات حتى بطل استخدام الفحم الحجرى وبدأ استخدام الديزل فتغيرت الوظائف الاقتصادية لهـا .

جـ — تعرضت المدينة لمجموعة من التغيرات الاجتماعية كان ابرزها هجرة الرجال (الى خارج المدينة) وذلك بهدف البحث عن موارد أخرى للعيش (وقد ظهر هذا بصفة خاصة بالنسبة لكبار السن) وهكذا ازدادت عزلة المدينة نتيجة للتغيرات التكنولوجية التى افقدت المدينة عن نشاطها الاقتصادى التقليدى .

د — تغيرت بالتبعية العلاقة التى تربط المدينة بالمجتمع الاكبر نتيجة للتغيرات العنيفة التى اجتازها المجتمع المحلى . وهى النظرة الماكرو التى تربط المدينة بالمجتمع الاكبر .

تعقيب :

تعد دراسة كوترل من الدراسات الهامة التى درست العلاقة بين المجتمع المحلى والتغير فى التكنولوجيا الصناعية (التى يعتمد عليها المجتمع المحلى) وان كان كوترل قد اسهب فى وصف عزلة كالينت بريشة الاديب اكثر منها بلغة الدارس (لوصف العلاقة بين التصنيع والمجتمع المحلى) .

٣ ــ دراسة جريسى :

وهى دراسة لاحد الاقاليم المنعزلة فى Kentuchky (٢٨) ويتلخص الهدف الاساسى للبحث فى دراسة **اثر دخول صناعة التعدين الى احد الاقاليم المنعزلة** ، حيث كان التساؤل الرئيسى هو ماذا يحدث عندما يتعرض احد المجتمعات المنعزلة لتغيرات اجتماعية واقتصادية مفاجئة ؟ وقد اعتبر جريسى E. Greesey ان المجتمع المحلى وحدة متغيرة ، وحاول تحليل وضعه قبل وبعد غزو المنجم والصناعة للمنطقة .

وقد خرج جريسى ببعض النتائج ويمكن اجمالها فيما يلى :

ا ــ كانت الاسرة والمجتمع المحلى تكونان ما ركائز استقرار المجتمع التقليدى وكان النسق القرابى يدعم هذا الاستقرار بما يقدمه من دعائم العلاقات المتبادلة غير الرسمية حيث كان هذا الاقليم المنعزل الجبلى يفتقد الى دعائم الاستقرار والتدرج الطبقى (المعروف فى المجتمعات المحلية الريفية التى تعيش على الزراعة) .

ب ــ **تحرر افراد المجتمع المحلى** من الكثير من الروابط والعلاقات التقليدية (نتيجة لدخول الصناعة) بينما فشل التغير الاجتماعى فى الوقت الراهن فى امدادهم ببدائل كافية مما ادى لازدياد معدل الجريمة وانحراف الاحداث وازدياد معدل الطلاق .

جـ ــ ادى التصنيع الى **تهديد التنظيم الاجتماعى التقليدى** بينما فشل فى

ارساء الدعائم الجديدة للاستقرار (ويعتقد جريسى بأن هذا هو حال التصنيع فى معظم بلدان جنوب افريقيا والهند الصينية والشرق الادنى والوسط) .

د — تحويل الاقتصاد (المعيشى) المكتفى ذاتيا للمجتمع المحلى الى آخر أكثر أعتمادا على **الاقتصاد والاجر النقدى** والانتفاع (العينى) كما ازداد تبلور البناء الطبقى فى المجتمع المحلى فى (طبقة الرؤساء وطبقة العمال) .

هـ — تسود الان علاقات **التنافس والاستقلال** بدلا من التعاون المتبادل ، وادى هذا الى تحطيم التماسك الاجتماعى (التقليدى) تحت ضغط التصنيع .

وغنى عن القول أن جريسى قد اهتم بالنظرة الضيقة للمجتمع المحلى دون أن يركز كذلك على النظرة المتسعة التى تربط هذا المجتمع (المنعزل) بالمجتمع الاكبر ، وبعبارة أخرى فقد استنتج الباحث أن التصنيع قد أدى الى تهديد التنظيم الاجتماعى القائم للمجتمع المحلى ، وكان بوسعه أن يتتبع نمط العلاقة بين المجتمع المحلى والمجتمع القومى ، ومع أن التصنيع فى حالتنا هذه — يعد المثل الشرعى للمجتمع الخارجى فى تأثيره على المجتمع المحلى — الا أنه من الصعوبة بمكان أن نعزى كل التغيرات التى تحدث فى المجتمع المحلى للتصنيع (وحده) دون غيره من المتغيرات .

الدراسات الحقلية فى المجـال الصناعى

اولا ــ الورش الصـناعية فى مصر :

الدراسة التى بين ايدينا تتناول **البناء الاجتماعى للورشة فى احـدى المناطق الصناعية** (مدينة الاسكندرية) وقد قام بهذه الدراسة الحقلية قسم الانثروبولوجيا ، وقسم الاجتماع والمعهد العالى للخدمة الاجتماعية بجامعة الاسكندرية بالتعاون مع مؤسسة كونارد اديناور بالمانيا الاتحـادية (التى قامت بتمويل **الدراسة فى مراحلها المختلفة**) وتهدف الدراسة الى التعرف على بنية الورشة والى تحديد موقف المجتمع من هذه المؤسسات الصناعية الصغيرة واتجاهات أهالى المدينة نحو العمل اليدوى .

وقد بدأت الدراسة الحقلية بمرحلة **استطلاعية** وذلك فى منطقة كوم الناضورة باعتبـارها تضم تجمعات عمالية عـديدة تشـتغل فى الورش الصناعية ، وورش الحـدادة فى منطقة باب شرقى ، وقـد واكب اجراء الدراسة الاستطلاعية عملية مسح للاسر والدحدات الحرفية فى منطقـة كوم الناضورة وباب شرقى . وتضمنت الدراسة الاسـتطلاعية مسـحا لايكولوجية المنطقة يشمل التعرف على الحـدود الادآرية وأهم الشوارع والاحياء (الصغيرة) بخصائصها العمرانية المتميزة التى ستجرى فيهـا الدراسة الميدانية .

وقد اعتمد الباحثون فى جمع المـادة الاثنوجرافية على عدة شرائح مهنية ، منهـا :

ا ــ اصحاب الورش .

ب ــ الاسـطوات .

جـ ــ العمال المبتدئون والصبية .

وقد ركز الباحث على الورشـة فى المدينـة الصناعية المتروبوليتانية

(الاسكندرية) والورشة كما عرفتها الدراسة عبارة عن **وحدة انتاجية صغيرة** تقوم فى دكان يعمل فيه « أسطى » يعاونه اثنين أو ثلاثة من العمال وعدد من « الصبية » وهذا النمط الانتاجى نجده ليس فقط فى مجال الحرف الصناعية بل وكما حددته الدراسة الانثروبولوجية يشمل المجال التجارى الذى يخدم هذه الحرف أيضا ويتمثل فى عشرات (الدكاكين) الصغيرة التى تفتقد الى رأس المال الكافى واذ ذاك فان هذه الورش تعتمد على الادوات التقليدية فى العمل دون الالات الحديثة .

اما العمل الميدانى الذى استخدمت فيه الملاحظة بالمشاركة لدراسة البناء الاجتماعى Social structure للورشة فقد قام به ٥ من الباحثين تحت اشراف بعض أعضاء هيئة التدريس بقسم الانثروبولوجيا جامعة الاسكندرية (١) .

وقد تضمنت **الدراسة الايكولوجية** محاولة تحديد الانشطة الحرفية وتجمعات الورش فى منطقة الدراسة كما افادت هذه الخطوة من خطوات الدراسة فى تعريف الاهالى بماهية الدراسة الانثروبولوجية والاتصال بهم والتغلب على سوء فهم أفراد المجتمع المحلى لطبيعة الدراسة لئلا يتعطل سير العمل الميدانى فى هذا المجال نتيجة لذلك .

وقد اعتمدت المرحلة التالية على **الزيارات والمقابلات** حيث يقوم باحثان معا بالعمل فى الورشة الواحدة ، مما ادى الى توفير الظروف الملائمة لبقاء الباحثات فترات طويلة من اليوم بالورشة للقيام بالملاحظة وقد بلغ عدد الورش التى تمت دراستها فى **كوم الناضورة** ٣٨ ورشة تتضمن الحدادة والخراطة وسمكرة السيارات والطباعة ... الخ .

أما الورش التى تمت دراستها فى **باب الشرقى** فقد بلغ عددها ٢٤ ورشة كذلك موزعة على مختلف التخصصات .

وقد أفلحت الملاحظة بالمعايشة فضلا عن الحوار التلقائى مع العمال واصحاب العمل فى جمع بيانات تفصيلية عن :

---

(١) أنظر د. محمد عبده محجوب — تقرير حول الدراسة الانثروبولوجية للبناء الاجتماعى للورشة فى مدينة الاسكندرية فى المؤلف الذى قدم له د. أحمد أبو زيد جامعة الاسكندرية بدون تاريخ .

— موقع **الورشة** وعلاقتها بالمنطقة ونوع المبنى .

— مقومات **العمل** فى الورشة واتجاهات العمال نحو العمل اليدوى .

— نوعية **اصحاب الورش** .

— التدرج **الاجتماعى** للمهن .

— روافد **العمالة** واختيار الصبية ومدى الاستعانة بالفئات المتعلمة .

— علاقات **العمل** داخل الورشة ، وتقسيم العمل .

— مشكلات **التدريب** والغياب والاصابات .

— مشكلات **الضرائب** والتموين والتأمينات الاجتماعية .

— الخدمات **الاجتماعية** للعاملين بالورشة .

— الورشة **والتنظيمات غير الرسمية** خارج مجال العمل .

— خصائص **الجمهور** الذى يتعامل مع الورشة واسلوب التعامل .

— التطورات **الفنية** فى مجال الحرفة .

بعض نتائج الدراسة الحقليـة :

ا — اتضح أن **الوراثة** تلعب دورا كبيرا فى تملك الكثير من الشبان للورش (بعد وفاة الوالد) كما أن هناك بعض العمال الذين هاجروا للبلدان العربية فتحولوا من عمال الى أصحاب ورش ، وقد تتبع فريق البحث صورا لتنافس الصراع بين الورش التى تعمل فى أطار الحرفة نفسها .

ب — أبرزت الملاحظة الفعلية لعمال الورش ان بعض الظروف الاجتماعية كارتباك الظروف الاسرية نظراً لوفاة الوالد أو زواجه الثانى أو كثرة

المسئوليات الاسرية والفشل فى التعليم وغيرها تتحكم فى توجيه الصبية للعمل اليدوى فى الورش الصغيرة .

جـ — أمكن من خلال المشاركة المتعمقة — فى هذا المجال — اكتشاف أن كثير من عمال القطاع العام قد أيدوا استعدادهم **للعمل بورش القطاع الخاص** لفترات محدودة وانهم لا يشكلون عبئا على أصحاب الاعمال فيما تعلق بالتأمينات الاجتماعية والضرائب (حيث يعمل معظمهم بعد الظهر أو مساء) أو يقومون بالعمل فى المنزل على أن يأجور تقل عن تلك التى يتقاضاها العمال الذين يعملون بالورشة كل الوقت .

د — اتضح من الدراسة الميدانية أن **الصراع الحرفى** داخل الورشة تسلم المصنوعات لاصحاب الورش ، وهم يرضون فى المقابل يتمثل فى تنافس « الاسطوات الكبار السن والصنايعية الشبان » (حيث يحاول انصنابعى أن يحقق ذاته معتزا بقدراته على العمل الشاق ، وتضحيته بالسفر للخارج مما يمكنه من الحصول على دخل مرتفع وهم يرغبون عادة فى الاستعانة بأدوات انتاج متطورة بينما يتقدهم الاسطوات الكبار لافتقادهم للصبر والخبرة والامانة فى العمل ، والقدرة على الابتكار كما أنهم منغمسون — من وجهة نظرهم — فى الملاهى وغير منضبطين فى مواعيد أعمالهم .

هـ — يحكم علاقات العمل بالورشة **نظام « هيراركى »** للتدرج يتمركز فى أعلاه « الاسطوات » ولهم وضع مميز بالنسبة لبقية العمال والمساعدين والصبية ، والاسطى فى ورش ميكانيكا السيارات على سبيل المثال لا يقوم بالعمل بنفسه ولكنه يكتفى بالفحص المبدئى ويقدر تكاليف الاصلاح ثم يصدر تعليماته بمهمة الاصلاح وتفصيلاتها للعمال ، ويقوم الصبية بمناولة أدوات العمل واحضار الشاى والطعام كما يتعرضون فى حالة التقصير للشتم والضرب ، وهذا التدرج الهيراركى يتضح كذلك فى اختلاف الاجور كما يعكس اختلاف الخبرة والمهارة داخل الورشة .

و — يكون العمل داخل الورشة **عادة « بالمقطوعية »** فالعامل يتقاضى اجره حسب انتاجه وبخاصة فى مجالات التجارة والخراطة وصناعة الاحذية — وهنا يحاول العامل أن يقضى أطول وقت ممكن بالورشة

تحقيق دخل مرتفع . بينما يغبط أصحاب الورش والعمال عمـــال الحكومة (الذين يعملون فى ساعات قليلة ومحدودة ويتمتعون بأجازات كثيرة) .

وتتحول الورشة فى الحقيقة الى **وحدة اجتماعية** يرتبط فيهـــا صاحب الورشة والعمال بعلاقات وثيقة فهم يتناولون الطعام (معا) ويجلسون (معا) فى أوقات الراحة من العمل ويتبـــادلون الزيارات والتهانى والتعـــازى مما يؤدى الى تكوين وحـــدة مصالح قوية بينهم كما تتم اللقاءات عادة بعد انتهاء العمل فى المقاهى الشعبية المنتشرة فى المدينة .

الصعوبات التى اعترضت الدراسة الحقلية :

١ — **عبر اصحاب الورش عن مخـــاوفهم** أن تكون ثمة علاقة بين المعلومات التى يجمعها فريق البحث والجهات الادارية المسئولة عن الاشراف عليهم كمصلحة الضرائب والجهـــات الادارية المسئولة عن الاشراف عليهم كمصلحة الضرائب والتموين والتأمينات الاجتماعية وغـــيرها حيث كشف فريق البحث جهوده وعلاقاته الوثيقة بالناس لتبـــديد تلك المخاوف .

٢ — **صعوبة التسجيل الفورى** للملاحظات نتيجة لشكوك أصحاب الورش والعمل حيث يضطر الباحث فى هذه الحـــالة الى تدوين اللقاءات فور انتهاء المقابلة مع الاحتفاظ بالتعبيرات التى استخدمت فعلا فى هذا السياق .

٣ — اعتذار بعض أصحاب الورش عن استقبال فريق البحث أثنـــاء العمل حيث ادعى البعض فى الوقت نفســـه استعدادهم الشخصى لاعطاء الباحثين ما يطلبونه من وقت ومعلومات دون اتصال بالعمال .

نقـــد الدراسة الحقلية :

اتجهت الدراسة للتركيز على طرح الاسئلة المباشرة بالنسبة للعمال وأصحاب الورش ومع أنه كان بوسع فريق البحث المدرب تدريبـــا عاليا أن

يستخدم الملاحظة بالمشاركة بطريقة أكثر فاعلية من مجرد الدراسة المختصرة لحالة الورشة والاسطى ، والعمال ، والصبية (عن طريق الاستقصاء) والعذر هنا يتمثل فى أن الهدف من الدراسة كان التعرف على نظرة الناس للعمل اليدوى ، ومعرفة انساق هذا العمل ذاته مما زاد من غلبة الطابع الكمى على المسحة الانثروبولوجية والاثنوجرافية المتعمقة فضلا عن أن الدراسة تعد ثمرة للتعاون بين تخصصات مختلفة فى مجال الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية فهى من الدراسات الرائدة التى جمعت فريق العمل الذى ينتمى الى هذه التخصصات .

كما أن العمل فى الدراسة الانثروبولوجية نفسها كان يرتكز على فريق البحث الذى كان يجتمع (يوميا) لاستعراض ما تم انجازه وتذليل الصعوبات والترتيبات اليومية لنزول الميدان .

ولا شك أن **تعاون فريق البحث** المتعدد التخصصات — من جهة — مع فريق البحث الانثروبولوجى فى مجال العمل الميدانى — من جهة أخرى — يعد من بين الاساليب الفعالة فى الدراسة الحقلية حيث تتعدد **الخبرات وتتنوع الاتجاهات البحثية** مما يضمن للدراسة **شموليتها** لكافة الابعاد نتيجة لتضافر الجهود .

وغنى عن القول أنه بينما يكون من المستحسن فى حالة دراسة الاسرة أن يقوم بهذا الباحث الفرد فان المجالات الاخرى كالورشة والمدرسة والورشة يستحسن أن يتضافر فى دراستها فريق البحث الانثروبولوجى (المتكامل) بشرط التعاون الوثيق بين أفراده . ونجسد هذه الدراسة الحقلية المواصفات المطلوبة للدراسة السوسيوانثروبولوجية .

ثانيا : اثر التصنيع على المجتمعات المحلية الصغيرة فى المدن العاصمية : *

تناولت الدراسة الراهنة اثر التصنيع على الانساق الاجتماعية لاحد الاطراف الجنوبية لمدينة القاهرة بغية التعرف على الاثار التى يعكسها التصنيع على الانساق الاجتماعية فى الاطراف الحضرية وقد استخدمت **الملاحظة والملاحظة بالمشاركة مع الاستعانة بـ « الاخباريين » ودراسة الحالة** (٢٠ حالة) واستمارة الاستبيان (٤٠٠ اسرة) فضلا عن دراسة الحالات المثيرة الاستبصار ، واتضح من الدراسة الحقلية ان ثمة آثار بعينها قد عكسها التصنيع على الانساق الاجتماعية فى المجتمع المحلى نلخصها فيما يلى :

١ : اثر التصنيع على النسق الايكولوجى :

— شجع التصنيع **على الاتصال (العضوى) بين مجتمع الاطراف** والمدينة فابتدت المشروعات الصناعية اليه (٣ مؤسسات صناعية) فضلا عن مؤسسات الخدمات والورش الصغيرة وقد ارتبط المجتمع المحلى مع وسط المدينة بشبكة سريعة من المواصلات العامة فاتجه لانضمام المجتمع الى «كردون المدينة».

— ازداد التكالب على شراء الارض الزراعية من **« اولاد البلد »** لاقامة مساكن عليها مما ادى الى ارتفاع القيمة الايجارية وظهور مبدا خلو الرجل كشرط اساسى للحصول على السكن .

— ازدياد معدل **الهجرة الوافدة لمجتمع الاطراف** مع تماسك أولاد البلد وازدياد تقاربهم مما ادى الى تقسيم المجتمع الى منطقة دائرية على **تخوم المنطقة** تسكنها الشرائح النازحة للمنطقة

(*) تلخيص لجزء من رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الباحث الى جامعة عين شمس سنة ١٩٨٠ بعنوان « اثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتماعى فى المجتمعات الصغيرة » — رسالة غير منشورة .

فى مقابل منطقة اصلية او بؤربة Focal « فى صرة المنطقة » تصبح أولاد البلد « الاصليين » وغنى عن القـول أن الشرائح النازحة تعمل عادة خارج المنطقة فمعظم الشرائح النـازحة قد وفدت للمنطقة نتيجة للفشل فى العثور على مسكن فى مدينتى القاهرة والجيزة ، وليس نتيجة لجذب المجتمع المحلى أو للعمل فى مشروعاته الصناعية .

ومن هنا ظهر ما يعرف « **برحلة العمل اليومية** » من والى باقى أجزاء المدينة المتروبوليتانية .

ب : **اثر التصنيع على النسق الديموجرافى :**

— ان الشرائح الوافدة لمجتمع الاطراف تفـد عادة من الوجه القبلى (٥١٪) فالوجه البحـرى (٣٤٪) ثم مدينة القـاهرة نفسها (١٥ ٪) ويرجع هـذا الى أن المجتمع المحلى يقـع فى بداية الطريق المتجه للصـعيد ، وتتضمن الفئـات التى انتقلت الى المنطقة من أحياء اخرى فى العاصمة شرائح سكانية استقرت فى المجتمع المحلى نتيجة لنجاحها فى العثـور على المسكن ، ومعظمهم ممن تزوجـوا فى السنوات الاخيـرة ، وهكذا يصبح المجتمع المحلى مسرحا لتقابل العديد من الثقافات الفرعية .

— ان الفئـة العمرية التى تقل أعمارها عن ٢٠ سنة ويصـل حجمها الى ٥٧ر٧٪ من مجموع أفراد الاسرة ويعنى هذا **ازدياد معدل الخصـوبة داخل الاسرة** أما من تتراوح أعمارهم بين ٢٠ سنة الى ٦٠ سـنة فتبلغ نسبتهم ٤١ر٤ ٪ (٨ر٢١ ٪ ذكور و ١٩ر٦ ٪ اناث) فاذا افترضنا أن على الذكور فى الفئة الاخـيرة يقع عبء اعالة الصـغار (أقل من ٢٠ سـنة) والنساء (اللائى لا يشاركن فى قوة العمل) لاتضح أن هـذه النسبة التى تزيد عن خمس مجمـوع الافراد بقليل — تتحمل المسئولية الاكبر فى رعاية باقى أفراد المجتمع المحلى كما أن قلة كبـار السن يجعل هذا المجتمع فى صـورة « شابة » الى حد كبير لغلبة صغار السن والاعمار الوسطى .

— تسود **الاسرة الزواجية** عادة فى هذا المجتمع نتيجة لضـــيق المســكن وعجــزه عن استيعاب اقارب الزوجين كما تنخفض للغاية معدلات ارباب الاسرة الذين يلجأوا الى تطليق زوجاتهم أو للزواج الثانى .

— ان نسبة لا بأس بها تستخدم فى الوقت الحاضر **وســـيلة من وسائل تنظيم الاسرة** اذ أن وجــود الاسرة فى منطقــة حضرية صناعية فضلا عن ظروف الحياة المعقدة يعــد من بين العوامل المحفزة لتنظيم النسل .

ج : **النسق الاقتصـــادى :**

— استحوذت **المهن الصناعية واعمال البنــاء** على ٥ر٤١ ٪ من افراد القــوة العاملة فى المجتمع المحلى مقابل ٥ر٥٤ ٪ تعمــل بالقطاع الثالث (قطاع الخدمات) وقد جاء هذا نتيجة لتحـــول مجتمع الاطراف من النشـــاط الزراعى (كنشاط رئيسى) الى العمل الصناعى وما يتصل به من أعمال ادارية وخدمية .

— ازداد جذب المجتمع المحلى لقوة عاملة كبيرة تعمل داخله وتسكن خارج حدود (من بين الفئات التى تسكن خارج المجتمع وتشتغل فى مؤسساته فئــة الادارة العليا وغالبيــة التخصصات الفنية والادارية والعمال نصف المهــرة وغير المهرة ، وتضم هـــذه الفئـــات نسبة ليست قليلة من الاناث) وكان **القوة العــاملة التى تسكن داخل المجتمع المحلى وتعمل خارجه تقـــابلها قوة عاملة تعمل فى المجتمع دون ان تعيش فى المنطقة نفسها .**

— **زحف السوق الى المجتمع المحلى متمثلا** فى عشرات الحــوانيت التجارية التى ينتمى اصحابها للمنطقة أو للمجتمعات المحليـــة المجاورة وقد جذبتهم الاغراءات المرتبطة بوجود المؤسســـات الصناعية والتركز السكانى الكبير فى مجتمع الاطراف .

— **ازدواجية النسق الاقتصـــادى** الذى يضم الى جانب ادوات الانتاج **المعقـــدة** والتكنولوجيا والمتقــدمة ادوات انتاج **اولية**

وبسيطة تمثلت فى مصانع الطوب الاحمر * المنتشرة فى المنطقة ، وتنهض علاقات الانتـــاج داخل المؤسسات على التـــدرج « الهيراركى » فى السلم الوظيفى واستخدم اللوائح الرسمية داخل التنظيم الرسمى .

— ظل التصنيع فى مجتمـــع الاطراف يمثل **نشـــاطا اقتصـــاديا هامشيا** الى حد كبير ، فصناعة المبردات والاثاث تعتمـــد بدورها على المواد الخـــام التى تستوردها الدولة من الخـــارج كما ان القـــوة العاملة تعمل عادة فى المهن غير التخصصية (فعـــلة — خفراء — الخ) فضلا عن أعمال البناء ويتحقق العـــامل قدرا كبيرا نظير اســـتغلال قوته البدنية وخبرته حيث تنتشر ورش (البلاط) فى المنطقة ، والقوة العاملة فى هذا المجتمع أميـــة غير مدربة ينقصها الخبرة والمران .

— ان الدخل الشهرى يكاد يكفى بصعوبة احتياجات الشـــخص وأسرته ، وفى الوقت الذى ينـــدر فيه أن يلجـــأ الشخص للاستدانة من الغير (بصورة مستمرة) تقل الى حـــد كبـــير عملية الادخار وترشـــيد انفاق الدخـــل أو استثمار المدخرات فى مشروعات تعود على الشخص وعلى أسرته بالفائدة .

: النســـق القـــرابى :

— يتمثل النمط السائد فى الاسرة الزواجية Conjugal **أو النووية** Nuclear كما ان نمط الزواج عادة هو الزواج من غير الاقارب ويغلب عادة **الاهتمام** بفترة الخطوبة باعتبارها مرحلة اختبـــار كل طرف لشريكه وتزداد اهميـــة النواحى المظهرية المتصـــلة بالافراح كقيمة الشبكة وزفة العروس وغيرها .

— يتولى الزوج والزوجة معا « البت فى شئون ومقتضيات الحياة الاسرية ، **فالاسرة هنا تاخذ الطابع « الديمقراطى »** وبخـــاصة

(*) قبل عام ١٩٨٠ .

فيما يتعلق باتخاذ القرارات المصيرية المتصلة بزواج وتعليم الاولاد .

هـ : **بنـــاء القـــوة :**

يتسم بنـاء القوة فى المجتمع المحلى بانه « **ديمقراطى الصبغة** » حيث يتركز الاهتمام **على تنميـة المجتمع المحلى** ، وبالرغم من عزوف الناس عن المشاركة السياسية الا ان هذا البناء القـائم — يحاول ان يكسب تعاطف الناس من خلال حل مشاكل الجماعات والافـراد وقد تحول بنـاء القـوة من النمـوذج « المحلى » الى النمـوذج « القومى » المنفتح على العالم الخارجى حيث يعمل جاهدا لاستقطاب المزيد من المشروعات الصناعية فى المجتمع المحلى .

و : **الضبط الاجتمـاعى والقيم والاتجـاهات :**

لم يلفظ المجتمـع المحلى وسـائل الضبط الاجتماعى التقليدية كالعرف والعادات والتقاليد وهو ما يتعارض وما ذكرته دراسات ويرث Wirth وغيره عن سـيادة ووسـائل القيم الرسمية formal فى المدينة ، وقد أوضحت الدراسة الميدانية ان **المعـارف والاصـدقاء** يتدخلون عادة لحل المشاكل الشخصية والاسرية وان **معدلات الجرائم والحوادث لا تزال قليلة** فى المنطقة رغم دخول الصناعة .

وقد اتضح ان أتجاهات الذكور الخاصة بالمراة وتعليمها وعملها ومشاركتها فى صالح الانثى ويعزى ذلك الى تأثير التصنيع والتحضر فى المنطقة .

المصـــــادر

(*) هذا الجزء يعد أحد الاجزاء التى تضمنتها رسالة دكتوراه للمؤلف بعنـــوان « أثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتمـــاعى فى المجتمعـــات الصغيرة » رسالة دكتوراه غير منشورة ـــ جامعة عين تسمس ـــ ١٩٨٠ .

١ ـــ Gutkind, Urban Anthropology, op. cit. pp. 51.

٢ ـــ Ibid, p. 89.

٣ ـــ Some theoritical approaches to the sociological interpretation of labour circulation (In) R. fernea (Ed) Contemporary Egyptian Nubia. American univ. in Cairo. p. 80.

٤ ـــ Social change (In) .. A Southall (Ed.) social change in .. modern Africa, London. 1968, p. 1.

٥ ـــ West African city. London. 1960. p. 219.

٦ ـــ Patterns of culture, England. 1959. pp. 197, 198.

٧ ـــ West African urbanization CAMBRIDGE UNIV. Press. 1965 (In) H. kuper, (Ed) Urbanization and migration in West Africa. London, Univ. of California press, 1965.

٨ ـــ بونومور تمهيد فى علم الاجتماع من ص ١٤٦ : ١٥٢ .

٩ ـــ أحمد أبو زيد ـــ البناء الاجتماعى ـــ الاسكندرية ـــ ١٩٦٦ ـــ جـ ١ ص ٢٧٠ : ص ٢٧٦ .

(*) يقصد بها تلك المؤسسات التى تضم أكثر من ١٠ عمال كما أن

ابرز ما يميز هذه المنشآت ضآلة رأس المال (الفردى) وانخفـــاض مستوى الكفاية فى الاداء وعـــدم الاهتمـــام باستخدام التكنولوجيـــا الصناعية المتقدمة . وهناك دراسة هامة تبرز الاهمية التى تحظها هده المؤسسات الكبرى . انظر :

F.H. Trager, Marxism in Southest Asia, London. 1960.

(*) وهى مقولة منطقية لبعض الدول الصناعية المتقدمة والتى تتميز بالتوازن بين أهدافها ومواردها .

١٠ــ بيلز وهويجر ــ المصدر السابق ــ جـ ٢ ــ ص ٨٣٠ : ص ٨٣٦ .

١١ــ W. Moore, Social change. New Jersey, 1963, p. 91.

١٢ــ Traditional Cultures and the impact of technological change N.y. pp. 25 : 32.

١٣ــ الانثروبولوجيا العامة جـ ٢ ــ المكان نفسه .

١٤ــ Urban Sociology. op. cit. pp. 38, 39.

١٥ــ جدعون جوبرج ــ الفروق الريفية الحضرية ــ ترجمة محمود عودة فى محمد الجوهرى وآخرون ــ ميادين علم الاجتماع ــ القـــاهرة ١٩٧٤ ص ٧٧ .

١٦ــ عمروف ــ اسس تنظيم الصناعة والبناء ــ دار التقدم ــ موسكو ــ بدون ــ ص ٥ و ص ٦ .

مجموعة من أساتذة العلوم الاقتصادية ــ المصدر السابق ــ ص ١٦

١٧ــ Asad (Ed) Anthropology, The Colonial encounter England 1973, pp. 18, 19.

١٨ــ الانثروبولوجيا العامة ــ جـ ٢ ــ المكان نفسه .

Faris, Britanica and the Sudan (In) T. Asad (Ed) op. cit pp. 161, 162.

٢٠— Mair. Malinowski. op. cit. pp. 229 : 242.

٢١— S. Morse, Modern small industry, Japan 1965, pp. 2, 52. ومن الدراسات الهامة كذلك دراسات : ناش Nash وجولدنر Gouldner

٢٢— انظر ph. Hauser and L. Schnore. the study of urbanization, Chicago, 1965, p. 297.

٢٣— يمكن الرجوع الى دراسة محمد عبد الله ابو على عن التنظيم الاجتماعى للصناعة — الاسكندرية — ١٩٧٢ — المقدمة التى حررها — احمد أبو زيد .

١٤— محمد عبده محجوب — الهجرة والتغير البنائى فى المجتمع الكويتى — الكويت — بدون — ص ٥٩ .

٢٥— ردفيلد — المجتمع القروى وثقافته ترجمة فاروق العادلى — الاسكندرية — ١٩٧٣ — ص ١٢٢ .

٢٦— عبد الحميد لطفى — علم الاجتماع — القاهرة — ١٩٧٨ — ص ٨٤ .

٢٧— Social Class in America, N.Y. 1960, Warner and Low The Social System of the Modern factory, New Haven, Yale. Univ. press. 1947.

(*) سبق ان اشترك وارنر فى ابحاث هاوثورن التى قام بها مايو كما سبق له ان استعان بالاتجاه الانثروبولوجى فى دراساته الحقلية فى أستراليا وايرلندا .

٢٨— B. Mercer, Teh American Community N.y. 1956. pp. 83 : 89 (In) D. Calhoun and others (Eds) personality work and Community. op. cit. part. 17.

« الفصـــل الســـابع »

« الانثروبولوجيـــا الاقتصـــادية »

ترجع الارهاصات المبكرة للانثروبولوجيا الاقتصادية الى **القـــرنين الثامن والتاسع عشر** غير أن البداية الحقيقيـــة تعود الى الربع الاول من القرن العشرين حين قام **وليام كوبرس** W. Koppers (١٩١٥ — ١٩١٦) **وماكس شميدت** M. Schmidt (١٩٢٠ — ١٩٢١) بجمع المـادة المتناثرة فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية من خلال أعمال بوشر Bucher وكينـو Cunow ، وهـــرمنت Herment وكوهلر Kohler ولاش Lasch ، وموزكوسكى Moszkowski ، ومن خـــلال التقييم النقـدى الذى قدمه أوليفر ليروى O. Leroy فضلا عن أعمال ثورنوالد Thurnwald مالينوفسكى B. Malinowski وارمسترنج Armstrong وريموند فيرت R. Firth وهرسوفتز M.J. Hersovits (١) .

والواقع أن **كارل ماركس** (١٨١٨ — ١٨٨٤) ومن بعـده **اميـــل دوركايم** Kheim (١٨٥٨ — ١٩١٧) **وماكس فيبر** M. Weber (١٨٦٤ — ١٩٢٠) سبق أن تناولوا الظاهرة الاقتصادية فى ضـــوء علاقتها بالظواهر الاجتماعية الاخرى فأبرز ماركس أن الاقتصـــاد يمثل **البنـــاء** التحتى الذى ينهض عليه **البنـــاء الفوقى** بأكمله (الذى يمثل مجموعة النظم القـــانونية والسياسية والدينية والجمالية ... الخ) حيث ينقسم المجتمع الى **طبقـــة تملك وسائل الانتاج وأخرى تحرم من ملكية هذه الوسائل** ، وقد لفت ماركس الانظـــار حقيقة الى الاهمية التى يحتلها **أسلوب الانتـــاج** فى المجتمع حيث تتفـــاعل **قوى الانتـــاج** . وهم أفراد المجتمع بخبراتهم ومهاراتهم عن أدوات الانتـــاج — **مع علاقات الانتاج** التى تنشـــأ خلال العملية الانتاجية كنتيجـــة للتفاعل المستمر بين الناس خلال عملية الانتاج الاجتماعى . **أما كايم** فقـــد اهتم بظاهرة **تقسيم العمـــل** وأبرز مستويات التقسيم تبعـــا للنوع والسن ودرجة القـــرابة والمعايير الاجتماعية فى المجتمع . واستحوذت **الكالفنيـــة** Calvinism ونسق القيم والاجراءات السياسية والقانونية والاجتمـــاعية

التى صاحبت أزدهار الراسمالية (كنظام اقتصادى فى المجتمع الغـربى) والبيروقراطية والترشيد على اهتمام ماكس فيبر .

وتهتم الانثروبولوجيـا الاقتصادية بالنظم والادوار والقيم والجمـاعات المتضمنة فى عمليات الانتاج والتوزيع والخدمات .

وبينما بدأ عملية الانتاج وتنتهى باشـــباع حاجات المستهلكين فان **عمليـة التبـــادل** — التى يهتم آلانثروبولوجى بدراســـتها — **تتضمن التنسيق بين العمل والمصادر** (٢) وهو الامر الـذى يعبر عنـه ليـونارد جوى بقوله ان الانثروبولوجى ينشغل بمشكلات التوازن العـــام للمؤن والحاجات المتعلقـة بالسلع والخدمات (مع دراسة) الظروف آلتى فى ظلها يتم توزيعها .

Anthropology seems to me to be «Bristling with general equilibrium».

«problems including those relating»

«to the supplies and demands of goods»

«and services and the Conditions under»

«which these are distributed».

ويقرر رونالد فرانكنبرج R. Frankenberg أن الاشكاليات موضوع الاهتمام **ليست واحـــدة** فى آلانثروبولوجيا الاقتصادية وعلم الاقتصـــاد غير أنه يضيف بأن كتابات ماركس ثم مارشال واتباعه تمثل همزة الوصـل بين الاقتصاد والانثروبولوجيا وأنه اذا صدقت عبارة آرثر لويس A. Lewis بأن الاقتصاد يتعلق بظاهرتى الانتـاج والتوزيع فان الانثروبولوجيا فى واقع الامر قد بدأت بدراسة النسق الاقتصادى .

ومن بين اعلام الانثروبولوجيا الاقتصادية فى انجلترا **ايفانزبرتشـارد** E. Pritchard **وفورد** Forde **وجيلوكمان** Gluckman **وســـتانر** Stanner **ورتشـارد** Richards فضـــلا عن ريموند فيرث R. Firth اما فى الولايات المتحدة فان **هرسكوفيتز** Herskovits سبق أن احتـــل مكانته كرائد من رواد هذا الفـــرع ، والمتتبع لآراء فيرث يلحظ أن العلاقات

الاقتصادية هنا تشكل نسقا من وجهة نظره وأن علاقات التبادل اساسية فى الحياة الاجتماعية ، وهنا يسهل التمييز بين مجتمعات بدائية اساسها الاقتصادى بسيط وبين مجتمعات قروية وصناعية لها اسسها الاقتصادية الاكثر تعقيدا .

الامر الذى يعبر عنه ساليز Sahlins ومن قبله ايفانز برتشارد وفورتس — بقوله « أن معظم المجتمعات الافريقية تنتمى لنظام اقتصادى يختلف بشدة عنا » كما تعرض كل من لوى Lowie وهرسكوفتز Herskovits وبنزل Bunsel للنقد اللاذع لتصورهم أن ثمة علاقة (راسمالية) بين القوة والثروة فى المجتمع البدائى لانهم قد تبنوا المنطق السائد فى تحليل الاقتصاد الحديث وحاولوا تطبيقه على المجتمعات البدائية .

ويعتقد فرآنكبرج أن الكتابات الانثروبولوجية العامة تبرز عادة فكرة المتصل البنائى Morphological continuum فى نظريتها للنسق الاقتصادى ، فانتاج السلع يمر بدورة معينة من الاقتصاد البدائى حتى تصل الى الاقتصاد الراسمالى المعاصر .

فيرث يعتقد أن الاقتصاد بدأ « بدائيا » Primitive وانتهى « صناعيا » ودالتون Dalton يعتقد أنه بدأ من خلال الاسواق وانتهى باقتصاد السوق و Sahlins وبخاصة فى كتاباته المبكرة يبدأ باقتصاد البدنة وينتهى باقتصاد الدولة وبولانى Polany يبدأ بتبادل المنفعة وينتهى بالتبادل الاقتصادى الذى يسمح بالربح .

وتشير سيتى أورتز Sutti ortiz الى أن التحليل الانثروبولوجى لا ينكر أهمية العوامل **غير الاقتصادية وغير المنطقية** فى التفكير الاقتصادى ويتفق هذا مع تحليل **موس** Mauss **لعمل مالينوفيسكى عن الكولا** Kula وعمل فيرث عن مجتمع تيكوبيا Tikopia حيث أبرز المعنى الثلاثى للحرية والمتضمن الالتزام بالعطاء والالتزام بالتقبل والالتزام برد المقابل فالهدايا لها معانى اجتماعية — اقتصادية لا يمكن اغفالها (٥) .

ومهمة الباحث الانثروبولوجى فى المجال الاقتصادى مهمة عسيرة لعدة اسباب منها أنه يقوم عادة بدراسة **المجتمعات البسيطة والمتخلفة** التى تختلف فى نظمها الاقتصادى عن النظم الحديثة المألوفة والتى تقوم على النظام النقدى والمصرفى والاستثمار والتكنولوجيا الحديثة .

ويذكر ن.سملسر N. Smelser (٦) أن **مالينوفسكى (١٨٨٤ — ١٩٤٢)** **ومارسيل موس** Mauss (١٨٧٢ — ١٩٥٠) قد أبرز بصورة واضحة العلاقة بين النسق الاقتصادى — مع التركيز على نظم الانتاج والتبادل — وبين الانساق القرابية والسياسية ونسق الضبط الاجتماعى فى المجتمع فغى ميلانزيا أبرز الاول العلاقة بين انتاج قوارب الصيد والنظام الرئاسى والسحر وان نظرية العرض والطلب المعروفة لا تنجح فى تفسير التبادل التجارى فى المجتمع بينما اجتهد موس فى دراسته عن الهبة Gift فى ابراز قواعد العلاقة بين مانح الهبة ومتلقى هذه الهبة . وألصور الطقوسية للتبادل التى يتعذر تفسيرها فى ضوء المفاهيم الاقتصادية حيث يذكر أن هذه الظاهرة لها جوانبها القانونية المتعلقة بالحقوق والالتزامات الجمعية وبث الاخلاقيات وجوانبها السياسية المتعلقة بالتنظيم القبلى العشائرى ، والدينية الخاصة بالجانب الشعائرى والسحرى ، والاقتصادى المتعلق بالمنفعة والانفاق ... الخ .

ويذكر سملر (٧) أن هناك علاقة تفاعلية بين النسق الاقتصادى **والانساق الاخرى** فى المجتمع وقد استشهد بالعديد من الدراسات التى عرضت لهذه العلاقة فعن العلاقة التفاعلية بين **الاقتصاد والايديولوجيا** يستشهد بدراسات دافيز K. Davis وبندكس Bendix وفرانس سوتون Sutton وسينوى فى هذا المضمار اما عن علاقة النسق **الاقتصادى بالنسق القرابى** فاستشهد بدراسات هاندلين O. Handlin وماري هاندلين Mary Handlin عن الجماعات الاثينية Ethnic groups والدراسة المقارنة التى قدمها نيمكوف ومدلتون Nimkoff, Middlton عن ٥٤٩ نمطا ثقافيا لكل منها نسقه الاقتصادى حيث استنتج انه فى مجتمعات الصيد والالتقاط تسود الاسرة المستقلة (النووية) بينما تسود الاسرة الممتدة فى المجتمعات المستقرة اقتصاديا التى تستند على الملكية والتدرج الاجتماعى .

أما المجتمع الصناعى فتسود فيه **الاسره « المستقلة »** حيث الحراك الاجتماعى السريع .

وفى النمط الاول والثانى يتبع الدور الاقتصادى للفرد المركز الذى يشغله داخل نسق القرابة بحسب النوع والسن فضلا عن وضعه الزواجى .

وقد اهتمت الدراسات الخاصة ببناء الاسرة وبمشاركة المرأة

فى قوة العمل كما استحوذت مشاركة كبار السن فى قوة العمل باهتمـــام بعض الثقاه أمثال فيليب هاوسر Ph. Hauser .

والملفت للنظر أن البعض قد حاول أن يبرز صعود الجماعات الاثنيـة (السلالية) فى الولايات المتحدة (الصينيون ــ اليابانيـــون ــ الزنوج) اقتصاديا فى السنوات الاخيرة حيث أوضحت دراسات ينجـر M. Yinger وغيره أن أسباب هذا الصعود ترجع لازدياد الطلب على الايدى العـاملة لابنـاء تلك الجماعات والى صبود هذه الجماعات لانجاح أفرادها كما أن كل جماعة كانت تجتهد لاستقدام أبنـاء جلدتها للمشـاركة فى جنى ثمـار اى نجـاح اقتصادى فضلا عن كل جماعة رددت مقـولة اضطهاد المجتمع العـام لها رغم تمايزها السلالى أو العنصرى عن الجماعات الاجتمـاعية الاخرى التى تظن أنها تفضلها فى التمتع بفرص الحياة (٨) .

ويذكر بوتومور (٩) أن العلماء اليوم قد أضحوا يرفضـــون فكرة التطور الخطى للملكية كما فى حالة ماركس وهبهوس وغيرهما ، ويلمحـون الى صعوبة تحديد طـابع حقوق الملكية ومدآها واذ ذاك فان توزيع الملكية والآثار الاجتماعية لهذا التوزيع أصبحت الشغل الشاغل لهم ، ومن هنـا جاءت دراســات كمرجر Mukrgee فى الهند وبيرل Bearl ومنسـز فى الولايات المتحدة عن الملكية والثروة وآرثر لويس وقد اســتحوذت بعض الظواهر الخاصـــة **بالصراع الصـناعى** Industrial confliict (كالاضطرابات) على اهتمام البعض أمثال نويلز . Knowles .

وقد أخطأ علماء الاقتصاد حين استعانوا بالاطر الاقتصادية المعاصرة والمفاهيم المستحدثة لتفسير النظم والظواهر الاقتصادية فى المجتمعـات البدائية وافضـل الامثلة على ذلك ما ذهب اليـه كارل بوشر K. Bushor من أن الرجل البدائى لا يعرف القيمة الاقتصادية الحقيقية للسلع ودليل ذلك أن بعض زنوج افريقيا والهنـود الحمر فى أمريكا كـانوا يبيعون أراضيهم للمستعمرين من البيض بابخس الاثمان نظير عقـود من الخرز الملـون أو الاسلحة البسيطة وان هذا يدل على بلادة وجهل وغباء هـذا الرجل الذى يجهل القيمة الاقتصادية للاشياء ولا يهتم كثيرا بزيادة ممتلكاته المادية .

كما أن أطرف أنواع الملكية الخاصة التى توجـد فى بعض المجتمعات البدائية ما أطلق عليـه البعض « **ملكية النسـاء** » فقـد اعتبر علمـاء الانثروبولوجيا المهر بمثابة ثمن للعروس وبخاصة اذا كان المهر يتضـمن

بعض السلع المادية أو الحيوانات ، وقد دعم هذه الفكرة اعتبار المرأة احد اقدم أشكال رأس المال نظرا لانجابها للاطفال وقيامها بمهام اعداد الطعام وانتاج السلع المنزلية فى الاسرة ومن غير شك أن المسئول عن ذلك هو الانفصال عن الشعوب البدائية وصياغة ما يرد عنها من بيانات فى قوالب جامدة من انتاج الفكر الاوروبى الغربى الطابع واذا ما نظرنا الى هذه الممارسات لاتضح أن تفسيرها يكمن فى **نسق القيم فى المجتمع المحلى** فالارض فى افريقيا وأمريكا حين جاء المستعمرون كانت اكثر من حاجة السكان بينما كان الخرز الملون اداة التزين فى المناسبات الدينية والاجتماعية فالمسألة هنا اعتبارية بحتة .

والزوجة فى الحالة الاخيرة لا تباع مقابل السلع المادية **فالمهر** عند النوير على سبيل المثال يتالف من ٤٠ رأسا من الماشية ويقسم بين اهل العروس ، ويعكس اعترافا بالعلاقة القوية بين اقارب العروس حيث يتوقع منهم المجتمع الاسهام فى دفع المهر حين يتزوج أى ذكر من أعضاء البدنة (بالنسبة ونوع الماشية نفسها التى حظى بها من قبل) بل ان هذه الماشية نفسها تعد ملك للعائلة التى ينتمى لها هذا الشخص .

والزوجة التى تهجر زوجها يكون أهلها ملزمين برد الماشية للزوج مع نتاجها من الماشية ونظرا لاستحالة هذا الامر من الوجهة الفعلية فان أهلها يضغطون عليها عادة حتى تستمر الحياة الزوجية وتتدعم عرى العلاقات القرابية ومن الملاحظ ان الزوجة التى دفع مهرها تعد بمثابة أضافة للبدنة كلها والاطفال هم بالتالى أطفال البدنة كلها ، ولجميع أفراد البدنة الحق فى أن تقوم الزوجة على خدمتهم **فالمهر هنا لا يعنى الملكية الخاصة باى صورة من الصور (١٠) .**

وقد عرض أبو زيد (١١) لصورة متميزة من صور الملكية فى **الواحات** الخارجة والداخلة وواحة سيوة فى مصر هى **ملكية الماء** حيث ان الارض تعتبر ملكا للدولة التى تمنح الاهالى حق الانتفاع بالارض وان كان الماء والارض فى نظر الناس وجهان أو مظهران لشىء واحد ، فالملكية الزراعية يحددها وجود الماء وتوافره وهناك زمامات لكل بئر من الابار حيث يمنع التعدى أو الاستغلال اذ أن ملكية الابار تتم على أساس اقليمى بالنسبة لكل قرية حيث أن القرية بأراضيها وآبارها تؤلف وحدة اقتصادية واحدة وهناك الابار العامة التى يشترك الجميع فى الانتفاع بها بينما تتوزع بقية الابار التى تقوم الملكية فيها على أساس الوحدات القرابية بما يتمشى والتنظيم القرابى فى القرية والمركز الاجتماعى لكل بدنة ، وقد أوضح

ابو زيد أن الملاك قد يتنازلون عن بعض المياه نظير المال أو يتم الانتفاع من البئر نظير المشاركة فى الحفر أو التطهير أو المساهمة المادية ويعرف هؤلاء باسم « المجاعلين » على اساس أن لكل منهم « جعـــلا فى المـــاء » ويقوم « العهدة » أو الخبير المشرف على ادارة البئر بالحصول على نصف محصول البئر والملاك على النصف الاخر بينما يتبع « المجاعلين » بنصيبهم من الماء بما يوازى نصف نصيب العهدة يحصل العمال على ربع نصيب العهدة .

والملاحظ فى الواحات انه نظرا لخطر انطماس الابار بفعل الرمـــال أو التوقف لنضوب المياه الجوفية فان الاهـــالى يميلون الى توزيع نصيبهم بين عدد كبير من الابار بدلا من تركيزها فى بئر واحدة أو المقايضة عن حقهم فى استغلال بعض الآبار لغير هم مقابل نزولهم عن حق استغلال مقادير مماثلة (من المـــاء) فى بئر معينة .

ومن أروع الدراسات الحقلية الكلاسيكية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية تأتى دراســـة مالينوفســـكى Malinowski عن « **الكـــولا** » فى مؤلفـــه عن « الارجوناتيس » فى المقدمة اذ يتداخل النسق الاقتصادى مع الثقافة وباقى انساق البناء الاجتماعى لدى التروبرياند (فى غينيا الجديدة) حيث توجـــد مجموعة من القبائل التى يتبادل سكانها الهـــدايا والسلع بين مجموعة من الجزر التى تختلف فى الثقافة والسلالة أحيانا ، ويتم تبادل الهدايا وتتحدد الحقوق والواجبات على أساس المكانة الاجتماعية دون أن يدخل ذلك فى سياق المقايضة أو المساومة التجارية وتبدأ الرحلة ببناء القوارب التى يشرف عليها الخبير والساحر ثم تدشينها فى احتفال كبير وتتضمن الرحلة المتجهة من **الشمال للجنوب** تقديم هدايا عبارة عن عقود طويلة من **الصدف الاحمر** بينما تتجه الهدايا المكونة من **الاســـاور** فى الاتجاه المقابل من **الجنوب للشمال** ، وقد تستهلك دورة كل من السلعتين من سنة الى سنتين وتتضـــمن مجمـــوعة المعايير المنظمة للكولا الكرم والسخاء مع ضرورة الهدايا بمرور الوقت كمـــا تبدأ الكولا من **الجنوب** ونيس من الشمال ممن لهم الماما كبيرا بقواعد السحر والابحار وبعد أن ينتهى التبادل الشعائرى يدخل الناس فى **عمليات تجارية** عادية يساومون فيها على السلع والحاجات الضرورية ، والملفت للنظر انه توجد كولا داخلية حيث يقدم أصحاب المراكز الاقل الهدايا لاصحاب المراكز الاجتماعية العليا وهناك نفضلا عن ذلك الهدآيا التى تقـــدم فى مقابل أداء خدمات سحرية أو فى الحفلات والمناسبات الدينية أو مقابل التدريب على فنون سحرية ورقصات بعينها ويدخل فى الهدايا عابل الســـمعة والصيت

بينما يؤكد هذا قوة **الروابط الاجتماعية** • وعندما تنتهى الكولا يبدأ تبـــادل السلع الاستهلاكية ذات الفائدة المعيشية .

وقد ابرزت دراسة انثروبولوجية تنـــاولت **التغير البنـــائى فى المجتمع الكويتى** ان **التمايز العرقى** فى المجتمع يقوم على اسس (جديدة) تختلف عنها قبل اكتشاف النفط فقد اصبحت الجنسية الكويتية تعنى مميزات اقتصادية وسياسية واجتماعية خاصة بالعمل والملكية والعضوية النقابية والمشاركة السياسية والوظائف الاشرافية وبعكس هذا الوحدة والتماسك العـــرقى ازاء الغالبية **الوافدة للمجتمع (١٢)** •

وتتضح دراسة **الجماعات الاثنية** فى مصر عن نتائج هامة نفى دراسة لسكان النوبة المصرية فى قرية ابو سنبل اتضح ان معظم الذكور قد نزحوا الى خارج القرية النوبية حيث يقصدون المدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية طلبا للعمل وانه رغم وفرة السمك فى النوبة القديمة فانه لم يحظ باهتمـــام السكان — بل كان يحسب لاسباب تاريخية من المحرمات — بل ان بعض العمال الصعايدة كانوا يتجهون للمنطقة (فى الوقت نفسه) للعمل بالزراعة واستخراج الفحم النباتى كما ان وجود اقارب وبلديات بالمدينة كان من بين العوامل الاجتماعية الجاذبة وبعبارة اخرى فالهجرة الداخلية هنا تعكس دوافع اجتماعية لا دوافع اقتصادية صرفة كما ان الهجرة لم تتخذ اتجاها وحيدا من القرية النوبية للمدن العاصمية بل ان هناك هجرة مصاحبة لها فى الوقت نفسه من قرى الصعيد الى منطقة النوبة (١٤) .

وفى دراسة اخرى لاثر التصنيع والتحضر على البنـــاء الاجتماعى فى المجتمعات المحليـــة الصغيرة اوضـــحت الدراسة **السوسيوانثروبولوجية المقارنة** لاحد اطراف العاصمة المصرية وظهـــرها الزراعية ان نمط التصنيع فى منطقة الاطراف القائم على استيراد المواد الخام (كالاخشاب) وتجميـــع الاجزاء الواردة من الخارج دون تخليقها (كأجزاء أجهزة التكييف والمبردات) يزيح الستار عن ارتباط احد المحليات الصناعية فى واحـــدة من مدن العالم الثالث بالسوق الراسمالية العالمية ولم يؤدى التصنيع هنا الى صبغ القوة العاملة بصبغة انتاجية اذ ان غالبية الفئات العاملة نازحة للمنطقة وتنتمى **لثقافات تقليدية** ونظرا لاميتها ونقص مرانها وتدريبها المهنى وانعدام تخصصها الحرفى فان متوسط انتاجها يعـــد منخفضا عادة نظرا لتـــدنى الخصـــائص الاجتماعية (للقوة العاملة) وسوء احوالها الصحية وتزايد تبعاتها العائلية (لازدياد حجم الاسرة وانخفاض دخولها المادية) وعـــدم مشاركة المراة فى

قوة العمل الصناعية . وهكذا كادت تختفى الطبقة الوسطى فى هـــذا المجتمع أمام القاعدة العريضة من شرائح الطبقة العاملة الفقيرة ممن يمثلون قطاعا حرفيا عانى من البطالة المقنعة فى الريف فهاجر افراده للمدينة للعمل بالحرف غير الفنيـــة وقاوموا بدرجات مختلفة الذوبان فى الحيـــاة الحضرية (القاهرية) .

أما **الظهير الزراعى** فقد حرم سكانه من أى مؤسسات صـــناعية أو خدمية وصاحب التدنى فى الدخل والخصائص التعليمية والصحية ازديادا فى حجم السكان كما تزامل التخلف فى أدوات الانتاج مع التفتيت الكبير للملكيات الزراعية .

وهكذا ازدادت تبعية السكان للسوق فى المدينة (حيث يتم البيـــع والشراء) . وتوجد مؤسسات الخدمات المختلفة (١٤) .

وقد قطعت الانثروبولوجيا الاقتصـــادية شوطا هائلا فى الســـنوات الاخيرة ويعزى هذا من جهة الى كونها حقلا خصبا **للدراسة والمقارنة** فهى كما يذكـــر باريك Borraine Baric حقلا تطبيقيا وهى كما يذكر بيرلنج Burling تدرس الوسائل المادية لوجود الانسان وانساق الانتاج والتبادل والتوزيع والاســـتهلاك بل ان غيرث يعتقـــد أن منبع ثراء الدراســـة فى الانثروبولوجيا الاقتصادية هو تمييزها بين اقتصـــاد المجتمعـــات البدائية والقروية والصناعية ويرتكز التمييز هنا عادة على نمط التكنولوجيا المستخدمة وشكل راس المال وانواع المحاصيل وكيفيـــة تسويتها (فى حالة الانتـــاج الريفى) والحقوق والواجبات الاقتصـــادية، وسبل التنميـــة الاقتصـــادية والتحديث وأثر القوى الخارجية بصفة عامة فى الاقتصاد وهو ما يلخصـــه فرانكبرج فى مجموعة من الاسئلة المفتاحية ماذا ينتج ؟ بواسطة اى جماعة ؟ كيف تنتظم الجماعات ؟ ما هدف الانتاج ؟ كيف يتم التعامل مع الصراعات ؟ ما هى البدائل المستخدمة ؟ ... الخ (١٥) .

رغنى عن القول أن الاتجاهات النظرية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية قد انتفعت من المناقشات التى آزدهرت فى الستينيات من هذا القرن حـــول الماركسية التى دارت حول مؤلف ماركس التقليدى عن **التكوينات الاقتصادية السابقة على الرأسمالية** الذى ظهر بالانجليزية ســـنة ١٩٦٤ مع مقـــدمة بواسطة هوبسباوم Hobsbawn ومؤلفات انجلز Engels ، وفى مجال الانثروبولوجيا البريطانية ظهر مؤلف ورسلى Worsley لاعادة تقييم كتابات

فورتس (Fortes work on the Tallensi) وفى مجال الانثروبولوجيا الامريكية ظهرت كتابات هويت Steward Sahlins White ، وهـاريس Harris وسرفيس Service ، وسالينز وستوارد .

وفى فرنسا ظهرت كتابات سيرت كانال J. Suret .. Canale ومورتس جودنير M. Godlier وكـلود ميلسو C. Meillassoux وفى السـبعينيات دارت المناقشات حول الماركسية الجديدة New Marxism وعن التكوينـات الاجتماعية الاقتصادية قبل الرأسمالية وعن انماط الانتاج وكيفية تعايشها مثل كتابات مانويل تيراى E. Terray .

وفى بريطانيـا تعـد الاعمال النظـرية لبول هيرست P. Hirst وبيرى هندس P. Hindes عن أنماط الانتـاج قبل الرأسمالية « انعكاسا » لاراء لويس التوسر L. Althurser . كما أن بيرى اندرسون P. Anderson قد قدم من خلال كتاباته التالية :

— Passages from Antiquity to feudalism.

— Lineages of the Absolutist state.

تحليلا « رائعا » للتحولات فى **التكوينات الاجتماعية** قبل الرأسمالية .

وقد أفادت هذه الرؤى التحليلية فى تشييد العـلم الانسانى التاريخى الصبغة القادرة على التفسير وتحليل التشكيل الاجتماعى الرأسمالى وغير الرأسمالى فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية (١٦) .

« المصـــــادر »

١ — R. Firth (Ed) themes in Economic Anthropology. U.S.A. 1970. pp. 1920.

٢ — R.E. Murphy. Cultural and social Anthropology. New Jersey, 1986, p. 130.

٣ — L. Joy. One Economist's view of the relationship between Economics and Anthropology. (In) R. Firth (Ed) op. cit. p. 38.

٤ — R. Frankenberg, Economic Anthropology. (In) R. Firth (Ed) op cit. pp. 47. 87.

٥ — R. Firth. op. cit. pp. 8 : 11.

٦ — التطور التاريخى لعلم الاجتماع الاقتصادى — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون فى الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث — القاهرة — ١٩٨٢ ص ٣٠ : ص ٣٣ .

٧ — المصدر نفسه ص ٤١ : ص ٨٤ .

٨ — سلسلة « علم الاجتماع الاقتصـــادى » ترجمة محمد على محمد فى محمد الجوهرى وآخرون — دراسة علم الاجتماع — القاهرة ١٩٧٥ — الفصل السادس .

٩ — تمهيد فى علم الاجتماع ترجمة وتعليق محمـــد الجوهرى وآخرون — القاهرة ١٩٧٨ — الفصل الثامن .

١٠— احمد ابو زيد — البناء الاجتماعى جـ ٢ — الاسكندرية ١٩٦٧ — ص ١١٠ ، ص ١٨٠ ، ص ٣٦٠ ، ص ٣٦٩ .

R. Fronkenberg, Economic Anthropology, (in) R. firth (Ed) Themes in Economic Anthropology, op. cit. p. 59.

١١— أحمد أبو زيد — المصدر السابق — فى مواضع متعددة .

١٢— محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الاسكندرية ١٩٧٧ — ص ١٢٧ : ص ١٣٢ .

١٣— ثروت اسحق — هجرة النوبيين الى القاهرة — رسالة ماجستير غير منشورة — جامعة عين شمس — القاهرة ١٩٧٦ . وانظر للمؤلف أيضا :

١٤— أثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتماعى فى المجتمعات الصغيرة — رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة عين شمس — القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٣٤ : ص ٣٤٥ .

١٥— أنظر مقالات ريموند فيرث (المقدمة ص ٢٢) ومقال فرانكنبرج ص ٥٧ ، ص ٥٨ .

١٦ — D. Seddon (Ed) relation of production. U.S.A. 1980. perface.

الدراسة الحقلبـــــة

أوضاع وعـــلاقات الباعة فى الاسواق الحضرية

دراسة فى الانثروبولوجيا الاقتصادية (*)

تعد الاسواق من ابرز الظواهر القائمة فى المدن حيث ينتشر الباعة فى هذه الاسواق لتسويق السلع .

وتتخذ هذه الاسواق **الطابع غير الرسمى** وبخاصة فى مدن البلـدان النامية .

وتدخل هذه الدراسة فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية حيث سبقتها دراسات اخرى مشابهة فمن أمثلتها الدراسة التى قدمها جالدوين وجالدوين H. Galdwin, Ch. Galdwin عن الاسواق وباعة الاسماك فى ساحل الكاب فى غانا واستعانا فيها بالاحصاءات والرسوم البيانية والمعادلات والخرائط الجغرافية .

وتهدف الدراسة الراهنـــة للتعرف على **نمط العـــلاقات الاجتمـــاعية والاقتصادية السائدة فى الاسواق الحضرية وعلى أوضاع الباعة الجـــائلين** الذين تضمهم هذه الاسواق ونوعية السلع المتاحة فى الاسواق المتناثرة فى المدينة وكيفية التعامل فيها بالبيع والشراء وصور الاستغلال التى يتعرض لها البائع والمشترى ، هـــذا فضلا عن الضغوط الاجتماعية والاقتصـــادية المحيطة بهذه الشرائح ووعيهم بكيفية التغلب على هذه الضغوط حيث قسمت

(*) يتقدم الباحث بالشكر للاستاذ الدكتور عادل عازر رئيس وحدة السياسة الاجتماعية والقانون بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية، ويضم هذا التقرير مسودة التقرير النهائى للبحث الذى شارك فيه الباحث بعنـــوان « المهمشون من الفئات الدنيا فى القوى العاملة » .

الدراسة الى قسمين رئيسيين تضمن اولهما دراسة الاسواق اليومية والثانية دراسة الاسواق الاسبوعية فى المدينة المتروبوليتانية فى القاهرة الكبرى . وقد استخدمت فى الدراسة الاولى — التى تناولت الاسواق اليومية — وهى أسواق الخضر والفاكهة والاسماك — الملاحظة بالمشاركة فضلا عن صحيفة (استمارة)الاستبيان (التى تضمنت أكثر من ٢٢٠ سؤال) طبقت على عينة قوامها ٢٦٧ بائع فى أسواق المنيرة الغربية (امبابة) ، والدقى ، والخلفاوى (شبرا) ، والزيتون . واختيرت هذه الاسواق اليومية التى يتركز فيها الباعة بالقاهرة الكبرى (*) ويحتشد فى هذه الاسواق الدائمة عادة عشرات الباعة (بعرباتهم الخشبية) وغالبا ما يتكدس باعة كل سلعة الى جوار بعضهم البعض بصورة تسهل للمشترى أن يحصل على السلعة المطلوبة دون عناء كثير وفى الاحياء « الشعبية » حيث الطبقة الدنيا الفقيرة يضع الباعة سلعهم على عربات آليد أو الارفف الخشبية ويفترش بعضهم الارض ويجلسون القرفصاء بينما يتم عرض السلعة أحيانا على بساط من القماش المتين الصنع أو على أكياس (من الخيش داكن اللون) .

وفى الاسواق اليومية الدائمة فى الاحياء الى تتشكل عادة أو يغلب عليها سكنى الطبقة المتوسطة فان الباعة يقفون أو يستخدمون مقاعد خشبية للجلوس بجوار عربات اليد التى تحمل عليها السلع أو الى جوار الاكشاك الخشبية التى يضعون سلعهم على أرففها بينما تضاء هذه الاكشاك عادة بلمبات النيون الكهربائية لتسهيل عملية البيع فى المساء ، وغنى عن القول أن اثمان السلع يحددها وفرتها من حيث الكم ومعدل الطلب عليها والسعر الجبرى الذى تحدده الدولة لها (اذا وجد) .

والامر الملفت للنظر فى الاسواق الحضرية الاستهلاكية فى مصر سواء اليومية أو التى تقام اسبوعيا ، أنه نادرا ما تخصص لها مساحات من الارض الفضاء بل تقام هذه الاسواق اليومية أو الاسبوعية فى شوارع المدينة أو الميادين الصغيرة التى يشترط فيها ملاصقتها للمساكن والمناطق الاهلة بالسكان من جهة وعدم مرور المركبات العامة — قدر الامكان — فى هذه الشوارع منعا للحوادث وارتباك الباعة والزبائن من جهة أخرى وعادة ما يستغل الباعة الشوارع الجانبية والحوارى نتيجة لاتساع نطاق السوق وان كانت الجهات الرسمية (ويمثلها مجالس المدن والبلديات فى مصر) تتولى تنظيم هذه الاسواق وأماكن وقوف الباعة ونظافة المنطقة .

(*) تمييزا لها عن أسواق الجملة .

والفرق الاساسى بين الاسواق اليوميـــة والاسبوعية ان الاســـواق اليومية تعنى بأن تتم عملية البيع والشراء يوميا فى منطقـــة بعينها فى السلع الغذائية الحياتية التى تحتاجها الاسرة يوميا ولا يسهل الاستغناء عنها بينما تقـــام الاسواق الاسبوعية بالنسبة للسلع الثـــانوية (كالاثاث والاجهـــزة المستعملة والملابس والادوات المستخدمة فى الصناعات الاولية) حيث يقام السوق فى منطقة بعينها أسبوعيا غير ان الباعة الجائلين ينتقلون فى اليـــوم التالى الى منطقة أخرى وهكذا حتى نهاية الاسبوع فكأن الاشارة باعتبارها أسبوعية تفيد وجود السوق فى منطقة بعينها دون أن ينبسط المعنى بالضرورة على الباعة انفسهم .

وقد تناولت **الدراسة الحقلية الثانية** الاسواق « الاسبوعية » فى الاحياء الشعبية فى القاهرة الكبرى واختيرت أسواق المطرية وامبابة للقيام بالدراسة الميدانية حيث تقام أسواقهما أيام الخميس والجمعة ـــ على التوالى ـــ من كل أسبوع ومعظم الباعة فى هذه الاسواق ممن تعد التجارة البسيطة عملهم الاســـاسى فينتقلون بين المناطق والاحيـــاء المختلفـــة المكونة للعاصـــمة المتروبوليتانية التى توجد فيها أسواق أسبوعية ، ولكل بائع موقعه ـــ شبه الثابت ـــ دون الحاجة لاى علامات بارزة تحدد ذلك .

والاستثناء من هذا التجوال بين منطقة وأخرى ينطبق على البـــاعة كبار السن والنسوة ممن يتعذر عليهم الانتقال (أسوة بالزملاء) وأولئك الذين يعملون بحرف أخرى (فى القطـــاع الرسمى) طوال الاســـبوع ويمارسون التجارة البسيطة يوم الراحة الاسبوعية فى المنطقة التى يقع عليها الدور فى اقامة السوق فحسب .

ويشكل الباعة فى الاسواق عامة ما يسمى **بالقطاع غير الرسمى** الذى أشار اليه جيرى CH. Gerry وبرومللى R. Bromley ـــ فى مجال حديثهم عن حضر العالم الثالث ـــ فبالرغم من اشراف الدولة فى العالم الثالث على عملية البيع وتحديد ثمن معظم السلع التى تباع للمستهلك الا أن يدها تكون قاصرة عادة عن الاشراف على عمليـــة البيع والشراء نفســـها وعن تنظيم حصول الباعة فى هذه الاسواق على السلعة من كبار تجار الجملة (الذين يتحكمون فى الكم المعروض فى هذه الاسواق) وضمان عدم استغلالهم بمعرفة هـــؤلاء (الكبار) كما أنها لا تنشغل فى معظم الاحيان بسياسة اجتماعية محـــددة تجاه شرائح الباعة البسطاء وأسرهم أو ضمان مستقبلهم المهنى أو ثبات دخولهم ومواردهم المادية ومن هنا فان البعض أمثال كوريك

يصف شرائح الباعة الجائلين وأمثالهم بأنهم فئـــات هامشية Marginal تنتمى للقطاع الثالث من القطاعات الاقتصادية (قطاع الخدمات) فى المـدن ويدعمها النمو الراسمالى — الذى يتبفصل معه أيضا — فى بلدان العـالم الثالث ، ويعتقد Kowarick أن هذه الشرائح الهامشية تنزح من القـرية عادة — نتيجة للتغلغل الراسمالى فى الريف — طلبا لفرص العمل فى المناطق الحضرية . أو على حد تعبير روب دافيز R. Davies فان العمل الهامشى يعد بالنسبة للغالبية بمثابة نجدة هزيلة من الفقر المدمر :

«Clearly, for most, Informal work promises only slight relief from grinding poverty».

وبعبارة أخرى فالاسواق اليومية فى المدينة تضم اعـدادا كبيرة من الباعة الجائلين الذين يشكلون جزءا غير قليل من القطاع الذى يطلق عليه فى المصطلح الاقتصادى القطاع غير الرسمى ويضم عادة شرائح القـوة العاملة التى تضم الذكور الذين نزحوا من القرى بحثا عن فرص العمـل فى المدينة فاستقطبهم القطاع الثالث (التجـارة والخدمات) ونظرا لامیتهم ونقص تدريبهم (المهنى) وضآلة رأس المـال المسـتخدم فى البيع والشراء (أو عدم وجوده أساسا) فهى تعد شرائح هامشية ويطلق عليها جيـرى Gerry وبروملى Bromley « **العمالة المعتمدة** » Dependent فالبـائع الصغير فى هذه الاسواق يعتمد على بائع الجملة الذى يمكنه من شراء السلعة بالاجل (بالثمن الذى يحدده بائع الجملة) ولكل بائع من هؤلاء الباعة الصغار تاجر يشترى منه السلعة فهو عادة لا يتنقل بين أكثر من بائع الا اذا حدثت مشكلة ما وعلى حد تعبيره :

«The street trader who normally sells»
«Products boughts from a specific wholes saler»

وبعبارة أخرى فان مشكلة القطاع الذى يشكل هذه الاسواق تتمثـل فى افتقاده للتنظيم والموارد (أو الاصول المنتجة) .

«Lack of resources and organization».

اولا — الاسواق اليوميـــة :

اتضح أن معظم آلباعة الجائلين يقومون بعرض سلعهم على عربات يد ويلى ذلك العرض على أرفف خشـبية وان أكثر من ٤ مجموع البـاعة يدفعون مبالغ معلومة للخفراء نظير حراسة المكان أو نظير استئجار العربية .

ويجلب نحو ٤ مجموع الباعة السلع الغذائية من الاسواق الكبـرى بينما تتولى نسبة أقل احضار السلعة من تجار « كبار » خارج اسوار الاسواق الكبرى » وهناك نسبة ضئيلة تتجه للقرى القريبة لشراء الخضر والفـاكهة الطازجة .

وقد أوضحت الدراسة الحقلية وجود **وسـطاء** بين تجـار الجملة وتجار التجزئة وبينما يؤدى وجود السماسرة الى رفع قيمـة السلعة فان البعض يعتقد أن وجودهم ووساطتهم يؤدى الى تخفيض قيمـة السلعة ، ويحصل الوسيط على عمولته عن الصفقة ككل أو على كل كيلو على حـدة فاذا لم يحصل السمسار على العمولة المقررة فانه قد يلجأ للايذاء البـدنى للبائع للحصول على بغيته . وواضح أن دور الوسيط هنا تسهيل حصول البائع الجائل على السلعة نظير مقابل مادى .

ويتحمل الباعة الصغار نفقات نقل السلعة من مكان الشراء الى منطقة السوق فضلا عن المصروفات الناجمة عن تعبئـة السـلعة فى أقفـاص أو صناديق وتحميلها على العربات الى سوق التجزئة وتؤدى هذه النفقـات عادة الى رفع قيمة السلعة ، ويخـاطر البـاعة اذ ذاك بالبيع بأعلى من التسعيرة بينما أفاد أقل من ٤ الباعة الذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان بأنهم لا يستطيعون رفع قيمة السلعة حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون وفى الحالتين فان بائع السلعة يتعرض لمشاكل عديدة سواء بوقوعه تحت طائلة القانون نظرا لتجاوزه التسعيرة المحددة أو لاضطراره بأن يتحمل الخسارة المادية الناجمع عن ارتفاع ثمن السلعة .

وتضطر ظروف قلة المعروض من السلعة التاجر البسيط أحيانا الى بيع سلعة أخرى أو الامتناع عن البيع بصفة مؤقتة حتى تنخفض قيمة السـلعة أو حتى يزيد المعروض منها ، والملفت للنظر أن قرابة ٤ الباعة يضطرون فى المقابل لخفض قيمة السلعة نتيجة لزيادة المعروض أو لقلة الطلب أو رغبة

منهم فى التخلص من المتبقى من السلعة لسداد التاجر ألكبير اذ أن القيمة المادية عادة تدفع بأكملها بعد بيعها وقبل الحصول على الكمية الجديدة ، والمضار هنا هو البائع الصغير الذى يضطر فى الحالة الاخيرة لبيع السلعة بأى ثمن حتى يتمكن من الالتزام بمسئولياته المادية تجاه تاجر ألجملة الذى يقف بمنأى عن أى مخاطرة مادية .

وقد تطرقت الدراسة الحقلية الى الكيفية التى يتمكن البائع فى الاسواق الدائمة من **سداد قيمة السلعة** لتاجر الجملة واتضح أن أكثر من نصف مجموع الباعة فى ألسوق يحصلون على السلعة بالاجل « شكك » أذ انهم يعيشون من « اليد للفم » ولا يتمكنوا من استخدام الاسلوب الرشيد لتجنيب راس المال المستخدم فى التجارة ، ويلى ذلك السداد الفورى للثمن وهو الاسلوب المتبع فى حالة الحصول على السلعة من أحد التجار الذين لا يبيعون لاجل أو من ألفلاح مباشرة حيث يلجأ التاجر الى شراء المحصول منه أو يشرك معه بعض الباعة فى شراء المحصول (برمته) وتقسيم القيمة الاجمالية بينهم مع دفع القيمة نقدا للفلاح قبل نقل المحصول الى السوق .

و فى حالة **العجز عن السداد** لتاجر الجملة يقوم البائع اما بتغيير السلعة التى يتعامل فيها ويتجر بسلعة اخرى هربا من التاجر (بصورة مؤقتة) أو يلجأ للاستدانة لسداد التاجر أو كتابة شيك أو ايصال أمانة أو الاستعانة ببعض التجار للوساطة بينهما . ولنا أن نتصور البائع الجائل الذى يحاول أن يحافظ على اتزانه واستقراره فيفقد هذا الاستقرار نتيجة لنقص الامكانيات والاصول المنتجة من جهة واستغلاله من قبل كبار التجار من جهة أخرى .

وقد يلجأ تاجر الجملة فى المقابل الى عدم التعامل مع التاجر الصغير أو الحجز على متعلقاته أو يلجأ لايذائه بدنيا (ضربه) اذا أعتقد بأنه يراوغه فى سداد قيمة السلعة .

وليس بخاف أن البائع الصغير يتعذر عليه تماما أن يهرب من منطقة لاخرى أو من حى الى آخر فهو واقع لا محالة فى يد التاجر الكبير .

وقد ذكر نحو نصف مجموع عينة الباعة الذين طبقت عليهم أستمارة الاستبيان أن الدولة (ممثلة فى وزارة التموين) تتولى تحديد قيمة السلعة وان كان من المؤسف أن الدولة لا تتدخل فى تحديد العلاقة بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة وهكذا يترك الباعة الجائلين كدمية فى يد كبار التجار بينما

يتعرض الباعة الصغار فى السوق كذلك للمحاسبة بمعرفة السلطات اذا حدث اى تجاوز للسعر المقرر .

وقد ذكر نحو ½ مجموع الباعة بأنهم يقومون بتحديد ثمن السلعة على ضوء العرس والطلب أو التسعيرة (ان وجـــدت) ، والامر الملفت للنظـــر حقيقة .

وذكر البعض بأن درجة جودة السلعة هو السر فى اختلاف الثمن من بائع لاخر وقد اتضح كذلك أن التجار يتفقون أحيانا على الثمن المحدد منعا للمضاربات أما الامر الغريب حقا فهو ما ذكره ٧ر٩٪ من مجموع الباعة من أن تاجر الجملة هو الذى يحدد ثمن البيع للتاجر وثمن البيع للزبائن ويحاسب التاجر الصغير على هذا الاساس كما فى حالة الاسماك على سبيل المثـــال فتاجر الجملة هنا لا يكتفى باستغلال هؤلاء الباعة البسطاء مستغلا افتقارهم لراس المـــال وعدم تماسكهم فى وجه **استغلال صغوة كبار التجار** فحسب بل يملى عليهم ارادته فى تحديد ثمن السلعة بينما ينفض يده فى حالة حدوث اى مشكلات للبائع الجائل مع الزبائن أو مع أجهزة السلطة الرسمية .

والملفت للنظر فى هذه الاسواق التى تشمل السلع الحياتية بأن ثمن السلعة غير ثابت بل يتغير بين آلحين والاخر وهذا التذبذب يرجع اساسا فى نظر البائع الصغير الى تذبذب العرض والطلب او لتحكم كبار التجار أو لتدخل الدولة .

وقد أفصحت استمارة الاستبيان التى طبقت على الباعة فى الاسواق (مجال الدراسة الحقلية) أن البيع **يتم يوميا** بالنسبة لـــ ٢ر٦٨٪ من الباعة اما بالنسبة لـــ ٧ر٣١٪ من الباعة الصغار فان البيع يتوقف أحيانا ، ويحدث هذا التوقف نتيجة للعجز عن الحصول على السلعة أو للمرض حيث لا يجد البائع ـــ وبخاصةاذا لم تكن أسرته برفقته فى المدينة ـــ سندا يعينه أو للمشاغل الاخرى أو رغبة فى الحصول على راحة أسبوعية وبخاصة النسبة لكبـــار السن ، وقد افصحت المشاهدات الميدانية بأن معظم الباعة يعملون ما يزيد عن ٨ ساعات يوميا وقد ذكر ٣١٪ من مجموع الباعة الصغار الذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان بأن ساعات عملهم غير محددة وقد تصل الى ١٥ ساعة يوميا اى انهم يقضون جل يومهم فى البيع والشراء ودون أن تتوفـــر لهم فرصة لرعاية أسرهم ومتابعة أولادهم والترفيه عن انفسهم والاحساس بآدميتهم .

وقد ذكر أكثر من ثلثى مجموع الباعة الذين تم استطارهم بأنه لا توجد هناك مواسم لتسويق السلعة مقابل الثلث قد ذكروا بأن هناك مواسم بعينها لتسويق السلعة اذ أن بعض الفواكه والخضروات تتصل بفصول السنة نفسها وفى هذه الحالة يلجأ البائع للاتجار فى سلعة أخرى ابان عدم وجود السلة .

وقد ذكر معظم الباعة الصغار موضوع الدراسة المسحية بأن هناك فترات يزيد فيها الطلب على السلعة وأفصح نحو ثلثى مجموعهم بأن هذه الفترات تتمثل فى المناسبات المختلفة سواء كانت دينية أو اجتماعية بينما ذكر ٢٣ر١٪ بأن هذه الفترات هى التى يمتنع — أو يصرح — فيها ببيع اللحوم ومن المعلوم أنه فى هذه الفترات يزيد الطلب على الخضر والفاكهة والاسماك والدواجن ومنتجاتها .

وقد تطرقت الدراسة الحقلية الى الطريقة التى سلكها البائع الصغير للاستقرار فى السوق واتضح أنه فى الوقت الذى لم يعتمد فيه أكثر من نصف الباعة على غيرهم اعتمد باقى التجار على بلديات أو زملاء أو على أمين الحزب الحاكم فى منطقة السوق وهو ما يعكس وعيا بدور الصفوة السياسية لضمان أستقرار البائع الصغير الذى نزح من قريته للمدينة طلبا فى الحصول على لقمة العيش له ولاسرته والطريف أن ٧ر٦٪ من مجموع الباعة الصغار قد ذكروا بانهم لجأوا الى « **رئيس السوق** » ليصرح لهم بالاستقرار فى السوق ويقصد بذلك وجود شخصية محورية يحترمها الباعة وتستند على مقومات العصبية وتنتفع بدورها من هذا التجمع فى الحصول على أصوات الباعة وتتحقق من خلالهم مكاسب سياسية محدودة .

ويحرص الكثير من الباعة على عدم أثارة مشاكل بينهم وبين تجار الجملة غير أن هذه المشاكل تحدث بسبب مغالاة هؤلاء التجار فى رفع أسعار السلع أو الى لجوئهم للغش مما يصيب البائع باضرار مادية كبيرة واذ ذاك يتدخل الزملاء والبلديات والاقارب أو كبار التجار وقد تتدخل الجهات الرسمية لفض هذه المشكلات ، وأن كان على البائع أن يتحمل تبعة هذه الشكوى فقد يتعرض للاعتداء من قبل تاجر الجملة وحاشيته .

ونادرا ما تحدث **مشكلات بين التاجر الصغير وغيره من باعة السلع الاخرى** وان كانت المشكلات تحدث عادة بين هؤلاء الباعة وبين الباعة الذين يفدون من مناطق ريفية لبيع الفاكهة ومنتجات الالبان فيفترشون الارض أمام

هؤلاء وتنشب الخلافات بينهم نتيجة لذلك ويتدخل البلدات أو التجار الاخرين لحل الخلافات مع الزملاء منها لاحتدام الشجار ، وقد ذكر ٣ر٤٠٪ من مجموع افراد عينة الباعة الجائلين فى الاسواق الدائمة بانهم يقومون بالبيع بالاجل ومن الملاحظ أن هؤلاء الباعة يتعاملون فى الاحياء الشعبية كالمنيرة الغربية بامبابة والخلفاوى بشبرا ، ومع الشرائح الفقيرة والمتوسطة الحال ممن ينوء كاهلهم بالتبعات والالتزامات العائلية والحياتية مع انخفاض دخولهم أما من يتعاملون مع الزبائن نقدا فيبررون ذلك بحاجتهم لسداد تجار الجملة بصورة دورية .

والطريف أن من ذكروا بانهم يقومون **بالبيع « بالشكك »** قد اتفق معظمهم بأن معرفتهم الكاملة بالزبائن يشجعهم على ذلك ويتمشى هذا مع احتلال الباعة لاماكن شبه ثابتة فى الاسواق بما يتيح لهم عادة التعرف على سكان الحى الذى يتجرون فيه بل أن بعض الباعة قد فسروا سبب لجوئهم للبيع بالاجل بأن الزبون لا يطلب بيعه بالشكك الا اذا كان مفلسا وانهم يرون ضرورة تلبية طلب الزبائن لهذا السبب ، وغير خاف أن مصلحة البائع الصغير تقتضى سرعة التخلص من الفاكهة والخضر والاسماك وغيرها حتى يتجنب التاجر تلف السلعة من جهة ولسداد تاجر الجملة فى الموعد المحدد من جهة اخرى ، فالمصلحة هنا مصلحة مشتركة ينتفع منها الباعة الصغار والشرائح العمالية الفقيرة التى يقف عجزها المادى حائلا عن دفع قيمة احتياجاتها يوميا بعد يوم فيتم السداد فى فترات أو مواعيد بعينها .

وقد ذكر معظم الباعة الصغار أنه لا تثور بينهم وبين الزبائن أى خلافات وهو ما أبرزته الدراسة الحقلية . فالبائع هو الخاسر عادة اذا دخل فى فلك هذه المشاكل سواء من الناحية المادية أو من غيرها من النواحى .

فاذا حدثت خلافات بينه وبين العملاء كانت نتيجة لاتهام الزبائن له بالسرقة أو محاولة اعادة السلعة المباعة له بعد وقت قصير بحجة رداءة السلعة ...

وقد أتضح أنه تحررت مخالفات لما يزيد عن ثلث الباعة بسبب البيع بأعلى من التسعيرة وشغل الطريق .

وفى حالة حدوث خلافات مع زملاء أو مع زبائن يلجأ البائع الجائل

لغيره من الباعة وللبلديات وقد يصل الامر الى حد النجوء للشرطة اذا تحرش احدهما بالاخر وتعذر التوفيق بينهما .

ومن الحقائق الهامة المتصلة بالحراك المهنى بين الابناء والاباء اتضح انه بالنسبة لاكثر من نصف الباعة كان الوالد يعمل بالزراعة وبالنسبة لنحو ثلث الباعة كان الوالد يعمل بالتجارة البسيطة ، ويعنى هذا بعبارة اخرى ان الحراك المهنى بين الاباء والابناء يكاد يكون محدودا أو معدوما ، فالزراعة والتجارة البسيطة لا تكاد تختلف عن التجارة السائدة فى السوق.

وقد اتضح من الدراسة الميدانية التى استخدمت فيها استمارة الاستبيان أن نحو ٣ مجموع افراد العينة قد جاءوا من محافظات أخرى والغالبية الساحقة منهم قد ولدوا بمناطق ريفية فى هذه المحافظات الريفحضرية ، ومن المرجح أن هؤلاء المهاجرين قد نزحوا من القرى لتحسين ظروفهم الحياتية ويؤدى هذا الحراك الجغرافى الى تغيير أسلوب الحياة ونمط العلاقات والاتجاهات والقيم بالنسبة لهؤلاء المهاجرين وان كان تاثيرها يصبح أعمق شانا بالنسبة للجيل الثانى والثالث على وجه الخصوص وغالبية الباعة المهاجرون قد جاءوا الى العاصمة للعمل فيها منذ اكثر من ١٠ سنوات واقل من ٣٠ سنة . غير انهم ظلوا حتى الآن شرائح فقيرة تعمل بالتجارة البسيطة وتستغل استغلالا منظما من قبل قوى اكبر منهم ، والامر الملفت للنظر ان معظم المهاجرين كان بوسعهم العمل فى المناطق التى نزحوا منها غير انهم فضلوا الهجرة للمدينة طمعا فى الحصول على العمل والاجر الثابت بدلا من العمل الزراعى العرضى الطابع غير انهم اضطروا لايتهم ونقص تدريبهم المهنى — للعمل بالتجارة البسيطة فأصبحوا **اداة طيعة فى يد كبار تجار الجملة الذين تزداد ثروتهم على حساب هؤلاء الباعة الصغار ممن يتمكنون بالكاد من تدبير ظروفهم المعيشية** والقيام بأود اسرهم فيعملون لتحقيق هذا الغرض على تشغيل أولادهم الاحداث معهم فى السوق فيتعذر على هؤلاء الابناء فيما بعد أن يستكملوا تعليمهم أو يعملوا بمهن أخرى فنية أو نصف فنية ، وقد اتضحت الدراسة الحقلية ان معظم الباعة الصغار **يتكدسون مع اسرهم فى مساكن ضيقة مشتركة** أو حجرات أو اكشاك خشبية حيث يزداد معدل الازدحام فى المسكن غير الصحى فتسهل الاصابة بالامراض المختلفة وقد يترك التاجر الصغير اسرته فى الموطن الاصلى ويعيش بمفرده فى حجرة مشتركة أو ينام بجوار بضاعته فى السوق نتيجة لفشله فى العثور على السكن المناسب فى المدينة بينما يرسل لاسرته جزءا معلوما من دخله

الامر الذى يؤدى بدوره الى مشاكل عديدة شخصية وأسرية فى منـــاطق الجذب والطرد معا . وهكذا يزداد الفقير فقرا نظرا لسوء أحواله المعيشـــية من جهة وسوء المرافق وظروفه السكنية غير الملائمة من جهة أخرى .

ومما يميز الباعة فى هذه الاسواق اليومية أن أكثر من نصف هـــؤلاء الباعة يعيشون فى ألحى نفسه ألذى يوجد فيه السوق ، ويشترك عدد ليس بقليل من الباعة فى **جمعيات اختيـــارية** تضم الزملاء والبلـــدات وتوفر لهم المساعدات المادية فى حـــالة تعرضهم للكوارث وتحـــاول أن تعوضهم عن الروابط والعلاقات الوثيقة (التى افتقدوها بعد النزوح للمدينة) وهى نتيجة تتفق مع دراسات ليتل وغيره من علماء الانثروبولوجيا الذين ابرزوا اهمية الدور الذى تلعبه هذه الجمعيات فى مناطق الجذب فهى جمعيات تزيد تماسك هؤلاء الباعة من ناحية وتربطهم بالموطن الاصلى من ناحية أخرى كما تحميهم من الصدمة الثقافية فى المدينة الكبيرة من ناحية ثالثة .

والامر الملفت للنظر كذلك أن بعض من رفضوا الاشتراك فى هـــذه الجمعيات أفادوا بأنه ليس لديهم وقت لذلك وهو ما يوضح ضغط الحيـــاة المعيشية والجرى وراء لقمة العيش نتيجة لدورة الحياة السريعة فى المدينة.

وغنى عن القول أن هذه الشرائح **تحرم تماما من ملكية ادوات الانتاج ومن رعاية الدولة لها وهو ما يعنى انها انمـــا تترك كدميـــة فى يد الشرائح البرجوازية فتعانى من الاغتراب نتيجة لذلك ويوجه جهدها الاكبر لاشباع احتياجاتها الاساسية التى لا تشبع كما ينبغى .**

وما نريد أن نؤكده فى النهاية أن حشود التجار الصغار فى اســـواق المدينة تؤدى مجموعة من الادوار المزدوجة :

فهى **عمالة وافدة من القرية** للعمل فى المدينـــة حيث تستبدل الزراعة بالتجارة البسيطة اى أنها تخرج من **القطاع الاول** (كما يسميه الاقتصاديين) وهو قطاع الانتاج الزراعى ألى **القطاع الثالث** وهو قطاع التجارة والخدمات.

وهى **قوة عاملة عانت من البطالة المقنعة فى الريف** فاشتغلت بالاعمال العرضية المتمثلة فى التجارة البسيطة التى تفتقد لرأس المال وتقنع بهامش

الربح البسيط ، اما الربح الحقيقى فيذهب لصالح كبار تجار الجملة ممن يزداد تراكم رأس المـــال بالنسبة لهم دون ان يتعرضوا بدورهم لمخـــاطر وتقلبات السوق .

وهى شرائح عمالية او بروليتاريا هامشية تعانى من تدنى خصائصها الاجتماعية (*) وتضطر فى المقابل لتشغيل الابناء الصغار لسداد قيمـــة السلعة بينمـــا لا تملك فكاكا من قبضة الدولة التى تدافع عن جمهـــور المستهلكين وهى تعانى أيضا من تدخل **السماسرة والوسطاء** الذين اسهموا فى زيادة قيمة السلعة ويعتبرون منافذ لعملية الشراء .

فاذا كانت هذه الشرائح العمالية قاصرة عن الوفاء بالتزامات العمل الصناعى أو التجارة الرشيدة فى المدينة فان هجرتهم للعاصمة تلعب دورا هاما فى تخفيف حدة البطالة فى القرى التى نزحوا منها واذا كانوا يقاومون بدورهم الذوبان فى مجتمع المدينـــة (**) فانهم ينتخبون بعض الاســـاليب الثقافية الحضرية التى تسهل احتكاكهم بمجتمع المدينة ولا تتعارض وثقافتهم التقليدية .

والهجرة هنـــا بالنسبة للباعة فى السوق تأتى كاستجابة للفـــروق الموجودة بين الريف والحضر فى مصر ودول العالم الثالث حيث ينشد البائع الصغير فى السوق العمل فى مجال التجارة البسيطة دون أن يفقد الامل فى الانتقال للقطاع الحديث للعمل فى مجال الخدمات الهامشية اذا سنحت له الفرصة فى المستقبل .

ويرجـــع كوستللو F. Costello **وبيريز** سبب تكدس الباعة الجائلين فى الاسواق وأرصفة مدن العالم الثالث الى تدنى مستويات دخول هذه الشرائح وقيام الدول بتنظيم تواجدهم فى المدن فضلا عن رغبة هؤلاء الباعة فى التركيز فى مناطق بعينها فى المدينة . وغير خاف أن هـــذه المبررات لا تفسر تكدسها فى هذه المناطق اذ أن السبب الحقيقى يكمن فى نقص الاصول المنتجة وضآلة رأس المـــال فهم يلجأون عادة للاحياء الشعبية

(*) يقصد بها الخصائص التعليمية والمهنية ومكانتها الاجتماعية الخ .
(**) اذ يحتفظ معظمهم بلباسه التقليدى ولهجته الاصلية .

والمناطق (آلمتخلفة) حيث الاعداد الهائلة من البشر الذين يتمكنون من تصريف سلعهم بواسطتهم كما أن هذه السلع بدورها تكون عادة متوسطة الجودة رخيصة الثمن مما يسهل بيعها فى هذه المناطق .

ثانيا ــ الاسواق الاســبوعية :

تمت هذه الدراسة الحقلية فى اسواق المطرية وامبابة حيث تقـــام هذه الاسواق اسبوعيا فى هذه الاحياء وليس بخاف أن هذه المناطق كانت بدورها مناطق زراعية قبل أن تضم لكردون المدينـــة . وقـــد اتضح أن « **الخردة** » (*) تعد اكثر السلع تداولا فى هذه الاسواق كما أن اعمار الباعة عادة تزيد عن ٤٠ سنة (٧٥٪ من مجمـــوع الباعة المدروسين فى أســـواق المطرية وامبابة) وليس بخاف أن الاعمار هنـــا اعلى قليلا من اقرانهم فى الاسواق اليومية فالحنكة والمهارة لازمة واساسية للبائع فى هذه الاسواق وغنى عن القول أن **الاميـــة** تنتشر بينهم بصورة ملحوظة ، والغالبية الساحقة من الباعة متزوجين ولهم اطفال غير أن نسبة من يبلغ اولادهم خمس سنوات فاكثر تصل الى ٣/٤ مجموع الباعة فى هذه الاسواق الشعبية ويعنى هـــذا ان اسرة البائع كبيرة الحجم حيث يصبح الاولاد مصدرا اساسيا للدخـــل الضئيل . وبعبارة اخرى فالبائع هنا ينتمى للمرحلة العمرية آلتى تســـمى مرحلة ما قبل الشيخوخة « ٥٤ فاكثر » ، وهـــو امى صاحب اسرة كبيرة الحجم ، ويشكل هذا تدنيا فى الخصائص الاجتماعية والديموجرافية ، وينتمى معظم باعة هذه الاسواق الاسبوعية لمدينتى القاهرة والجيزة وليس هذا بالامر المستغرب فمن الطبيعى أن يسكن باعة الاسواق الاسبوعية فى اقليم القاهرة الكبرى حيث تنتشر فى مجتمعاتها المحلية هذه الاسواق ، ويتفق افراد هذه الشريحة مع شريحة الباعة فى الاسواق (اليومية) فى انتسابهم لاباء كانوا يعملون بالزراعة والاعمال آلحرفية البسيطة ويعنى هذا أن الاباء كانوا يعملون فى مجال المهن البسيطة وأن الحراك المهنى بين الاباء والابناء ليس كبيرا وهكذا يعاد انتاج العامل الامى المتزوج صاحب الاسرة الكبيـــرة الحجم الذى يكاد يكفى بالكاد قوت أولاده بينما يعيد أولاده هذه الدورة عادة مرة اخرى ، والملفت للنظر بالنسبة للاسواق الاسبوعية أن البضـــــاعة

(*) تشمل الخردة ادوات كهربائية مستعملة واخشاب وقطع أثاث وحدايد ونحاس ... الخ .

أو السلعة تتجمع لدى الباعة من المرور على المنـــازل والمؤسسات والمتعهدين والاسواق الكبرى ، وهى عملية تستلزم جهـــدا وقدرة على المســـاومة فى الشراء والبيع . والطريف أن معظم الباعة لا يستسيغون فكرة عمل **أولادهم** فى مجال التجارة (البسيطة) كباعة فى الاسواق الاسبوعية ويعنى ذلك انهم يرغبون عادة فى أن يعمل الابناء بأعمال اكثر استقرارا عوضا عن العمـــل بهذه الاعمال العارضة غير المستقرة غير أن استعانتهم بأولادهم فى سن صغيرة وحرمانهم من التعليم يجعل تحقيق هذه الرغبة أمرا عسيرا ، ولا تكاد نسبة الباعة الذين ذكروا أن ثمة مشاكل بينهم وبين الزبائن تتعـــدى ربع مجموعهم وان كانت معظم هذه المشاكل تحدث بسبب الاختلاف فى تقدير الثمن فالبيع والشراء يتم عادة هنا دون وجود لافتات بالاسعار المقررة بل من خلال عملية المساومة ، ويدفع معظم الباعة قيمة مادية نظير الدخـــول فى السوق وهذه القيمة تحصلها فى النادر جهات رسمية كالمجلس المحـــلى ولكنها تصل عادة الى جيوب السماسرة و « الفتوات » فى الاحياء الشعبية ممن يفرضون عليهم أتاوات .

وفى حالة حدوث مشكلات فى السوق تترك الامور عرضة لتـــدخل « أى حـــد » للتغلب على المشكلات بينما يتدخل البوليس بصورة تتعدى ربع مجموع المشاكل بقليل . والواقع أن المشاحنات قليلة الحدوث فالقراء هم رواد هذه الاسواق وهم يعلمون أن السلعة بدورها مستعملة من قبل وبها عيوب .

ومهما يك من تمايز للبائع فى هذه الاسواق عن البـــائع الجـــائل فى الاسواق اليومية للخضر والفاكهة والسلع الغذائية (حيث لا توجد رقـــابة على الاسعار ولا ضغوط من تاجر الجملة ولا سماسرة أو وسطاء) فـــان الزبون يكاد يخطف عن قرينه فى الاسواق اليومية فهو لا يذهب لشراء ما يسد رمقه بل يتردد عادة لشراء بعض قطع الاثاث القديمة أو الملابس المستعملة أو الخردة من الادوات الكهربائية وغيرها من السلع (الكمالية) التى يتولى أصلاحها حتى لا يضطر لشراء الجديد ذو السعر المرتفع واذ ذاك فان كم الضغوط الرسمية هنا على البائع الجائل أقل بكثير فى هذه الحالة منهـــا فى حالة اتجاره بالسلع الغذائية كما أن الكثير من الزبائن فى هذه الاسواق من الهواة الذين يبحثون عن التحف أو قطع الغيار أو الصور والاجـــزاء التى تعذر عليهم شرائها من متاجر المدينة أما عن شكل السوق نفسه فان الباعة فى الاسواق الاسبوعية يفترشون عادة الارض حيث توضع السلعة

على اسمال بالية ويضطر الزبائن للجلوس القرفصاء لاتمام عملية الاختيار والشراء ، كما تتم عملية الشراء عادة فى زمن أطول نظرا لرغبة الزبون فى فحص السلعة ومعرفة عيوبها وفحص تناسب مقاسها او حجمها مع المقاس او الحجم اللازم له كما أن الاثاث والاجهزة الكهربائية وغيرها فى حاجة الى المزيد من الفحص قبل بداية عملية المساومة ، حتى لا يكتشف الزبون عدم صلاحيتها بعد أن يشتريها . وعادة ما يستقر الكثير من هؤلاء البـــاعة بسلعهم الكبيرة منذ مساء اليوم السابق للسوق حتى يتمكنوا من ضـــمان الموقع أو مكان عرض سلعهم ووضعها فى الحيز المتاح بصورة تسهل عملية البيع والشراء ، وينفض السوق عصر اليوم التالى ومن ثمة ينتقل معظمهم الى منطقة ثانية وثالثة حسب تواجد السوق الاسبوعى فى هذه المناطق ، وهكذا يلهث البائع بصورة مستمرة وراء لقمـــة العيش دون أن تتوفر له ابسط الضمانات التى تكفل له حياة عائلية او اقتصادية مستقرة .

وغنى عن القول أن هذه الشرائح بدورها تحرم تماما من ملكية أدوات الانتاج ومن رعاية الدولة لها وهو ما يعنى أنها تترك كدمية فى يد الشرائح البورجوازية .

فالبائع الجائل يعمل لمجرد أشباع احتياجاته الاساسية فحسب وهو يحرم عادة من تدخل الدولة لحمايته مما يؤدى لعدم استقراره . ولا تعامل هذه الشرائح الهامشية معاملة الشرائح المهنية أو العمالية الاخرى التى لها حقوقها النوعية فى الرعاية الصحية أو الاسكان أو المواصلات بل أنها تترك فى هذه الحالة وحيدة تتلهث خلف الحد الادنى من الرعاية الصحية المجانية غير الكافية وتتعرض نتيجة لضآلة دخولها للعديد من المشكلات الشخصية والاسرية ، وقد أتيح للباحث أن يقضى فترات متقطعة فى ملاحظة الاسواق اليومية والاسبوعية فى بعض البلدان كتركيا واليونان واتضح أن البـــاعة الجائلين فى اسواق أسطانبول واثينا ليسوا بأسعد حالا من نظرائهم فى مصر .

ولعل هذا يؤكد ما ذكره كوريك بقوله :

«That of self — employed workers intertiary sector (street vendors) selfemployed workers in maintenance and servising .. which in addition to unemployment and temporary and seasonal

work are not only constantly stimulated by capitalist development but olso structurally articulated with it».

وما نريد أن نؤكده فى النهاية هو أن شبكة العلاقات الاجتماعية فى الاسواق الحضرية اليومية والاسبوعية بين البائع الجائل والمستهلك هى علاقة تقوم على دعائم مستقرة وشبه ثابتة واذا كان البائع يتعرض من سكان الاحياء الشعبية لضغوط مادية وأجتماعية لا حصر لها فان الباحث يشعر فى نهاية الامر أن البائع فى هذه الاحياء التى قمنا بدراستها يتعرض لضغوط اجتماعية واقتصادية من قوى فى سوق الجملة ، ومن الجهات الحكومية التى تركز على رقابة الاسواق الاستهلاكية وعلى العلاقة بين البائع والمشترى دون أن تمتد هذه الرقابة لتحكم العلاقة بين تجار الجملة أنفسهم وتجار التجزئة الذين تؤدى ظروفهم وأوضاعهم الاقتصادية السيئة للوقوع فى براثن هذه الشرائح البورجوازية التى لا تكتفى بظلم هذه الشرائح بل وبالتلاعب كذلك بالاسعار مما يصيب الناس بهزات اقتصادية عنيفة وتعرض الاقتصاد القومى برمته لمخاطر عديدة .

الفصـــل الثـــامن

« الانثروبولوجيـــا الســـياسية »

يذكر سبرادلى وماكردى Spradley, Mccurdy (١) أن السياسة تعنى **العمليات الثقافية** المستخدمة **لصنع** القرارات التى تؤثر فى السياسة العـــامة .

وليس معنى هذا أن المجتمعات المتقدمة والامم الحديثة تحتكر لنفسها هذا النسق السياسى دون غيرها من المجتمعات البسيطة فلدى معظم هذه المجتمعات البسيطة والقبائل انساقها السياسية التى تنهض على قواعد واعراف وتقاليد غير رسمية وغير مكتوبة .

ولكل مجتمع وسائل **لانهاء الخلافات** بين الافراد كجزء من نظـــامه السياسى ، وقد تتضمن هذه الوسائل نظما رسمية كالمحكمة . وفى احيـــان اخرى يستخدم المجتمع وسائل غير مادية لانهاء هذه الخلافات وهى التى يعبر عنها كوش K.F. Koch بقوله :

«Every Society has as part of its political System, Means for settling disputes among membres».

غير أننا نرجح ان المجتمعات البسيطة والقبائل التى تعيش فى عزلة نسبية تستمد السلطة السياسية فيها قوتها من غيرها من الانساق ولا سيما من الانساق القرابية ومن بعض المحددات الموروثة كالمكانة الاقتصـــادية وقوة وسطوة القادة والزعماء وغيرها من المحددات الذاتية ، ويذكرنا هذا بما سبق أن ذكره سير هنرى مين Maine حين ميز بين شبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات البسيطة القـــائمة على اساس المكـــانة الموروثة والقرابة مقابل العلاقات الاجتماعية المعقدة القائمة على اساس المكـــانة

المكتسبة فى المجتمعات المعقدة وما قدمه فيبر M. Weber عن المجتمعات التقليدية وغير التقليدية (كنماذج مثالية) (٢) .

وقد زخر تراث الرواد امثال **مارس وانجلز وميلز وميرتون** بالعديد من وجهات النظر والمداخل المختلفة التى يمكن ان تساعدنا فى تحليلنا للنسق السياسى وفهم ديناميات المختلفة فماركس Marx قد ابرز الوعى بالصراع الطبقى Class Struggle وارجع الاختلاف بين الجماعات الاقتصادية **لوعيها الطبقى** الذى يجسد ويزيد من حدة هذا الصراع حيث تشكل **علاقات الانتاج** (البناء الاقتصادى) البناء السياسى العلوى للمجتمع (٣) فنمط الانتاج يشكل الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية برمتها فى التراث الماركسى .

بينما يؤكد انجلز Engels ان الدولة فى كل حقبة تبرز سيادة طبقة بعينها على ما عداها فالدولة فى الحقيقة هى دولة **الطبقة الحاكمة (٤)** .

وقد اهتم ميلز Mills بالقوة والسياسة والناس والمعرفة واعتبرها جوهر الدراسة فى الانسانيات وغير خاف ان هذه المعطيات هى جوهر النسق السياسى ذاته ومفتاح دراسته ايضا (٥) .

وقد تعرض ميرتون Merton للنسق السياسى — فى معرض حديثه عن البناء والوظيفة الاجتماعية حيث تساعد **الوظيفة الاجتماعية** لاى تنظيم فى تحديد البناء الاجتماعى — وهو يؤكد ان الجهاز السياسى يؤدى وظيفة بعينها فى المجتمع فاذا حدثت عيوب بالنسبة للجهاز الرسمى للدولة ظهر **بناء سياسى** (بدليل) لاشباع الحاجات المرجوة بدرجة اكثر كفاءة ولاشباع حاجات اخرى غير مشبعة لجماعات وشرائح مختلفة من السكان (٦) .

وتشير السياسة عادة الى **القوة** حيث تستحوذ القوة السياسية عادة لتحقيق اهداف اقتصادية فالثروة تعنى القدرة على الضبط والهيمنة السياسية اذ ان **الاقتصاد والسياسة صنوان** (٧) .

ويرى بعض الثقاه أن النسق السياسى يعكس فكرة **المحافظة على النظام فى المجتمع** فى أقليم معين بالذات من خلال استخدام القوة أو التهديد باستخدامها .

وان المتتبع لتعريف رواد هذا العلم للنسق السياسى وأسلوب معالجته يلحظ خلافات بينهم فى وجهات النظر فهوبل Hoeble يرى سيادة التنظيم السياسى فى كل المجتمعات الانسانية بينما يقصر ردفيلد Redfield وجوده على المجتمعات المعقدة فى الوقت الذى يعتقد فيه ميردوك Mrudock أن عامل **التعقد** أو حجم السكان فى المجتمع له دخل كبير فى تكوين الدولة (٨) .

وغنى عن القول أن النسق السياسى فى المجتمعات البسيطة والمعقدة على حد سواء — لا يمكن دراسته الا فى ضوء علاقته ببباقى الانساق ، ويذكر روفيلد أن كل من فورتس F.M. Fortes وأيفانز برتشارد E. Pritchard قد قاما بدراسة **الانساق السياسية والقانونية والقرابية** فى بعض المجتمعات الافريقية ويتفق هؤلاء الرواد فى أن وحدة الجماعة من الداخل وتماسكها من الخارج هو السند الذى يستمد منه الافراد أوضاعهم ومراكزهم الاجتماعية فالبناء الاجتماعى فى نظر فورتس على سبيل المثال يعكس نسق المراكز والادوار السياسية والقانونية (التى ترتبط بالمكانات التقليدية فى المجتمعات البسيطة ويعزز بواسطة الالقاب والجزاءات الشعائرية .

ويرى فورتس أن هناك نظاما يتمثل فى البدنة التى تمثل سدى النسيج الاجتماعى أو لحمته — فضلا عن العلاقات التى تقوم بين ارباب السلطة الذين يخضعون لهذه السلطة .

ويلفت ردفيلد النظر فى دراسته لشان كوم Chankom الى ظاهرة الحزبية والانقسامات داخل المجتمع المحلى والتى تدور عادة فى فلك القرابة واللاقات القرابية — لبلوغ أهداف سياسية — ومن المعروف أن قرية (شان كوم) التى درسها ردفيلد كانت جزءا من دولة قومية وهى المكسيك وكانت جماعة « ليجا » فى المجتمع المحلى تضم الشباب فى القرية وتعد بدورها فرعا من الحزب السياسى المسيطر فى الدولة ، وقد درس ردفيلد المدرسة والحزب السياسى والجمعية التعاونية الزراعية كأجزاء مستحدثة فى البناء الاجتماعى التقليدى لهذه القرية (٩) .

وقد استحوذت **التغيرات السياسية** التى تحـــدث فى المستعمرات الافريقية على اهتمام علمـــاء الانثروبولوجيا وقد نظـــر البعض من امثـــال **مالينوفسكى** Malinowski الى هذه المجتمعات باعتبارها محل تفـــاعل ثقافة اصلية تقليدية واخرى استعمارية وافدة فأطلق عليها « المجتمعـــات المؤتلفـــة » وسعى لدراسة وتحليل عمليات التغيير والتفاعل الثقـــافى ، بينما نظر اليها البعض الآخر من امثال **رادكليف براون** ليس فى ضـــوء فكرة التفاعل فحسب ، بل على اعتبار ان تفاعل الافراد والجماعات يتم داخـــل بناء اجتماعى واحد قائم بالفعل يمر — هو نفسه — بعملية تغير فما يحدث فى احدى قبائل « الترانسكاى » لا يمكن دراسته الا باعتبار ما يحـــدث يشكل **جزء من النسق الســـياسى الذى يمـــد بدوره احد اركان البنـــاء الاجتماعى اكبر** فالتركيز هنا على البناء الاجتماعى وليس على عملية التغير نفسها (١٠) ومع أهمية النسق السياسى (أوى اى نسق آخر) الا أن جورج جورفتش G. Gurvitch يلفت النظر الى انه لا يمكنه أن يعبر بمفـــرده عن البناء الاجتماعى للمجتمع الكبـــير بل آن الدولة نفسها أو الاحـــزاب السياسية القائمة فى المجتمعات المعقدة تعجز وحدها عن اعطاء « صـــورة دقيقة عن هذا البناء » (١١) .

ويذكر الفريد ستيبان Astepan (١٢) أن هناك **٣ واجبات اساسية للدولة** فى اى مجتمع :

١ — **حماية المجتمع** من الغزو الخارجى .

٢ — **حماية كل عضو** من تعسف الغير وارساء دعائم العدالة .

٣ — **تأسيس ودعم النظم العامة** فى المجتمع .

والامر الذى ينبغى أن يعترف الباحث به أن الانثروبولوجيا السياسية لم تمنح اهتماما حقيقيا من العلمـــاء خشية القـــاء الضوء على الاستعمار والكشف عن حقيقة ممارساته بل ان اصـــحاب المدخل الوظيفى ممن قاموا بدراسة النسق السياسى وبخاصة فى افريقيـــا لم يتوصلوآ — بصـــورة أو بأخرى — الى أن هذه المجتمعات قادرة على حكم نفسها طبقا لثقـــافتها وتقاليدها السياسية الخاصة وعلى العكس من هذا فقد توصلت معظم هذه الدراسات الى أن هذه المجتمعات ما زالت تسودها الفوضى الســـياسية والتناحر بين القبائل المختلفة (١٣) .

ويقرر بيلز وهوبجر Hoijer ، Beals (١٤) انه بالرغم من ان الجماعة المحلية تشكل نقطة انطلاق فى دراسة النسق السياسى الا أن الجماعة فى حد ذاتها قد لا تشكل بالضرورة وحدة سياسية مستقلة غير أن وجود شخصية أو شخصيات قيادية يعد من مستلزمات هذا النسق ولدى بعض القبائل تتشكل الوحدة السياسية من مجموعة من العشائر أو العصبيات التى تشترك عادة فى مشروعات أقتصادية أو اجتماعية أو طقوسية واذ ذاك تؤدى **الوظيفة السياسية من خلال النظم الاخرى** كالقرابة والدين فتظهر الوظيفة السياسية دون التنظيم السياسى ذاته وهو ما يسود عادة فى المجتمعات البسيطة المنعزلة ، وهناك المجتمعات المنظمة سياسيا والتى تلجأ احيانا للانتظام فى اتحادات (بينما يسودها الاقتصاد المعيشى) كما أن هناك مجتمات حربية تطمع فى السيطرة على ما عداها حيث ينتج الاقتصاد فائضا يمكن تبادله مع العالم الخارجى .

وغنى عن القول أن كتابات ماركس ومؤلفاته فى الاقتصاد السياسى قد أثرت تأثيرا واضحا فى مجال الانثروبولوجيا السياسية وقد أوضح فهيم (١٥) أن علماء الانثروبولوجيا قد شغلهم فى أعمال كارل ماركس مسألتين **أولهما نظرة ماركس للانسان** ، والثانية **نظريته فى التطور الاجتماعى** ، وعلى الاخص آراؤه عن المجتمعات البسيطة (البدائية) فالانسان من جهة جماع للعلاقات الاجتماعية — التى تتجسد فى الظروف المادية الحياتية — كما أن الحقوق الانسانية واشكال الدولة لهما جذورهما فيما يعرف « بالمجتمع المدنى » الذى يتوقف بدوره على **اسلوب الانتاج** وهو بدوره اساس **التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية** ، وهكذا ظهر علماء الانثروبولوجيا أصحاب النهج الماركسى أمثال ستانلى دايموند Diamond الذين ينظرون للماركسية كمنهج للتحليل الاجتماعى التاريخى والبصيرة الاجتماعية واتجه أصحاب المادية الديالتيكية بنظرهم لاعتبار الانثروبولوجيا جزءا من حركة سياسية كبرى تدعم البروليتاريا وتهدف لتدمير النظام الراسمالى كما أدى هذا الحوار الى التنوع فى وجهات نظر الانثروبولوجيا الثقافية .

وفى الوقت الذى يرى فيه ايستون Easton وفريد Fried وسميث Smith ودونالد كرتز D. Kurtz ان هناك قصورا واضحا فى الاطار النظرى فى مجال الانثروبولوجيا السياسية وملامحها الاساسية يرى كوهين أن الانثروبولوجيا السياسية تقف على أرض أكثر صلابة من غيرها من الفروع والعلوم السياسية نظرا لحرصها على الحصول على بيانات وافية عن الانسان والدولة والمجتمع (١٦) .

وقد زخر مجال الانثروبولوجيا السياسية بعديد من الدراسات النظرية والميدانية وانتفع هذا المجال — رغم حداثته النسبية — من التراث النظرى الذى أرساه علماء السياسة والاقتصاد السياسي فقد ناقش دافيد بيدنى D. Bidney (١٧) على سبيل المثال فى مؤلفه عن الانثروبولوجيا النظرية Theoretical Anthropology — وفى معرض حديثه عن النظريات المثالية والمادية الخاصة بالازمات الثقافية — قضية الحرية الفكرية والسياسية ، وقضية السلطة ، والايديولوجية التى تشير بدورها الى أداء القوة السياسية لممارسة الضبط السياسى الشامل على الحياة الثقافية .

كما ناقش البعض الآخر أمثال ل . رادولف وسوسان رادولف L.I. Rudolph ; Susanne Rudolph ما يمكن أن نسميه بالتحديث السياسى للبنيات التقليدية فى الهند فى ضوء المفاهيم الماركسية والاتجاهات الراديكالية وغيرها (١٨) .

ويعتقد روبرت ميرفى R.F. Murphy (١٩) أن عدم المساواة واختلال توزيع القوة يتركز فى المجتمعات المعقدة بينما لاحظ كذلك أن الجماعات البسيطة التركيب لا تشهد عادة وجود طبقات ، وقد توجد قيادة محدودة أولا توجد على وجه الاطلاق فلدى الشوشونى Shoshoni لا يوجد رؤساء اذ انه ليس ثمة حاجة وظيفية للقيادة فى هذه القبيلة

وفى مقاله عن الصراع كتب جورج سيمل عن الجماعات المتنافسة (كالهنود والامريكان) ويتمثل الصراع أحيانا فى تبنى أشكال معينة من القيادة كوسيلة للتعايش المتبادل والوصول لاتفاقات بين هذه الجماعات .

كماقدم سيمل أمثلة أخرى عن قبائل شوشونى نيفادا وبدنة الاريكوا (التى تسكن وسط وغرب ولاية نيويورك وبنسلفانيا) وتبذلآلاولى جهودها وتدخل فى صراع مع السلطات الرسمية للحفاظ على حقها فى صيد الجاموس ويبذل الاريكوا جهودا مماثلة للسيطرة على زيادة السكان ومواجهة زيادة الضغط على المصادر.

وقد استفاد البعض من تراث علم الاجتماع السياسى وذلك من خلال

كتابات ماكس فيبر ومفهومه عن القيادة « الكارزمية »ومن « الصـــــفوة » الذىقدم له باريتوموسكا وميتشلز .

وقد ظهرت بعض المؤلفات تحت مظلة **مدرسة التبعيـــة** لتاكيـــد اثر العوامل الخارجية على البلدان المتخلفة حيث يتركز الاهتمام هنا على اثر هذه (العوامل الخارجية) فى تشكيلالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافة فيتلكالبلدان المتخلفـــــة صناعيا ، ويعـــد راؤول بريبش اول من استخدم تعبير **المركز والمحيط** فى نهاية الاربعينيات لدراسة **اثر النظام العالمى والتغلغل الامبريالى** فى البلدان المتخلفة .

وقد انتقدت مدرسة التبعيـــة لميلها للتعميم مع ان المجتمعات المتخلفـــة التى صممت هذه النظرية لدراستها تتنوع فى طبيعتها وتختلف فى **خصوصيتها التاريخية** .

ومن هنـــا حاول البض امثال براس المزاوجة بين افكار مدرســـــة التبعيـــة والمعالجات الاجتماعية والاجتماعية والاقتصادية والطبقية فى العالم الثالث وهى المعالجة التى تمت صياغتها بعد ذلك فى عدة مداخل معرفية :

ا ـــ **المدخل التقليـــــدى** ويدرساثر التبعيـــــة على الاوضاع السياسية فى المجتمعات المتخلفة باعتبار هذه الاوضاع تعبر عن البناء الاجتماعى الذى تشكله علاقات التبعيـــة وفقا لوضع المجتمع داخل النظـــام العالمى .

ب ـــ المدخل الذى يركز على دراسة **علاقة التبعيـــة بالظاهرة السياسية** فى المجتمع المتخلف لفهم الدور الذى تلعبه التبعية فى صياغة شـــــكل الدولة فى المجتمعات والبلدان التابعة .

جـ ـــ المدخل الذى يركز على **التبعيـــة الثقافية** من خلال دراسة الثقـــافة عامة ونسق القيم بصفة خاصة .

د ـــ دراسة **التاثيراتالمباشرة للقوى السياسية** للدولة الكبرى من خـــلال التركيز على طبيعة المعونات الخارجية(مادية وفنيةوعسكرية..الخ).

اتجاهات الدراسة فى الانثروبولوجيا السياسية :

١ — الاتجـــــاه البنـــائى :

وقد تأثر اتباعه **بكتابات ماكس فيبر ودوركايم وبين وسيبل وغيرهم** ويضم كذلك فورتس وايفانز برتشارد الذين قاموا بدراسة الانساق السياسية فى افريقيـا وهذا المدخل يركز على التصنيف الاولى (للمجتمعات الى ما يمكن تسميته بالدول) (التنظيمـات الادارية المركزية) واللادول (العشـــائر والعصبيات) . ويعـرف براون هنا التنظيم السياسى بأنه التنظيم الذى يعمل على المحافظة على النظـام الاجتماعى فى الاطـــارالاقليمى بواســطة الممارسة المنظمة للسلطة (الفزيقية) ويأخذ البعض من امثال لويد Lioyd على هذا الاتجاه تركيزه على لوحدات الادارية للحاكم فحسب ، وتجاهله لصناع القرار والسياسة الاجتماعية ، كما يأخذ البعض امثال كرتز Kurtz على اتباعه المبالغة فى اظهار التباين بين الانساق السياسية فى المجتمعات غير الاوربية والمجتمعات الاوربية بينما يعتقد البعض امثال فورتس Fortes وسميث Smith وبيفـو Befu ان الاسهام الحقيقى لهذا المدخل يتمثل فى **التمييز بين الانشطة السياسية وغير السياسية** (كالانشطة القرابية وغيرها) وهذا المدخل كمـا يذكر Chen لازال يعـد ابرز مداخـــل الدراسة فى الانثروبولوجيا السياسية رغم ضحالة تركيزه على الفعل السياسى نفسه .

٢ — مدخـل العمليـــات :

ويركز على **العمليات السياسية التى تؤثر فى القوى الداخلية والخارجية** للافراد والجماعات الذين يستوعبهم النسق السياسى كما أن هذا المدخـل يركز على **التنافس والصراع** لدى الجماعات دون أن يقتصر على الابنيـــة الرسمية وحدها والسياسة فى ضوء هذا المدخل تعنى العملية الســياسية أو العملية التى تسهم فى تحديد وتحقيق الاهداف العامة من خلال استخدام القوة ويشير الفعل السياسى هنا الى الافراد والجماعات الذين يشاركون فى النشاط السياسى فضلا عن القيم والمعانى والرموز المستخدمة لمتـابعة هذا النشاط ويعبر عن هذا الاتجاه جلوكمان Gluckman وفلسن Velsen وتيـرنر Tirner وقـد حاول بالى Bailey وبارث Barth التوفيق بين الاتجاه البنائى وهذا الاتجاه

٣ — مدخل الاقتصاد السياسى :

يتبنى هذا الاتجاه مقولة مؤداها ان **التحكم فى الموارد الاقتصادية وتنميتها** هو العامل المؤثر فى نمو القيادة السياسية والقوة وفى زيادة تعقد الحياة الاجتماعية ويعمل التنظيم السياسى على ادارة المجتمع والتحكم فى مراكز وافعال باقى الافراد والجماعات ومن رواد هذا الاتجاه **انجلز وآدم سميث** كما أن من اتباعه سالين Sahlin وآدمز Adams وفريد Fried ولنسكى Lenski ويعد مارفن هاريس M. Haris وكارنيرو Carneiro من أبرز من عبروا عن فكرة التطورية السياسية والاقتصادية حيث تظهر السلطة السياسية نتيجة لاستحواذ بناء القوة Power Structure فى المجتمع على الفائض الاقتصادى .

٤ — مدخل تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية :

ويركز هذا الاتجاه على **تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية** فى الجماعات غير الرسمية التى لا يضمها بناء معين ولسد الفجوة بين الاشخاص والابنية الرسمية فى المجتمع ، ويلخص بيلز وهويجر طبيعة التنظيم السياسى الذى يقوم الانثروبولوجى بدراسته هنا فى انه يتضمن عادة ظهور تجمعات اكبر واكثر تعقيدا من الاسرة حيث تكون مصادر الطعام وفيرة نتيجة للتركيز السكانى الكبير واستخدام التكنولوجيا المتطورة ، ولا ينكر هذا الاتجاه ان المجتمعات الصغيرة المنعزلة تضم تنظيمات سياسية — كما لدى اسكيمو (الشوشونى) — حيث يمكن أن نجد الجهاز السياسى ووسائل الضبط الاجتماعى غير الرسمية .

وتهتم الانثروبولوجيا السياسية بدراسة **النسق السياسى** المتمثل فى التنظيمات التى تهدف للمحافظة على النظام الاجتماعى فى الداخل ونسق العلاقات الخارجية ، ودور الانثروبولوجيا السياسية هنا يتمثل من جهة **فى التعرف على الاجهزة والتنظيمات السياسية** وعلى **علاقة هذا النسق(ككل) بالانساق الاخرى فى البناء الاجتماعى** من جهة أخرى .

وتتنوع الموضوعات المدروسة فتشمل الاتحادات والروابط العسكرية وبناء القوة وعلاقات التبعية مع العالم الخارجى (٢١) .

وقد قدم كرستوفر اللين حصرا بالدراسات الاجتماعية فى المجال السياسى فى افريقيا ، ومن الدراسات الحقلية التى أشار اليها نحو ٢١ دراسة أجريت عن كينيا ، و ١٥ دراسة عن مالى ونيجيريا و ١٢ دراسة عن زيمبابوى وساحل العاج ... الخ . وقد ابرزت هذه الدراسات جميعها العلاقة التفاعلية بين النسق السياسى والانساق الاخرى فى البناء الاجتماعى مما يدل على السعى الحثيث للاستعانة بالدراسات الحقلية فى هذا المجال .

ومن الدراسات الهامة التى تناولت النسق السياسى فى أمريكا الجنوبية دراسة نابليون شانون N.A. Chagnon عن « هنود يانومامو » Ganomamo Indians حيث وصف هذه الجماعة التى تنهض السلطة فيها على « بتصل للعنف » وناقش اعتقاد سكان القبيلة فى طبيعتهم (الوحشية) واستعدادهم لممارسة العنف (رغم انكار الباحث لسيادة هذه السمات الشخصية داخل القبيلة) .

وهناك كذلك الدراسة القيمة التى قدمها كلوس فردرك كوش K.F. Koch عن النسق السياسى وطريقة حل المنازعات فى غانا الجديدة لدى قبيلة جال Jale .

وتكشف بعض الدراسات الانثروبولوجية عن امكانية دراسة ما يعرف بأدب الرسائل لتصوير بعض الجوانب الثقافية أو بعض جوانب البناء الاجتماعى (لمجتمعهم أو المجتمعات أو ثقافات اخرى فى حقبة زمنية بعينها) وبعض هذه الرسائل تشبه المذكرات اليومية التى يدونها الانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية .

ومن بين هذه الدراسات ما أماط عنه أبو زيد (٢١) اللثام وخاصة فى مجموعة « رسائل من مصر » Letters from Egypte التى حررتها ليدى لوسى دون جوردون Lucie Duff Cordon فى ستينيات القرن التاسع عشر فقد أبرزت هذه الخطابات راى الناس فى الحاكم التركى وموقفهم من بناء القوة فهى تذكر على سبيل المثال « لايزال الطغيان كما كان دائما .. فالمصريون يدركون مدى التحيز القائم ضدهم » وحين زار السلطان العثمانى

مصر كتبت بدورها رسائل اخذت عليه ترفعه على الشعب المصرى وتكشف عن مظاهر التفرقة بين الاتراك والمصريين ، « لقد امر الباشا بأن تحتجب كل نساء الطبقات الدنيا فى بيوتهن اثناء وجود السلطان لان النساء العربيات سافرات وربما يرفعن أصواتهن بالشكوى فى وجهه » .

وقد تعرض نبيل صبحى(٢٢)للنسق السياسى فى المجتمعات الصحراوية فأفصح عن ميكانزمات خضوع الجماعات الصحراوية لسلطة الدولة حيث تزداد القوة العسكرية وقوة التنظيم السياسى للبدو ابان ضعف الدولة بينما تتقلص هذه القوة نتيجة لازدياد قوة الحكومة المركزية .

فالحكومة الاردنية على سبيل المثال تعتمد اعتمادا سياسيا على القبائل البدوية فى الحصول على دعم سياسى ويستشهد صبحى هنا بما يذكره كول كذلك عن الجيش السعودى حيث تزداد المنافع التى تحصل عليها القبيلة بقدر مساهمة افرادها فى خدمة الوطن وبذا تضمن الدولة استيعابا لقبيلة والانتفاع بخبرتها والاستعانة بها فى صد الهجمات الخارجية .

بينما تقوم قبائل الكرك فى جنوب الاردن مثالا للعداء بين القبيلة والدولة حيث هاجمت هذه القبائل الدولة فأرسلت الدولة حملة عسكرية لاخضـــاع هذه القبائل .

وهذا فضلا عن ذلك العداء الدائر بين القبائل فى الصحراء مما يؤدى للاقتتال المستمر بينها ، ومن أمثلتها الصراع الدائر رحاه بين قبائل « الهنادى » وقبائل « أولاد على » .

وهناك الغزوات التى تقوم بها جماعات بدوية على جماعات مسافرة أو على قرى قائمة (حيث كانت القرى تقدم اتاوات تسمى بالخاوة) وقـــد تعرض صبحى لنظام « الزجالة » فى سيوة حيث كان هؤلاء الرجال يشكلون شريحة تعيش فى معسكرات ويشترط عليهم عـــدم الزواج ويتولون مهـــة الزراعة فضلا عن الدفاع عن الواحة .

كما اوضح فى دراسته لمجتمع « الكرك » كيف أمكن للقبائل أن تكـــون

صاحبة النفوذ فى الاقليم وتقوده سياسيا وكيف تسنى لها ادارة شئون الاقليم وتحقيق الاتصال بين الحكومة المركزية والقطاعات المحلية فالقيادة القبلية ترتكز على المجلس المحلى لتوفير الخدمات المختلفة وعلى « المختار » أو ممثل القبيلة ، وقد تمكنت الدولة من خلال البرامج التنموية (تعليمية واقتصادية) من انعاش الاقليم اقتصاديا مما ادى لزيادة معدل التغير الاجتماعى والثقافى ويزداد تأثيرها فى الاقليم .

نخلص من هذا أن الانثروبولوجيا السياسية هى **ذلك الفرع الهام** من فروع **الانثروبولوجيا** الذى يهتم بدراسة السلوك السياسى فى سياقه المجتمعى Societal Context وينظر للانظمة والظواهر السياسية Political Phenomena فى ضوء علاقتها بالنظم والظواهر السياسية الاخرى .

فالانثروبولوجيا السياسية Political Anthropology تهتم بدراسة النسق السياسى فى ضوء علاقته بالبناء الاجتماعى Social structure كما تنظر للسلوك السياسى Political Behaviour فى ضوء علاقته بالنسيج الاجتماعى وشبكة العلاقات الاجتماعية التى يشب فى ظلالها .

وبعبارة أخرى فالانثروبولوجيا تهتم بتحليل النظام السياسى والظواهر السياسية الواقعية والملموسة فى المجتمع كما تهتم بالعلاقة بين النسق السياسى والانساق الاخرى : اقتصادية وايكولوجية وقرابية فضلا عن الضبط الاجتماعى ونسق القيم فى المجتمع .

« المصـــــادر »

١ — Conformity and confliet. Little, Grown and comp. Boston. 1980 p. 255.

٢ — R.F. Murphy. Cultural and social Anthropology U.S.A. 1979. pp. 142 : 150.

٣ — David Bidney. Theoretical Anthropology schoken Books. New York. 1967 pp. 138 : 442.

٤ — Alfred Stepan. The state and society princeton. New Jersey. 1978 p. 12 : 22.

٥ — I.L. Horowitz. power politics, and people The collected Essays of wr. Mills 1962 : p. 2.

٦ — على ليلة — البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٢ ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ .

٧ — R. F. Murphy. op. Cit. U.S.A. 1979. p. 141.

٨ — أحمد أبو زيد — البناء الاجتماعى — الانساق — ج ٢ — دار الكاتب العربى — الاسكندرية — ١٩٦٧ — ص ٤٦٥ : ص ٤٧٩ .

٩ — روبرت ردفيلد — المجتمع الصغير كبناء أجتماعى — ترجمة أحمد أبو زيد مطالعات فى العلوم الاجتماعية ١٩٦٠ ص ٨٤ : ص ٨٦ .

١٠ — رادكليف براون فى البناء الاجتماعى — ترجمة السيد عبد الحميد الزين مراجعة أحمد أبو زيد .

مطالعات فى العلوم الاجتماعية — سنة ١٩٦٠ ص ١٤ : ص ١٦ .

١١— جورج جورفتش — مفهوم البناء الاجتماعى — ترجمة خليل صابات . فى مطالعات فى العلوم الاجتماعية — ١٩٦٠ ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ .

١٢— جيرار لكلرك — الانثروبولوجيا والاستعمار — ترجمة جورج كتورة — معهد الانماء العربى — بيروت — ١٩٨٢ — الفصل الثالث .

١٣— بيلز وهويجر — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ترجمة محمد اللجوهرى والسيد الحسينى ج ١ — القاهرة — ١٩٧٦ — الفصل الثالث عشر .

١٤— حسين فهيم — قصة الانثروبولوجيا — عالم المعرفة — الكويت ١٩٨٥ — ص ٢١١ ، ص ٢١٢ .

١٥— أحمد أبو زيد — البناء الاجتماعى — ١٩٦٧ الفصل العاشر .

١٦— Bidney. op. cit. cf. 14 : 16.

١٧— Op. cit. Introduction.

١٨— R.F. Murphy .. op. cit. ch. 7.

١٩— أسامة الغزالى — حرب الاحزاب السياسية فى العالم الثالث — عالم المعرفة — الكويت — سبتمبر ١٩٨٧ ص ٤٦ : ص ٧٤ .

٢٠— أحمد أبو زيد — الفصل الحادى عشر .

٢١— أحمد أبو زيد — رسائل انثروبولوجية — عالم الفكر ص ٣ : ص ٣٠ .

٢٢— نبيل صبحى — المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٤ — الفصل الخامس والسادس .

الدراســـات الحقليـــة

فى مجـــال الانثروبولوجيـــا الســـياسية

اولا ــ الدين والسلطة لدى نيورو ــ أوغندا :

يعرض جورج بالانديه رائد الانثروبولوجيا السياسية فى فرنسا ــ فى مؤلفه عن الانثروبولوجيا السياسية ــ من خـــلال استراضه للدراسات الحقلية فى افريقيا أن ثمة علاقة وثيقة بين الدين والسلطة اذ أن وحـــدة الرموز فى بض المجتمعات الافريقية تجسد هذه العلاقة فالمفاهيم المستعملة لوصف جوهر السلطة هنـــا مستمدة بدورها من المعجم الدينى والمقدس ، وهكذا تلجأ نظرية الملكيـــة فى جماعة « نيورو الاوغنـــدية » الى مفهـــوم « **موهانو** » ويعبر هذا المفهوم عن السلطة التى تجيز للملك المحافظة على النظام وتنتقل وفقا لاجراءات طقسية دقيقة . أما « الموهانو » فمتسع الانتشار فهو يشارك فى أعمال عديدة أما اذا اشترك فى أعمال عنف فهذا يعنى ان هناك خطر خارجى يتهدد الناس ، فاذا حدث ما يهـــدد النسق القرابى أو النوع أو العمر أو التدرج الاجتماعى تدخل الـــ « **موهانو** » للمحافظة على توازن البناء الاجتماعى فى المجتمع التقليدى بل ان على « الموهانو » أن يكشف للمجتمع المخاطر التى تتهدده قبل أن تحدث كما يتدخل اخيرا فى مجرى الحياة الشعائرية عند الولادة والتكريس والوفاة وهكذا يبدو أن الموهانو حـــاضر دوما سواء فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع أم بعلاقة الفرد بالقوى التى تحدد مصيره ومستقبله . ويمكن القول بأن الجهاز السياسى هو ضـــابط للموهانو فمراكز السلطة او السيطوة التى يحددها هذا الجهاز من شأنها أن تبرر تفاوت أصحابها فى الحصول على تلك القوة ــ التى تصون الحياة ــ وتحافظ على النظام . وملك النيورو Nyoro هو الذى يستحوذ على سلطة الموهـــانو Mohano كاملة فالطقوس جميعا تهدف لصنع الملك وصـــيانة شخصيته وحمايته كرمز للحياة نفسها فحماية الملك تحمى الجماعة كلها من الموت ، فالملك هو الـــذى يسيطر على الاشخاص والاشياء ويحـــافظ على

تنظيمهم ، وبواسطة الملك ينتظم العالم الاجتماعى وتتدعم سلطته على القبيلة وعلى « الموهانو » ترتكز بدورها الميكانيكيات المكونة للعـــالم والمجتمـــع فهو الذى يتيح للملك الاضطلاع بمهامه ، وهذه السلطة الروحية تعد مصدر خطورة فى حد ذاتها لان لها متطلباتها وشروطها على من يملكها ، والموهانو تحافظ على الرئيس حتى لا يتصرف بحماقة او رعونة .

والامر الملفت للنظر أن « الموهانو » يحتـــوى على ازدواجيـــة تضم مجموعة من القيم المتناقضة كالحياة والموت .

وهكذا تبرز هذه الدراسة علاقة الانساق الدينية والسياسية فى هذا المجتمع التقليدى حيث تتحد السلطة الروحية والسياسية فى شخص الزعيم أو القائد .

ثانيا ــ القيـــادة فى قرية مصرية (*) :

تمت هذه الدراسة الحقلية لاحدى قرى محافظة المنوفية فى الستينيات واستخدمت فى الدراسة الملاحظة بالمعايشة وصحيفة الاستبيان مع الجمع بين مميزات مقياس أسلوب الشهرة Reputation approach والاســـلوب السوسيومترى وتبعد القرية المدروسة عن مدينة شبين الكوم بنحو ٢٠كم ، وقد افصحت الدراسة الحقلية عن أن للقرية «هرم قيادى جامد ومغلق»ويضم هذا الهرم مجموعة قيادية مغلقة تحتل قمة الهرم وترتبط بما عن طـــريق الدم أو المصاهرة (الانتماء لبدنة واحدة) كما لوحظ بالقرية اقتراب صورة القيادة غير الرسمية من القيادة « الرسمية » و « شبه الرسمية » وبخاصة فى مجموعة القمة حيث يشغل جميع أعضاء هذه المجموعة مراكز قيادية رسمية أو شبه رسمية ، وهكذا تتداخل النماذج القيادية الثلاثة الرسمية وشـــبه الرسمية وغير الرسمية معا .

(*) قام بهذه الدراسة د. محمود عودة استاذ علم الاجتماع لانجـــاز رسالته للحصول على درجة الماجستير فى كلية الاداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٦ ــ انظر لويس مليكة ــ قراءات فى علم النفس الاجتماعى ــ الهيئـــة المصرية للتأليف ــ القاهرة ١٩٧٠ .

ويرتكز القادة فى مجموعة (القمة) هذه على المركز الوظيفى الرسمى أو شبه الرسمى بالاضافة للعائلة والمعصبية مما أدى لاحتلالها مكانة مرموقة فى بناء القوة .

وقد أدرك الناس أفراد هذه المجموعة بسهولة كمجموعة قادرة على مجابهة كل المواقف (سياسية — اجتماعية — اقتصادية ... الخ) وتحتل المجموعة القيادية **المتوسطة** مكانة القيادة فى بعض المواقف المتخصصة وفقا لرأى الناس اذ يبتعد أفرادها عن مراكز القوة بينما تظهر خصائصهم القيادية فى مواقف بعينها ، وتضم القيادة المهنية المتخصصة كالمدرسين والمشرف الزراعى على أسس غير قرابية ، وتمثل هذه المجموعة اهم مجموعات البناء القيادى كما أنها بحاجة لتدعيم لمواجهة المجموعة التقليدية فى النسق السياسى .

أما **المجموعة الثالثة** فتتسم بالتركز القيادى فى موقف أو موقفين على الاكثر ، أى أن القرويين قد آختاروا أعضاء هذه المجموعة كمستشارين فى موقف واحد أو موقفين على الاكثر وهى تضم تشكيلة مختلفة وان اتفقت بدورها فى الحاجة لمزيد من اعتراف مجتمع القرية بهم وقد أوضحت الدراسة الحقلية عن أن قادة القرية ينتمون الى الطبقة المتوسطة (العليا) وان ثمة سيطرة قرابية ملحوظة على بناء القوة فى القرية مع تمتع هذه المجموعة القرابية المسيطرة بشغل معظم المراكز الرسمية الفعالة المصحوبة بنفوذ متسع وهو ما أسماه الباحث بالتركز العائلى للقوة .

وقد تركز قادة القرية فى المرحلة العمرية ٢٥ سنة فأكثر كما ان المستوى التعليمى يرتفع قليلا عن مستوى غير القادة وان كان التعليم كمتغير يغفل تماما فى المواقف الرئاسية ويتصل العامل الاقتصادى بالعامل القرابى بحيث يسهمان معا فى تحديد بناء القوة فى مجتمع القرية حيث اتضح أن بناء القوة فى هذا المجتمع محدد بعوامل كامنة فى بنائه الاجتماعى اكثر مما هو محدد بسمات شخصية تميز الافراد ، فالافراد الذين شغلوا مراكز مرموقة فى بناء القوة بالقرية يشغلون بالفعل مراكز قيادية رسمية وشبه رسمية وهى مراكز مصحوبة « **بقوة ما** » . أى أن بناء القوة Power فى المجتمع الريفى المدروس يمثل نسقا فرعيا Sub - System يحيل بداخله خصائص البناء الاجتماعى الكلى للقرية بما يتضمنه هذا البناء من أنساق دينية وقرابية وغيرها .

الباب الثـــالث

« الاتجـــــاه السوسيوانثروبولوجى »

الفصل التاسع : الاتجاه السوسيوانثروبولوجى ــ المنهج والادوات

الدراسة الحقلية : النادى وميكانزمات الصراع
دراســـــة سوسيوانثروبولوجية

الفصل العاشر : الانثروبولوجيا الراديكالية :

الفصل التـــاسع

« الاتجاه السوسيوانثروبولوجى »

المنهج والادوات

يهدف هذا الاتجاه للانتفاع من معطيات علم الاجتماع والانثروبولوجيا ونحن نثير هنا التســـاؤلات الآتيـــة : **ما فحوى هذا الاتجاه ؟ وما هى ابرز ادواته؟**

فقد ظهرت الدلالة الواضحة لما يعرف بالاتجاه السوسيوانثروبولوجى فى الآونةالاخيرة — وبخاصةخلال النصفالثانى منالقرنالحالى— حيثتبلورت فكرة المزاوجة بين الاتجاه الانثروبولوجى والاتجاه السوسيوانثروبولوجى اذ ان البعض امثال رأدكليف براون R. Brown لا يرون مانعـــا من تســـمية الانثروبولوجيا الاجتماعية علم الاجتماع المقارن ، كمـــا أن مرد ذلك يرجع لمحاولة العودة الى الفلسفة التى تتركز عليها العلوم الانسانية بصفة خاصة فقد تساءل علماء الاجتمـــاع والانثروبولوجيا عن ماهيـــة دورهم فى دراسة الانسان (١) اذ لم يعد الهدف الاساسى هو المباهاة بالنظريات والتعصب فى الدفاع أو اخفاء الاخطاء بقدر الحرص على زيادة فاعلية هذه العـــلوم الانسانية فى فهم الانسان يؤثر ويتاثر بالحياة فى المجتمع وفى ظل ثقافة معينة والعمل من اجل اسعاده والتغلب ايضا على مشكلاته التى تزداد تعقيـــدا بمرور الايام . وقد أدى هذا المنظور فى علم الاجتماع الى ظهور ما يعرف بعلم اجتماع علم الاجتمـــاع Sociology of sociology وبدا علم **الاجتمـــاع الراديكالى (٢)** يبحث عن دوره فى خدمة المجتمع بينما انطلقت الانثروبولوجيا من حيز الاهتمام الرومانسى بالمجتمعات البدائية Primitive societies والمجادلات النظـــرية التى قادهـــا مورجـــان وغيره ممن أطلق عليهم « **انثروبولوجى المقاعد الوثيرة** » الى الاهتمام بالتحضر والتصنيع والتنمية ، أما الاتجاه الكلاسيكى فيلخصه لنتون Linton بقوله :

« لقد تناسب الاهتمام بتلك الجماعات (**البدائية**) طرديا مع شدة عزلتها عن ثقافتنا واختلافها عنا وكان (**الانثولوجى**) القديم يشعر انه فى السماء السابعة لو اكتشف جماعة لم يرها الرجل الابيض من قبل (٣) .

ومن الطريف أن علماء الانثروبولوجيا حين حاولوا أن يدرسوا المجتمعات المعاصرة كانوا يشعرون وكأنهم أرتكبوا معصية كبرى لا تغتفر فبينما كان الانثروبولوجى يفخر بالقبيلة أو المجتمع المنعزل الذى يقوم بدراسته فانه كان يجتهد من ناحية أخرى أن يخفى أسم المدينة أو المنطقة الحضرية التى يتولى دراستها . فقد قام هـ. لينـد ، ر. لينـد Lunde's بدراسة مدينة أمريكية قبل الحرب الثانية غير انهما امعانا فى التمويه أطلقا عليها : «Middle town, Yankee City, Plainville». اى منطقة كذا من ولاية كذا ... الخ (٣) .

اولا — فحوى هذا الاتجاه :

لقد شهد الانفصال بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا انفصالا مماثلا فى الادوات البحثية التى يستخدمها كلا منهما فقد اعتمدت الانثروبولوجيا على **الملاحظة والملاحظة بالمشاركة ، وذاكرة كبار السن** (والاخباريين) **والطريقة الجينالوجية** لتسجيل شجرة العائلة والاقارب ، **ودراسة تاريخ الحيـاة** Autobiography للحصول على المادة الاثنوجرافية التى يتسنى بموجبها تحديد جوانب البنية الاجتماعية وكيفية التساند الوظيفى . بينما اعتمدت الدراسات السوسيولوجية على الوثائق والاحصاءات واستمارات المقابلة الشخصية (الاستبيان) والاستمارات البحثية التى لا تستوفى بمعرفة المبحوث (الاستخبارات) وتحليل المضمون والاتجاه التاريخى لجمع البيانات اللازمة (٤) .

وقد احرزت الانثروبولوجيا الان تقدما فى استخدام ادوات البحث الكبة بينما انتفع علم الاجتماع من أستخدام **المنهج الاثنوجرافى** والدراسات المتعلقة بالاعتماد على الملاحظة بالمشاركة ودراسة الحالة وغيرها ومن الادوات البحثية ، وما لبث علماء الاجتماع والانثروبولوجيا معا أن اكتشفوا اهمية تجاوز هذه الثنائية الى ما سمى بالاتجاه السوسيوانثروبولوجى واستخدمت الادواتو مناهج البحث — التى تحقق الهدف من الدراسة — واساليب

التحليل السوسيولوجية والانثروبولوجية معا وبخاصة فى دراسة المجتمعات الحضرية الصناعية حيث تقوم الدراسة السوسيوانثروبولوجية على عدة مقومات من بينها :

١ — تحديد **الهدف** الاساسى والاهداف الفرعية للدراسة .

٢ — تحديد **الفروض** وتساؤلات الدراسة ونوعية القضايا التى ستقوم بدراستها .

٣ — تحديد **الاطار التصورى** أو الاتجاه (النظرى) الذى يتبناه الباحث والادوات التى يستخدمها فى دراسته وتساعد لعى تحقيق اهداف الدراسة دون أن ينحصر اهتمامه فى أدوات معينة لا يتعداها وهو يراعى هنا عدة اعتبارات من بينها .

ا — المزاوجة بين **الوصف الاثنوجرافى** Ethnography **والتحليل السوسيولوجى** Sociological analysis فقد يدرس الباحث النقابة العمالية فى منطقة صناعية ويتتبع كيفية اشباع النقابة لاحتياجاتهم الاجتماعية ويتعرض للخدمات التى تقدم الوظائف التى تؤديها النقابة للعمال غير أنه يحاول أن يربط بين بناء القوة فى المصنع ودور النقابة كما أنه يتتبع أوجه الصراع ويقوم بتحليلها وعليل أن يستقصى عن المعلومات الخاصة برأى العمال فى النقابة ونظرتهم لها وغيرها من المتغيرات مما يجعل من الوصف وسيلة — لا غاية — بينما يتم التحليل والتفسير فى ضوء الأطر النظرية التى تبناها الباحث ويشترط الا يتعارض هذا التحليل ومعطيات الواقع الاجتماعى الذى يقوم بدراسته .

ب — **اهمية الدراسة التكاملية للظاهرة** لا الدراسة الجزئية فحسب وهى النظرة المعروفة **بالنظرة « الجشطالتية »** فلا يمكن أن ندرس أدمان العمال للحشيش الا فى ضوء العلاقة بين ظاهرة الادمان والظروف الاجتماعية والثقافية فى المجتمع العمالى ووسائل الترفيه المتاحة والعلاقات العمالية (*) غير الرسمية ، والدخول الطفيلية العمالية (كالتى صاحبت حقبة الانفتاح الاقتصادى فى مجتمعنا) وارتفاع

معدلات الامية او نقص الوعى بين العمال وتتبع رصـــول المخدرات للعمال وكيفيـــة انتشارها وأسباب التعاطى (بينهم) ومعتقـــداتهم الدينية ورؤيتهم للآثار التى يؤدى اليها ادمان الحشيش ... الخ .

جـ — لا يمكن أن ندرس الظاهرة المجتمية الا فى ضوء **علاقتها بالمجتمع المحلى** الذى توجـــد فيه فالمولد يختلف بحسب طبيعة المجتمع المحلى الذى يحتفل بالمناسبة وبحسب شخصية المحتفى به وبحسب امكانيـــات المنطقة ونوعية الزوار الذين يفدون اليها ، ومدى توفر سبل المواصلات من عدمه ، واهتمام الجهات المسئولة بحفظ الامن والنظام ... الخ .

د — ان دراسة **التساند فى البنـــاء الاجتماعى** لا يعنى خلو هـــذا البنـــاء من اوجه **الصراع** فحيثما يتواجد الانسان يتواجد التعـــاون والصراع جنبا الى جنب .

هـ — ان الادوات البحثية التى يستخدمها الباحث الانثروبولوجى ينبغى ان تكون قادرة على القاء الضوء على مظاهر التغير الاجتماعى الداخلية الخارجيّة معا (من داخل المنطقة وخارجها) .

و — أهمية فهم **المراكز والادوار** فى داخل السياق الاجتماعى للانساق والنظم الاجتماعية حتى يتسنى للباحث أن يربط بين التمـــايز فى العلاقات الاجتماعية والتمايز فى الادوار والتوقعات .

ز — أهمية فهم **المنـــاخ الثقافى** الذى تعمل الظواهر والعلاقات الاجتماعية من خلاله ويقتضى هذا من الباحث الاستعانة بالوسائل المختلفة لدراسة الثقافة سواء الثقافة المـــادية أو غير المـــادية .

ح — هناك حقيقـــة ينبغى أن يضـــعها الباحث فى اعتبـــاره وتتمثل فى أن الجماعة التى يدرسها تمثل **جمـــاعة جـــزئية** Part Community وتكون **مجتمعـــا غير متكامل** In Complete وهى مقولة تختلف تمـــاما عنها فى حالة دراسة المجتمعات التى كانت تسمى بالمجتمعات المنعزلة

المكتفية بذاتهـــا Self suffucient ويدفع هـــذا بالباحث الى الاستقصاء عن وســـائل الاتصال بين الشريحة التى يقوم بدراستها والمجتمع المحلى الصغير الذى يدرسه والمجتمع القـــومى الذى يضمه والمجتمع العالمى الذى يضمهما معـــا — فقد نظـــر الكثـــيرون من الباحثين الانثروبولوجيين للمجتمعات الريفية باعتبارها مجتمعات لا تفهم الا فى ضـــوء علاقاتها بالتجمعات الحضرية التى تضمها وهى حقيقة اظهرتهـــا دراسة جون امبرى Embree فى اليابان ودوبيـــه Dube فى ألهنـــد حيث تتفاعل القـــرية مع الثنـــافة التى تأتى من خارجها كما أن كروبر Kroober يؤكد هذه الحقيقة نفسها .

وقد قام الباحث بدراسة سوسيو — انثروبولوجية لاحـــدى اطراف العاصمة للتعرف على **أثر التصنيع** فى هذه المنطقة — التى تضم مؤسسة صناعية كبرى للمبردات وأجهزة التكييف ومؤسسات صناعية أصغر حجما لصناعة الاثاث من الاخشاب — فاكتشف أن المادة الخام ترد من الخارج (الاخشاب المستوردة واجزاء المبردات واجهـــزة التكييف) وانها **تصنع** بالمنطقـــة ثم **تســـوق** خارج المجتمع المحلى ، وبعبـــارة اخرى فان ثمة علاقة عضوية (وان كانت غير مبـــاشرة) بين هذا الحى — من احياء **المدينـــة البتروبوليتانية** ومناطق التوزيع من جهة — والبلدان المرسلة للمواد المصنعة من جهـــة أخرى ، فالسلعة يتم تحـــديدها بينما يتم تصنيعها بالمؤسسات الصناعية المســـتقرة فى المجتمع المحلى (٦) .

وفيما يلى تفصيل **لبعض الاساليب السوسيوانثروبولوجية** المتبعة :

١ — **الملاحظة بالمشاركة** وتعنى أن يمضى الباحث عادة سنتين على الاقـــل فى الدراسة الحقلية مستعينا بهذه الأداة ويشترط على البـــاحث أن يكون على صلة وثيقة بالاهالى وأن يستخدم اللغة (الوطنيـــة) أو المحلية حتى يتمكن من فهم شبكة العـــلاقات وأن يلاحظ المجتمـــع من الداخل بحيث يشـــارك فى النشاط اليومى ولا يتيسر هذا الا اذا عاش بينهم وأصبح يؤلف جـــزءا من هذا المجتمع المحلى فهو لم يأت لكى يغير أسلوب حياتهم وانما سعى اليهم — فى تواضع — ليـــدرس أساليبهم الثقافية ويقتضى هذا منه أن يفهم كل شىء حتى الامور التى تبـــدو تافهـــة مثل النكت السائدة وطريقة طهى الطعام وذلك فى ضوء

علاقة كل هذه العناصر بغيرها من العناصر الاخرى .

كما ينبغى أن يضـــــع أولويات تحدد ما يجب أن يدرسه أولا وما الذى يليـــه وهكذا ، وتتطلب الملاحظة بالمشـــاركة عادة **شخصية** تستطيع أن تتحمـــل مشاق العـــزلة عن الاسرة والاصدقاء والتكيف مع الظروف الجديدة وأن يتسلح بقـــدرة علىالبحث لا بمجرد الالمام بالمعرفة النظرية .

ويجتهد الباحث أن **يفسر معنى كل نشاط** يدخل فى اطار الظاهرة المدروسة ولا يكتفى بمجرد سرد الوقائع (٧) . كما أن شخصيته قد تؤثر فى تفسيره للثقافة والانساق دون أن يتغاضى عن **تفســير أنفســه أنفسهم للظواهر** من جهة وعن المقارنة بينها فى ضوء علاقاتها بالبنـــاء الاجتماعى من جهة أخرى .

٢ — **اعداد دليل جمع البيـــانات من المجتمع المحلى :** ويتضمن هذا الدليل عادة اسئلة حول الملكية والمحاصيل ونوع التربة والحيـــوانات الاليفة والنواحى الصحية والتعليمية والدينية والمناسبات الاجتماعية والدينية التى يحتفل بها الناس .

٣ — **تارخ حيـــاة الاشـــخاص :** وهى أداة متعمقة لسبر غور الشـــخصية من خلال المناخ الاجتماعى والثقافى السائد للاحداث المحلية التى تفصح بدورها عن الحياة الشخصية أو الاحداث الاسرية (التى ترد من خلال دراسة شخصية معينة فضلا عن دراسة بظاهر **التفاعل الاجتمـــاعى** داخل الاسرة والمشكلات الشخصية ومراحل النمو النفسى والاجتماعى للشخص ويقترب من هذه الاداة ما يسمى كذلك بطريقة **الفهم الذاتى** Ethnoscience وبشمل طريقة تنظيم الشخص لثقافته الخاصة .

٤ — **الشخص الاخبـــارى :** وهو الشخص المحلى الذى يختـــاره الباحث اما لدرايته الواسعة بما يحدث فى المجتمع أو لكبر سنه وخبرته الكبيرة بتراث المجتمـــع أو لثقتـــه بانه سيعطى تفسيرات واضحة لما يغمض على الباحث ادراكه . ويشترط الا تتعـــارض المعلومات التى يدلى بها الاخبـــارى مع ما يسمعه أو يراه الباحث فى المجتمع ، لماذا حدث هذا وجب عليه أن يحدد ما يجانبه الصواب .

٥ — **دراسة الحـــالة :** وهى الدراســة المتعمقــة التى يمكن أن تعتبر الشخص أو الاسرة بموجبها بمثابة حالة Case تدرس بالتفصيل كما يمكن اعتبار المجتمع المحلى باكمله بمثابة حالة يمكن دراسة نظمه والعلاقة بين سكانه وأوجه التغير الاجتماعى والثقافى التى تتعرض لها انساقه ويتم ذلك عادة بموجب ما يسمى بدليل دراسة الحـــالة الذى يضم القضايا المراد دراستها بصورة مفتوحة Opened .

٦ — **استمارات او صحف الاستبيان والاستخبارات :** وتشمل عادة البيانات الاساسية والديموجرافية والاسرية وأوجه الدخل والانفــاق والمكانة الطبقيــة وأوجه السلوك الاجتماعى والثقــافى التى يمكن دراستها بموجب اسئلة محددة ومغلقة Ended .

٧ — **المقــابلات الجماعية :** Group Interviews وهــو الاســلوب الذى يمكن بموجبه دراسة الظواهر العامة كالهجـــرة والاتجاهات والظروف الاسرية والاقتصادية فى المجتمع المحلى عن طريق طــرح قضايا محددة ومناقشتها مع جماعات صغيرة من أفراد المجتمع ومعرفة موقف هذه الجماعات من تلك القضايا .

٨ — **الدراســة الجينولوجية للقــرابة :** ويمكن بموجبها تســجيل أسماء الاشخاص الاحيــاء والموتى ، والعــلاقات القــرابية القائمة ومهنهم وتعليمهم ومحال اقامتهم والادوار والمراكز الاجتماعية والمكانات الطبقية للشخص وجماعته القرابية .

٩ — **دراسة دورة حياة الاسرة** Family Cycle هى ادارة نافعة للاستقصاء عن مراحل العمر والوضع العائلى .

١٠ — **الاحصاءات والوثائق ، والخـــرائط :** ومن المعروف أنه من خلال الدراسة الايكولوجية على سبيل المثال يلجــأ الباحث الى الخــرائط القديمة والحديثة لمقارنة التوسع العمرانى للمنطقــة فى حقب زمنية مختلفة . وغنى عن القــول أن الباحث يلجــأ فى استخدامه لهــذه الوثائق لبعض الادوات **كالاجهزة التسجيل ، والصور الفوتوغرافيــة**

وأجهزة الفيديو وغيرها من الوسائل السمعية والبصرية لاعطاء صورة حية وشاملة للواقع الميدانى الذى يقوم بدراسته ويستعين الباحث أحيانا بنقطة الصفر Zero point لمقارنة أوضاع المجتمع قبل وبعد حدوث تغيرات أساسية معينة كدخول الصناعة والثورات والحروب وهذه النقطة تحدد تعسفيا لاغراض الدراسة المتزامنة للمجتمع المحلى مع الرجوع الى ذاكرةكبار السن والوثائق لمقارنة المرحلة السابقة علىالتغير بالمرحلة اللاحقة لها .

ثانيا : سنعرض هنا لابرز هذه الادوات وهى الملاحظة بالمعايشة وصحيفة المقابلة ودليل دراسة الحالة :

ا — الملاحظة بالمعايشة :

مقدمة :

تعنى هذه الاداة أستخدام مفهوم الملاحظة فى مواقف بحثية **يتعايش فيها الباحث مع لموقف اوالجماعة او الظاهرة** المراد دراستها بحيث يرتبط الانسان القائم بالملاحظة مع « الآخر » موضوع الملاحظة ارتباطا مباشرا ، وغنى عن القول أن تفاعل الباحث (الملاحظ) والناس موضوع الملاحظة يشكل المحور الاساسى فى **الدراسة الحقلية** فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية .

١ — **التاريخ للملاحظة بالمعايشة :** ان التاريخ لهذه الاداة يقودنا لتقليد الدراسة الحقلية فى الانثروبولوجيا اذ بدات الرحلات الانثروبولوجيا اساسا فى الولايات المتحدة حين قام **بواز** Boas بدراسته الحقلية فى **كولومبيا (البريطانية)** وانتقلت هذه الدراسات الى انجلترا حين قام **هاردن** Haddon على راس بعثة جامعة « كمبردج لدراسة **منطقة مضايق توريس** Torres straits بالمحيط الهادى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وقد اعتبرت هذه المرحلة نقطة تحول فى تاريخ الدراسة الحقلية فى مجال الانثروبولوجيا فى بريطانيا أذ أسهم سلجمان G. Seligman — احد أفراد جامعة كمبردج — بدوره فى توجيه بعض رواد الانثروبولوجيا الى اتباع النهج الخاص بالمعايشه فى مجتمعات معاصرة — بعيدة عن المجتمعات التى عاشوا فيها — ومن هنا بدات الدراسات الحقلية القائمة على الملاحظة بالمعايشة تأخذ نصيبها من الاهتمام حيث درس **ايفانز برتشارد** على سبيل المثال السودان ، والنوير Nuer ونيام نيام وغيرها من المجتمعات الافريقية (٨) كما قام **رادكليف براون** الذى كان تلميذا لريفرز وهادن بدراسة لسكان جزر الاندمان The Andaman Islanders وهى من الدراسات الهامة التى حاولت الانتفاع من خبرة الدراسة الحقلية

على اساس استخدام الملاحظة بالمعايشة للسكان حيث يعتقد براون أن المنهج العلمى يبدأ بالملاحظة ثم التصنيف فالمقارنة والتحليل (٩) ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن (هذه) الدراسات الحقلية الاولى كانت تمثل النموذج المثالى الذى ينبغى اتباعه فهى لم تخلو بدورها من ثغرات ونقاط ضعف عديدة اذ أن قصر المدة التى كانوا يمضونها بين تلك الشعوب ، وجهلهم بلغاتها ، وعدم توطد العلاقات مع الاهالى وغيرها من الاخطاء قد ادت الى الحصول — فى الكثير من الاحيان — على بيانات سطحية ، وليس هناك شك كذلك أن رادكليف براون (١٩٠٦ : ١٩٠٨) كان أول من حاول الرجوع الى مجتمع بدائى معين لوصف الحياة الاجتماعية بينما يعد **مالينوفسكى** Malinowski وهو تلميذ لكل من **هوبهاوس** Hobhouse **ووسترمارك** Westermarch **وسلجمان** — ابرع من قام — من الرواد — بدراسة حقلية اذ استخدم الملاحظة بالمعايشة فى دراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriand فى ميلانيزيا بين عام ١٩١٤ ، ١٩١٨ ومصداق ذلك انه اول من استخدم لغة الاهالى انفسهم فى الدراسة وعاش مع الناس بحسب طريقتهم الخاصة فى الحياة ، الامر الذى مكنه من التغلغل فى فهم الحياة الاجتماعية فى هذا المجتمع فتمكن من دراسته بصورة متعمقة(١٠). كما أن مالينوفسكى كان يؤكد دائما أن النظرية العلمية يجب أن تبدأ من الملاحظة (١١) .

محتـــوى هـــذه الأداة :

تستلزم الدراسة الحقلية التى تتبنى هذا الاسلوب من اساليب الدراسة الحقلية أن يشارك الباحث فى الحياة اليومية للناس — من خلال الموقف الحياتية المختلفة وهو يدخل فى حوار مع الناس ويستوضح تفسيرهم للاحداث ، ومن هنا يشعر الناس بأنهم موضع اهتمام الباحث الانثروبولوجى وأن تفسيرهم الشخصى لمجريات امورهم يعد موضع تقدير الباحث الحقلى ومحل اهتمامه . وغنى عن القول أن طول الفترة التى يقضيها الدارس الانثروبولوجى فى الميدان يمكن أن تحسم فهمه للكثير من الظواهر بصورة متعمقة (١٢) .

تتضمن هذه الاداة بذل الجهد الاكبر فى ملاحظة الظواهر وتقصى دورها ووظيفتها ومعرفة تفاصيلها مع بذل الجهد الاقل فى توجيه الاسئلة ، وبالرغم من أن المعايشة الكاملة فيها تركيز على عملية التفاعل

والاندماج — فى حد ذاتها — الا أنها تتم عادة بصورة قد تفقد الباحث هويته العلمية ، ومن الامثلة الفريدة على ذلك ما حدث فى القرن الماضى عندما تحول كشنج F. H. Cushing الى واحد من كبـار الكهنة فى قبائل الزونى فى نيومكسيكو وتعمـد بكتم الاسرار ولم يعـد قادرا اذ ذاك على اداء دوره كباحث (أنثروبولوجى) (١٣) .

فان الملاحظة بالمعايشة من جهة أخرى تتضمن التركيز على التفـاعل مع الناس حتى لا تقف الملاحظة الكاملة حائلا بينه وبين الاقتراب فى الظاهر ، (نظرا لعزلته عن المجتمع المحلى موضوع الدراسة الحقلية) كملاحظ فقط ، فالملاحظة بالمعايشة تتضمن **الملاحظة المتعمقـة** للظواهر فى ظل علاقة تفاعلية مستمرة بين الباحث الحقلى والشخص أو الجماعة موضوع الدراسـة ، وكلما كان الباحث اكثر دقة فى ملاحظاته واكثر فاعلية فى علاقاته بأفراد المجتمع فى المواقف المختلفة ازداد نجـاحه فى استخدام هذه الاداة .

وينبغى التنويه أن الملاحظ المعايش للظاهرة لا يعطى للناس فرصة للاحسـاس بانه **غريب عنهم** بل على العكس تماما فالثقـة المتبادلة بينهما ستجعل بوسع الناس ممارسة ادوارهم المعتادة دون أن يتحـول الموقف الدراسى الى صـورة مصطنعة — تكاد تخلو من الواقعية — واذ ذاك فان مطالبة الباحث بأن يحاول الاندماج فى المجتمع الاصلى وينسى هويته العلمية لكى يصبح أحد أعضاء هذا المجتمع تصبح قليلة الاهمية .

هناك **قواعد اخـلاقية** ينبغى مراعاتها كالمحافظة على سرية الاسماء ومراكز الافراد الاجتماعية ومواقعهم فى البناء الطبقى والحرص على بعض أسرار الجماعة والمحافظة على الوثائق الخاصة بها والتى نكون قد أطلعنا عليها دون أن ننال الاذن بالافصاح عنها .

وبدون التعاطف والقدرة على احترام مشاعر الغير — مهما كانت درجة الاختلاف بينهم — لا يستقيم استخدام هذه الاداة فى الميـدان ، ويجب أن يتمتع الباحث الحقلى بقـدرة فائقة على فهم الغمـوض كما أن عليه أن **يتجنب اصدار الاحكام** والنتائج المتسرعة بل ان عليه أن يقترب من نمـاذج السلوك التى قد يجدها غير محببة الى نفسه فى نهـاية الامر (١٤) .

من بين الادوات التى نستعين بها فى ملاحظتنا بالمشاركة **الصور الفوتوغرافية وافلام الفيديو ، والتسجيل الآلى والكتابى** والاطلاع على الوثائق والمستندات واختيار « **الاخباريين** » فضلا عن استخدام الاسئلة والحوار للحصول على تفسير الناس وتحليلهم لما يغمض علينا فهمه من احداث ، واستجلاء العلاقات والروابط بين المواقف التى يتعذر فهم احداها دون ربطه بالمواقف والاحداث الاخرى فى حياة الجماعة أو المجتمع المحلى* .

يشير بيلز وهويجر الى هذه الاداة باعتبارها تتضمن مشاهدة تسجيل اكبر قدر ممكن من السلوك مع المشاركة فى اكبر عدد من الانشطة تتيحها الفرصة للباحث ، ومن هنا فقد يدعى الشخص الى حفل زفاف أو عيد دينى وعليه أن يفطن ألى اهمية هذه المواقف فى الدراسة الحقلية وربما لا يستطيع ان يسجل ملاحظات فى هذه المناسبات غير انه يسجلها بعد أن يخلو الى نفسه واذ ذاك فانه قد يكشف بأنه اغفل ملاحظة الكثير من الحقائق الهامة التى ينبغى أن يستوضحها بعد ذلك .

على الباحث أن يتجنب الارتباك بسبب مشكلات المشاركة لشخصية فى الطعام والشراب أو لاضطراره لاتباع انماط السلوك المحلية التى لم يتعودها من قبل كما أن عليه كذلك أن يؤجل العديد من الاسئلة ألتى قد تلح فى طلب الاجابة عليها حتى لا تضيع الفرصة الذهبية للملاحظة بالنسبة لبعض المواقف ، اذن أن الاجابات المباشرة لا تكاد تخلو عادة من التبسيط المخل أو التهويل الشديد أو المغالطة المتعمدة .

هناك عدة محاور اساسية ينبغى أن تأخذ نصيبها من اهتمام الباحث لضمان الاستخدام الموضوعى لهذا المنهج ومنها :

١ — أن يبدأ الباحث دراسته فى اطار فهمه الواعى الدقيق **للنظرية الانثروبولوجية** ، فالاطار النظرى والتصورى هو الذى يقود ألدراسة الحقلية ويوجهها ، ويثريها .

٢ — أن يقوم بتحديد الهدف الاساسى والاهداف ألفرعية **والفروض أو تساؤلات الدراسة** ، والبيانات التى يرغب فى التوصل اليها .

٣ — أن تكون له دراية وافية **بالتراث** المتوفر عن موقع الدراسة وأن يحاول دراسة اللغة وعادات السكان قبل النزول للميدان .

٤ — ان يتولى **الاعداد (الجيد)** وحشد كافة الامكانيات والطاقات التى تستلزمها طبيعة الدراسة الحقلية قبل مقابلة الناس .

٥ — أن يقضى **فترة طويلة فى الميدان** لا تقل عن عام وقد تصل الى عدة سنوات كما تطول هذه الفترة بقدر جهل الانثروبولوجى بالمجتمع المحلى وأتساع المجتمع المدروس وتعقد بنيته وثقافته .

٦ — أن يقوم الباحث **بتصنيف وتحليل وتفسير** المادة التى جمعت للخروج بنتائج واضحة ومفصلة .

واذ ذاك ينبغى ان يحدد الباحث دوره فى المجتمع المدروس فأفراد المجتمع سينظرون اليه كغريب ، وقد تتراوح ردود أفعالهم تجاه الغرباء بين العداء والكرم ، وينتهى بيلز وهويجر عن وأجلى C. wagley أن المجتمع المحلى كان يتعاطف مع الباحث الانثروبولوجى فى احدى القبائل الهندية فى الامازون حيث كان الافراد ينظرون اليه كشخص جاهل بالمعلومات الاساسية !اللازمة — وأن الواجب يقتضيهم تعليمه ما يعرفونه(١٩).

الظواهر التى تستخدم الملاحظة بالمعايشة لدراستها :

تعد الملاحظة بالمعايشة منهجا **كليا وشموليا** Holistic Approach للدراسة الحقلية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية Social, Cultural Anthropology وهى تستخدم عادة لدراسة الابعاد الآتية :

أ — **الانساق الاجتماعية** Social Systems وتتضمن هذه الانساق الاساسية والفرعية انماط السلوك الانسانى Behaviour Patterns التى تتضح من خلال المواقف التى يظهر فيها الاعتماد المتبادل Interdependence بين الناس .

ب — **مؤسسات المجتمع المحلى** وهيئاته الرسمية .

جـ — **ثقافة المجتمع** سواء الثقافة المادية Material Culture أو غير المادية

التى تشمل المعتقدات Rituals والعادات والاتجاهات والقـانون العـرفى Customary وغيرها .

د — **مشكلات المجتمع** المحلى والانحرافات Deviations ، وأنماط الجناح Delinquency ، وعادة ما يجـد الملاحظ المعايش للمجتمع المحلى نفسه فى مواجهـة مركبات سلوكيـة Behavioural Complexes تستوجب دراستها (١٦) .

ومن المعتـاد فى الدراسات الحقليـة التى تستخدم فيهـا الملاحظة بالمعايشة كذلك تتبع **التغير فى انماط السلوك** وديناميات التغير التى تحدث فى الحياة اليومية .

وهناك بعض الملاحظات العامة التى ينبغى أن يهتم بجمعها الملاحظ ابان احتكاكه بالمجتمع المحلى Local community موضوع الدراسة ومن بينهـا :

— **عدد السكان** ، والبيانات الديموجرافية عن المجتمع .

— **الموارد الطبيعية** ونمط النشاط الاقتصادى والحيوانات ، والنباتات وانواع الطعام التى يألفها الناس .

— **الطرق والمساكن** ونمط المسكن والاثاث المتوفر عادة لدى الطبقـات المختلفة فى المجتمع .

— **الخدمات التعليمية** والصحية والمواصلات الموجودة والتى تربط المجتمع بالمجتمع الاكبر والمناطق المجاورة .

— **التفـاعل** وشبكة العلاقات التبادلية Network of social Relations.

— **المناسبات الاجتماعية** ، والاسرية والدينية .

— **الفـروق بين الطبقات** والشرائح الاجتمـاعية Socio-Economic

Stratification وبناء القوة Power structure
فى المجتمع .

— **شجرة الانساب** والمصطلحات القرابية
Genealogy, Kinship terminology

— **السحر والفولكلور** والاساطير (١٧) .

وعلى الرغم من الاختلافات بين المدخلين الثقافى والبنائى لدراسة الحياة الاجتماعية فان أول ما يسترعى نظر الدارس للانثروبولوجيا الثقافية فى دراسته الحقلكة انماط التغير الملموس والمظاهر المختلفة للحياة المادية التى تدخل فى اطار الثقافة المادية ، بينما تدخل العلاقات الاجتماعية وشبكة التفاعل داخل الانساق فى صميم اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية وتحتاج دراستها الى كثير من التحليل وألفهم المتعمق ، بينما يعيب أبو زيد على رادكليف براون اعتقاده بأن الملاحظة « المباشرة » تدلنا على العلاقات (البنائية) فانه يعتقد ان هذه الملاحظة المباشرة يمكن أن تكشف لنا عن **الانماط الثقافية** فحسب بينما تحتاج العلاقات الاجتماعية الى شىء من التجريد والتعمق الذى يمكن أن يتم فى مرحلة لاحقة (١٨) .

وبعبارة أخرى فان الباحث الانثروبولوجى أحوج ما يكون الى المشاركة والملاحظة بالمعايشة وبخاصة حين يكون مهتما بدراسة الانساق الاجتماعية والتغير الاجتماعى فى المجتمع المحلى .

ومن الواضح أن **صغر حجم المجتمع** — يتيح للباحث الانثروبولوجى استخدام هذه الاداة عن طريق الاتصال المباشر وبالاقامة فى المجتمع ، ومشاركة الناس مناشطهم المختلفة والاقامة فى هذا المجتمع فترة لا تقل عن عامين ، ومن هنا كان المدخل « البنائى » ينفر اشد النفور من الادوات والاساليب التقليدية كاستمارات الاستبيان ، ويتيح هذا المدخل فهم اى نظام فى ضوء علاقته بالبناء الاجتماعى ككل ويذكر ميرفى مميزات هذه الاداة بقوله (١٩) :

«The hall mark of the anthropological method is participant observation, aponderous, term that means only that the resear-

cher lives among the people he is studying takes part in their social life, and watches what is happening, asking question when he does n't understand.»

وليس بخاف أن **الملاحظ المعايش** للناس ينبغى أن تكون له شخصية سوية وأن يكون **غير متعصب** لدينه ، أو جنسه ، أو نوعه فالتعصب يمكن أن يعمى عينيه تمـــاما عن الرؤية الدقيقـــة والتفسير الحقيقى للموقف أو الظاهرة المدروسة .

وليس هناك شك أن الملاحظة بالمعايشة تواجه فى الكثير من الاحيان **بصعوبات وتحديات** كثيرة فالجماعة لا تقبل بسهولة آنضمام الاغراب اليها ومن المعروف أن الكثير من الجماعات المتطرفة سياسيا أو عنصريا تحـــكم بالموت على الشخص عـــادة اذا اكتشفت أنه يمـــكن أن يفشى أسرارها أو ينشرها للعيان .

ب ــ صحيفة المقـــــابلة :

تعد استمارة المقابلة أحد **أبرز الادوات البحثية** فى علم الاجتمـــــاع والانثروبولوجيا وبخاصة فى الحالات الاتية :

أ ــ الحالات التى **يتعذر فيها** الحصول على بيـــانات من خلال الملاحظة والملاحظة بالمشاركة كالمواقف الماضية المتعلقة بتاريخ الاسرة والزواج والانجاب أو البيانات الخاصة بأسلوب وميكانزمات الهجرة بالنســـبة للمهاجرين الريفيين للمدن ... الخ .

ب ــ المواقف التى يستلزم الامر فيها مقابلة **اعدادا كبيرة** من الاشخاص (٢٠) يشكلون عينة ممثلة للمجتمع المحلى مع الحصول على النسب المئوية والوزن النسبى والدلالة الاحصائية بالنسبة لكل سؤال يوجهه الباحث لافراد العينة وبخاصة فى حالة وجود عينتين يقارن بينهما أو عينـــة واحـــدة تتسم بالثراء الواضح فى خصائصها العمـــرية والنوعيـــة والزواجية والتعليمية والمهنية والطبقية ... الخ . لامكان المقـــارنة بين الظروف الاجتماعية والاستجابات النوعية لكل شريحة .

ولذلك يشيع استخدام هذه الاداة فى **المسوح الاجتماعية الشاملة** فى الدراسات الانثروبولوجية التى يدرس الباحث فيها كل وحدات المجتمع المحلى من خلال المقابلة الشخصية لمعرفة اتجاههم نحو الزعيم أو نحو القادة المحليين أو تجاه الصفوة أو نظام الحكم أو المستعمر أو المعاملات الاقتصادية وأساليب الضبط الاجتماعى وغيرها .

جـ — تتيح المقابلة الشخصية فرصة ذهبية **للتفاعل** بين الباحث والمبحوث وقد يحدث هذا اللقاء فى منطقة السكن مما يتيح الفرصة للملاحظة المستوى الاجتماعى — الاقتصادى للمسكن ونوعية الاثاث فضلا عن لقاء باقى أفراد الاسرة وبخاصة اذا كان موضوع البحث هو النظام الاسرى والعلاقة بين أعضاء الاسرة الواحدة أو اذا كانت الدراسة عن صراع الاجيال داخل الاسرة ، ومن المعروف أن صياغة الاسئلة ينبغى أن تتمشى مع المستوى التعليمى وتراعى وعى القاعدة العريضة ممن ستطبق عليهم صحيفة المقابلة (٢١) .

ومن الواضح هنا أن الاتجاه السوسيوانثروبولوجى لا يقر استخدام **الاستبيان البريدى** الذى ينفى العلاقة بين الباحث والمبحوث حيث يكتفى بارسال الصحيفة بالبريد دون أشتراط وجود المقابلة الشخصية ، كما أن الباحث لا يلجأ عادة الى ترك الاستمارة فى يد المبحوث أو أفراد المجتمع المحلى لكى يتولوا استيفائها بمعرفتهم فى غيبة الباحث .

د — يستخدم الباحث هذه الاداة اذا كانت الشريحة المراد دراستها منتشرة فى رقعة جغرافية متسعة وهو ما يحدث عادة اذا رغب الباحث فى دراسة قادة المجتمع فى المجالات المختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية ... الخ .

هـ — تستخدم صحيفة المقابلة فى حالة دراسة بعض الجماعات الهامشية كالباعة الجائلين على سبيل المثال .

وتستخدم هذه الاداة بخاصة فى حالة انخفاض المستوى التعليمى لافراد المجتمع المحلى حيث توضع الاسئلة باللغة العامية التى يتحدثون بها .

و — تتيح صحيفة المقابلة اشتراك مجموعة **مدربة تدريبا عاليا** من الباحثين تحت اشراف البـاحث الرئيسى وهـو ما يسـهل اجـراء الدراسة السوسيوانثروبولوجية فى وقت وجيز نسبيا اذا قورنت بالدراسـة الانثروبولوجية التقليدية التى يقوم بها البـاحث بمفـرده ويقضى فى المجتمع موضوع الدراسة عدة سنوات قد تصل الى ٤ سنوات كمـا فعل مالينوفسكى ويفعل غيره فى علماء الانثروبولوجيا .

ز — تتضمن صحيفة المقابلة عادة اما أسئلة **مقيـدة** Closed أو أسئلة محـددة Structured كالسؤال عن الحالة الزواجية مع اضـافة متغيرات الاجابة الاتية :

متزوج ( ) أعزب ( ) مطلق ( )
أرمل ( )

وقد تتضمن الصحيفة أسئلة من النوع المفتوح Open أو غيـر المحددة un structured بهـدف التعمق والتفصـيل كالسؤال عن معلوماته الخاصة عن سبب تعاطى الشباب للمخدرات ويسـتخدم مثل هـذا النوع من الاسئلة فى الدراسات الاستطلاعية التى ليس للباحث معرفة كافية باحتمالات الاجابة فيهـا أو فى الحالات التى تحتاج للاستطراد وللتعمق فى فهم الظاهرة المدروسة (٢٢) .

ح — تتيح الصحيفة المستخدمة من خلال المقابلة الشخصية الفرصة لدراسة الاطار العام للمجتمع أو المظهر الخارجى للمجتمع المحلى Profile of the community ويتمكن البـاحث من خلالهـا أن يتعـرف على الجماعات التى يضمها المجتمع المحلى والشرائح والطبقات والفئات المختلفة والعمليات الاجتماعية Processes التى تحـدث بينها من تعاون وتنافس وصراع فهو يقوم بتوجيه الاسئلة نفسها بسؤال كـل شخص على حدة دون أن يتأثر بآراء غيره من الافراد ومن هنا يذكر ميرفى Murphy (٢٣) أن **الانثروبولوجيين الثقافيين** يخصصون وقتـا طويلا لهـذه الاداة حيث يجمعون قـدرا متسـعا من المعلومات A broad range of data والاداة لذلك تعـد متمشـية مع المجتمع الحديث .

ويؤكد فكتور بارنو Bar Nouw ١) أن صحيفة المقابلة تعد أداة مكملة

للملاحظة فى الدراسة الاثنولوجية فهى تتضمن ايضاحا لما يراه الباحث وهى تتضمن الملاحظة ايضا ، فالباحث لا يكتب ما يذكره المبحوث فحسب بل يلاحظ كيف يتصرف المبحوث ويتحدث ويرقب ايماءاته ومصمصة شفاهه ووقفاته وتلعثمه فى الاجابة ويدرس عن كثب اثاث مسكنه ومقتنياته ، فصحيفة المقابلة تزيد عادة من معلوماتنا عن اعضاء المجتمع المدروس فالناس قد تفضل الافصاح عن بياناتها بحرية للاغراب عنها بالنسبة للاصدقاء .

ويذكر بارنو أن علينا أن نهتم باعداد الاستبيان اعدادا جيدا لكى نركز على **أفعال بعينها** أو على حد تعبيره :

«A previously prepared schedule focuses the observer's attention on certain selected acts»..

ويستشهد بارنو على ذلك بأن أوسكار لويس وجد الناس فى نيوزتلان **أقرب للباحثين منها بالنسبة لبعضهم البعض :**

O'Lewis, for example found that the people of Tepoztlan were distant to one another but willing to open up to him and his coworkers.

وقد استخدمت هذه الاداة بكفاءة فى الابحاث الخاصة بالثقافة والشخصية كالتى قام بها منتيرن L. Minturn ولامبرت Lembert عن الام فى ست ثقافات mothers of six cultures حيث قابا بسؤال الام عما تفعله فى حالة بكاء الطفل وقد قام اريك فروم Fromm وميشيل ماكوبى M. Maccobu بدراسة الخصائص الاجتماعية لاحد المجتمعات المحلية الريفية المكسيكية .

ج — دليـل دراسة الحـــالة : Case study Guide

تعد دراسة الحالة أداة رئيسية للتعمق فى فهم الوحـدة المدروسة سواء كانت الحالة فردا أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمعا محليا Community وذلك بقصد :

ا — **الدراسة الشمولية** Molistic للوحدة المدروسة وهذا المبدا يعد من اهم المبـادىء التى بحرص عالم الانثروبولوجيا على اتباعهـا حيث ابرزت النظرية الجشطالتية Gestalt اهميـة التعرف على الموقف الكلى للوحدة المدروسة والنظر للجزئيات فى ضوء علاقتها بالكل فنحن ندرس على سبيل المثال بناء القوة فى المجتمع power structure فى ضوء علاقة هذا البناء بباقى شرائح المجتمع وطبقاته الاجتماعية .

ب — **الدراسة المتعمقة** Indepth للظاهرة أو النظام الذى ندرسه وهى خاصية تميز دليل دراسة الحالة عن استمارة الاستبيان فاذا درسنا الاسرة فاننا ندرس تفاصيل العـلاقة بين الزوج والزوجة (جسديا ونفسيا واجتماعيا واقتصاديا) ودلالاتها ثم عـلاقة الزوج بالابنـاء وعلاقة الزوجة بالاولاد ، ثم علاقة الذكور بعضهم بالبعض الاخـر وعلاقة الاناث بعضهم ببعض ، ثم علاقة الابناء الذكور بالاناث الخ . فهى أداة لا تقنع بالدراسة السطحية للعلاقات الاجتماعية بل تتعمق فى فهم شبكة العلاقات الاجتماعية وتهتم بتحليلها .

ج — استخدمت دراسة الحالة بكفاءة عالية لدراسة المجتمع المحلى كوحدة كلية والواقع ان معظم دراسات المجتمع المحلى قـد اعتبرت هـذا المجتمع سواء كان حضريا أم ريفيا أم منطقة صحراوية بمثابة « **حالة** » يمكن من خلالها تفسير اى ظواهر اجتماعية داخل اسوارها فالبناء الاجتماعى والثقافة يعدان بمثـابة المتغيرات المسـتقلة التى تصلح لتفسير كافة النظم والظواهر الاجتماعية فى الداخل دون اغفال للعلاقة التفاعلية بين هذه الوحدة الجزئية المدروسة والمجتمع الاكبر ، وتعد دراسة هربرت جانز H. Gans (٢٥) بمثابة دراسة حالة لاحد الاحياء المتخلفة بمدينة بوسطن ويسمى The west End يضم الامريكان من

أصل ايطالى وقد استخدم جانز فضلا عن الملاحظة بالمعايشة المقابلات المتعمقة وهو يذكر فى هدف دراسته :

«My main research interests were two : to study a slum and to study the way of life of a low income population I want to know what a slum walike and now it felt to live in one .. I have tried to describe the way of life of lower people as they might describe it themselves..

كما يوضح بالنسبة لهذه الاداة التى استخدمها وهى صحف المقابلة التى تحوى دورها اسئلة متعمقة :

«This study based primarily on intensive interviews».

د — تهدف دراسة الحالة أيضا الى توضيح **التـــاريخ** التفصيلى للوحـــدة المدروسة اذ أن القصد من القاء الضوء على هذه الوحدة محـــاولة تتبع جذورها التاريخية **بغية فهم الحاضر** كمـــا تهدف الى الغوص فى حياة الوحدة موضوع الدراسة ، فقد ندرس حالة طه حسين وتاريخ حياته لنصل الى فهم كامل لعصره أو للازهر أو للقرية المصرية الخ . ومن أشهر الدراسات التى استخدمت هـــذه الادارة دراسة توماس وزنانيكى عن « الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا » كما درس عاطف غيث قرية « القيطون » فى مصر مستخدما هذه الاداة نفسها (٢٦) .

ويعد دليل دراسة الحالة بمثابة قائمة تضم اما مجموعة اسئلة مفتوحة سبق اعدادها بدقة أو مجموعة الموضـــوعات الاساسية والفرعيـــة التى تساعد المبحوث على ترتيب استجابته وأفكاره وتعطى الفرصة لمرونة أكبر حيث يملك الشخص القدرة على الاستطراد فى الحديث فى ضوء العـــلاقة التفاعلية الوثيقة التى تربط الباحث بالوحدة المدروسة وتتأكد هذه العلاقة فى ضوء طبيعة دراسة الحالة نفسها فالدليل قد يستلزم القيـــام بمقابلات عديدة تستحوذ **القضايا الاساسية والفرعية** على عدة جلسات تتوثق من خلالها العلاقة بين الباحث والمبحوث وتزداد المعرفة المستقصاة حتى يمكن استيفاء البنود المتنوعة فى دليل دراسة الحالة وعلى سبيل المثـــال فـــان الباحث الانثروبولوجى قد يقوم بدراسة ظاهرة السحر فى المجتمع فيتولى دراسة حالة السحرة ويعتبر كل ساحر هنا بمثابة حالة Case يمكن دراستها

ومعرفة التفاصيل المتصلة بتنشئة الاجتماعية وظروفه الاسرية وأحواله التعليمية والمهنية والزواجية وطبقته الاجتماعية وكيفية ممارسته السحر وخصائص الجمهور الذى يتردد عليه ونوعية المشكلات — لمن يأتون اليه بها لحلها — والشعائر الطقوسية التى يؤديها ... الخ .

وقد يدرس حالة الاشخاص الذين قبض عليهم لارتكابهم جريمة الاغتصاب لمعرفة الاسباب التفصيلية لشيوع هذه الجريمة رغم أن عقوبتها تصل للاعدام .

وما من شك أن الباحث يستطيع من خلال هذه الاداة أن يدرس الظواهر الثقافية كالمولد وجلسة الحشيش والزار وحلقات الذكر وغيرها حيث يعد المولد وجلسة الحشيش والزار وغيرها بمثابة حالة يمكن دراستها دراسة متعمقة وشمولية أيضا . كما يمكن استخدامها بكفاءة عالية اذا اردنا أن ندرس ظاهرة كالانتحار من خلال دراسة حالة اولئك الذين انقذوا فى اللحظات الاخيرة قبل أن يغادروا الحياة .

« المصـــــادر »

١ — محمود عودة — تاريخ علم الاجتماع — بيروت — بدون .

٢ — سمير نعيم — النظرية فى علم الاجتماع — القـاهره — ١٩٧٧ — الفصل الاول والثانى .

٣ — أ. ب. دوزير مفهوما البدائية والوطنيـة فى الانثروبولوجيا (فى) اشلى مانتاغيو (محرر) البدائية — ترجمة محمد عصفور — عالم المعرفة — مايو ١٩٨٢ .

٤ — محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الفصل الرابع .

(*) انظر الدراسة التى اشترك فيها الباحث ضـمن فريق البحث الانثروبولوجى المصرى — الهولندى فى الدراسة التى اشرف عليها المركز القومى للبحوث الاجتمـاعية عن « امكانات التنمية بين ذوى المستوى المعيشى المنخفض » المركـز القومى للبحوث الاجتمـاعية والجنائية — ١٩٨٢ و ١٩٨٣ .

٥ — محمد عبده محجوب — المصـدر السابق — مواضع عديدة وايضا محمد عاطف غيث — التغير الاجتماعى والتخطيط — الاسكندرية — ١٩٦٢ .

٦ — ثروت اسحق — أثر التصنيع والتحضر على البنـاء الاجتماعى — دكتوراه غير منشورة — جامعة عين شمس — ١٩٨٠ — الفصـل السادس .

(*) يتيح ذلك فرصة لملاحظة الحياة الاجتماعية فى كل فصول السنة وتسجيلها بكل دقائقها .

٧ — ا. برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية — الفصل الرابع .

٨ — ايفانز برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية — ترجمة احمد أبو زيد — القاهرة — ١٩٧٥ — المقدمة .

٩ — على ليلة — البنائية الوظيفية — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٢ — الفصل الرابع .

١٠— ايفانز برتشارد — المصدر السابق — الفصل الرابع .

١١— على ليلة — المصدر السابق — الفصل الثالث .

١٢— ثروت أسحق — الملاحظة بالمشاركة — ورقة مقدمة للندوة المنهجيه التى عقدت بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية — يناير ١٩٨٣ .

١٣— بيلز وهويجر — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة — جـ ١ ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى — القاهرة ١٩٧٦ — الفصل الخامس.

١٤— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٥— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٦— نرفانا احمد — طريقة المعايشة — ورقة غير منشورة — مقدمة للمركز القومى للبحوث الاجتماعية — وحدة الاسرة — ١٩٨٤ .

١٧— البناء الاجتماعى — جـ ١ — ١٩٦٥ — الفصل الخامس .

١٨— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٩— R. F. Murphy, Cultural and Social Anthropology, New Jersey. 1986, p. 222.

٢٠— Ibid p. 225.

٢١— عبد الباسط محمد حسن — أصول البحث الاجتماعى — القاهرة — ١٩٦٣ — الفصل السابع عشر .

٢٢— سمير نعيم — المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية — القـاهرة — ١٩٨٨ — الفصل الثامن .

٢٣— Op cit. pp. 225, 226.

٢٤— Culture and personality U.S.A. 1973. pp. 261 : 277.

٢٥ — The Urban villagers. U.S.A. 1965, preface.

٢٦— هناك دراسة اخرى خصبة المحتوى تناولت دراسة المجتمع المحلى كحالة ، انظر :

R. Redfield, Avillage That chose progress Chan Kom Revisited. Chicago. 1964.

« النادى وميكانزمات الصراع فى مجتمع محلى »

دراسه سوسيوانثروبولوجيـــة

مقـــــدمة :

ينهض هذا البحث على درآسة حقلية لاحد أطراف مدينة القـــاهرة حيث تبعد المنطقة عن وسط المدينة بنحو ٢٠ كم ويدل تاريخ المجتمع المحلى عن انه كان بمثابة منطقة زراعية حتى قيـــام ثورة ١٩٥٢ حيث اســـتهدف المجتمع للتغير الاجتماعى — تحت وطأة التصنيع والتحضر الذى امتد الى الاجزاء المجاورة له فى منطقة حلوان الصناعية التى استقبلت عشرات المؤسسات الصناعية اليها — واضطردت معدلات الهجرة الداخلية المتجهـــة للمجتمع المحلى خلال العقدين الاخيرين بناء على ذلك بصورة ملحوظة .

وقد تأسس النادى منذ حوالى ١٠ سنوات بعد صراع طويل حيـــث تحمس الشباب لفكرة تأسيسه على أرض « حكر » مملوكة للمجتمع المحلى بينما تحمس كبار السن — ومن اقتربت اعمارهم من سن الشيخوخة — لتحويل المبنى الى مؤسسة تبيع السلع الاستهلاكية أو تؤدى خدمات معيشية أخرى غير متوفرة فى المجتمع المحلى وبانتصار الشباب أحس كبار السن بالهزيمة والاحباط الشديد نتيجة لذلك ومن ثم اتهم الشباب بعدم أخـــذ الحياة مأخذ الجد بينما دافع الشباب عن رأيهم بأن النادى سيصبح المتنفس الوحيد لانشطتهم والبديل عن ارتياد المقاهى والتى يقوم البوليس بعمـــل « كبسات » عليها فى أحيان كثيرة للتأكد من عدم ممارسة ألعاب القمـــار وتعاطى المخدرات وبخاصة بالنسبة للاغراب عن المنطقة وسائقى عربات الاجرة والسيارات الكبيرة المـــارة بالمنطقة .

وقد اجريت الدراسة الحقلية للنادى فى الفترة الممتدة من مطـــلع سنة ١٩٨١ حتى مطلع سنة ١٩٨٢ وتم الاستعانة بالملاحظة بالمعايشة لمدة

لا تقل عن ٤ أيام أسبوعيا فضلا عن المقابلات الجماعية وقد قام بالملاحظة بالمشاركة واحد الباحثين الهولنديين .

وتفصح المشاهدات الميدانية عن **الفجوة بين النادى والمجتمع المحلى** أو على حد تعبير أحدى الحالات « سبب فشل النادى فى تكوين علاقة مع المنطقة » (المجتمع المحلى) ترجع فى نظرى لنقص وعى الناس وكمان (علشان) علاقة أعضاء مجلس ادارة النادى بتقوم على النفاق وناس بتحاول تظهر بمظهر القوة وانهم اقوى من — الناس — التانيين » وقد ادى هذا الى **تجميد بعض الانشطة** وبخاصة الانشطة التى تتيح الفرصة للحوار ومناقشة مشاكل الشباب حين تذكر حالة أخرى « مفروض النادى يفتح ابوابه نهارا وليلا ولكن لا يوجد مسئول وممكن أن تهاجم بأى اتهام داخل النادى ومافيش اهتمام بمسابقات الشطرنج مثلا وعلشان كده فيه شباب بيفضل القهوة » (الجلوس على المقهى) . وتستكمل حالة أخرى هذا بقولها « النادى الوقت منفصل عن المنطقة « المجتمع المحلى » الشباب نفسهم (أنفسهم) بيروحوا النادى علشان البنج مثلا لكن مافيش حاجة مشجعة ، رئيس مجلس الادارة بطبيعته راجل مش رياضى ... وبيختلس ايرادات النادى » . ومفهوم النادى فى حد ذاته مصدر نقد من الشباب أنفسهم » أو على حد قول احدهم « النادى مفهومه عند الناس مفهوم خاطىء ينصب أساسا على لعب كرة القدم بالذات وده مفهوم خاطىء ويرجع لارتفاع معدل الامية على اساس (تفكيرهم) ان النادى مكان أجتماع الشباب الفاضى » (الذى لا يعمل) .

أما الاهداف غير الرياضية والتثقيفية فانها صوحبت بدخول بعض الاشخاص ممن لهم اتجاهات سياسية وميول دينية متطرفة ، وأزدادت حدة الصراعات داخل « اللجنة الثقافية » مما أدى الى الغاء هذه اللجنة تماما منعا لحدوث المشكلات واحتمال انعكاسها على النادى مما قد يهدد باغلاقه.

والحقيقة أن النادى **يعكس بصورة واضحة أوجه الحياة الاجتماعية** فى المنطقة ، اذ أن المجتمع المحلى يضم اربع عصبيات كبيرة :

(عميره ، شادى ، المصاوى ، خزام) .

فضلا عن عائلات (خالد ولطيف) ويحاول التجميع بينهما حتى يتمكن من تحقيق أهدافه فى ظل تمثيل عصبيات المجتمع المحلى والعائلات ويعكس

بدوره أوجه الخلاف بينهما أما الاعداد الكبيرة المهاجرة للمنطقة طلبا للسكن بجوار محال عملهم ممن يطلق عليهم « الفرط » (*) فلا لزوم لتمثيلهم اذ أنهم لا يشكلون مصدر الثقل فى التركيب السكانى والتنظيم الاجتماعى بالمنطقة كما أن الصراعات التى تثور بين العصبيات والعائلات تنعكس بدورها على النادى فقد حدثت بعض المشاكل بين هذه العصبيات فى نهاية السبعينيات (**) ، وأسفرت عن تنحية رئيس مجلس ادارة النادى وأمين الحزب الحاكم (وكانوا ينتمون لاحد هذه العصبيات) وتجريدهم من بعض اختصاصاتهم والتشهير بهم .

والنادى يضم بين أعضاء مجلس ادارته بعض أصحاب المؤهلات الجامعية كالمحامى والمهندس بينما يضم فى عضويته الطلاب والعمال وغيرهم ، وغير خاف أن العصبية هى قطب الحياة الاجتماعية فى هذا المجتمع التقليدى وفى فلكها تتزايد الصراعات التى تهدف لاستحواذ كل عصبية على بناء القوة داخل المجتمع بينما تتعدد الميول السياسية والدينية داخل بنية هذه العصبيات نفسها ، ويعبر أحد الاشخاص عن ذلك بالقول « عصبية (عادى) يميلوا لبعض أكثر من النادى » وبعض « شباب عصبية (الصاوى) يرفضون العضوية علشان المشاكل والمناقشات » ، وبين عصبية (شادى) ورئيس مجلس ادارة النادى ضغائن لا تخفى على أحد .. فى انتخابات المجلس المحلى الاخيرة هو خانهم وعصبية (الصاوى) كمان خانوه ... الخ . وقد أفصحت الدراسة الحقلية عن أن عصبية (عميرة) كعصبية كانوا يعارضون أساسا تأسيس النادى . أما (الصاوى) فكانوا يرغبون فى وضع اليد على مساحة محدودة من الأرض ملاصقة للنادى — خلت بنقل أحد الاكشاك المخصصة لتوزيع السلع الاستهلاكية منها — وضمه للمقهى المواجه للنادى والتى يملكها أحدهم وعارض الشباب هذا واستعانوا بالجهات المسئولة،أما الامر الملفت للنظر فان عصبية(الصاوى)لجأت الى أحد الوزراء من البلديات لتحقيق رغبتهم من جهة كما أن الوكيل الثانى للنادى (وهو شقيق صاحب المقهى) قد حاول من جهة أخرى الوقوف مع عصبيته لحرمان النادى من هذه الارض وضمها لشقيقه طمعا فى فوز العصبية على حساب النادى .

(*) الفرط هم الافراد الذين نزحوا كأفراد أو مع أسرهم الزواجية لا فى ظل جماعات أو عصبيات .

(**) قبيل اجراء الدراسة الحقلية .

وقد فشل رئيس مجلس ادارة النادى فى المحافظة على علاقات ودية حميمة بينه وبين العصبيات مما **عاق النادى عن تحقيق الكثير من اهـدافه** نتيجة للصراعات التى ثارت بينه وبين الاعضاء الذين ينتمون لهذه العصبيات والعائلات .

اما رد الفعل الناتج عن هذا الصراع والتى لحقت برئيس مجـلس الادارة فجعلته يخشى من هذه العائلات والعصبيات مما جعل الحقبة الاخيرة توصف من جانب الشبان بأن « رئيس مجلس الادآرة مش حازم ويراعى العائلات نتيجة خوفه الشديد من هذه العائلات لان العدد بيولد الكفر » . وانعكس ذلك على نظام التدريب . وعلى حد تعبير أحد الحالات « تحس اننا عيلة واحدة علشان القرابة والجيرة وده مش كويس . احنا فى حاجة للجدية فى التدريب بتاعنا » . ومن هنا أصبحت القرارات الصـــادرة من مجلس ادارة النادى غير معبرة عن مصلحة المجموع بل معبرة عن الخوف الشديد من اغضاب رؤساء العصبيات والعائلات فى المجتمع المحلى وتعبر بدورها عن المصلحة الذاتية لافراد اكثر منها بمصلحة القاعدة المتسعة من شباب النادى فعلى حد قول أحد الشباب « رئيس مجلس الادارة يسيطر على قرارات النادى » بينما عبر غيره عن أن هذه الهدنة لم تحقق الهدف الذاتى المرجو منها ، فقد فشل رئيس مجلس ادارة النادى فى المحـافظة على علاقات ودية حميمة بينه وبين العصبيات الموجودة مما على النادى عن تحقيق الكثير من اهـدافه نتيجة للصراعات التى ثارت بينـه وبين بعض الاعضاء الذين ينتمون لهذه العائلات ، وقد حدث حين اتخذ المجلس قرارا بفصل أحد الاعضاء أن قام هذا العضو بتقديم عشرات الشكاوى الكيـدية التى اضير بسببها رئيس مجلس الادارة — وبعض أصحابه — ممن كـانوا يمثلون بناء القوة فى هذا المجتمع المحلى — ماديا وأدبيا .

وهكذا **لم يقوى النادى على مجاراة التحول الاجتماعى** الذى تعرض له المجتمع المحلى فى تحوله من منطقة زراعية الى منطقة متاخمة لعشرات من المؤسسات الصناعية والـذى ادى الى جذب عشرات الاسر التى وفدت للمجتمع المحلى طمعا فى الحصول على مساكن قريبة من محال العمل فظل التنظيم داخل النـادى يتسم بالتقليـدية ويعكس أصـداء **الصراعات بين عصبيات المجتمع** التى كانت مستقرة به قبل أن تلحقه آثار التصنيع والتحضر أما رؤساء العصبيات انفسهم فانهم يقفون بالمرصاد ضد مشاريع النادى حيث يعبر عن الكراهية أحد أعضاء النادى بقوله « موقف الناس الكبار هنـــا

يكرهوا النادى كره العمى (كراهية عمياء) مخ الناس الكبار ان النـــادى معناه كورة وبس يعنى فساد ... علشان كده كل البيوت هنا متضايقين من النادى » .

أما رئيس النادى فينسب هذا الصراع برمته الى الظروف والملابسات المصاحبة لتأسيس النادى فقد حاولت الجهات السياسية (ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى) والادارة الحكومية (ممثلة فى رئاسة الحى التابعة له المنطقة) والجهات الاقتصادية (ممثلة فى مؤسسة الاهرام للجمعيات التعـــاونية الاستهلاكية) الاستيلاء على المبنى « لكن الشباب وقفوا معانا وكبار البلد قالوا بقى مبنى زى ده يأخذوه يلعبوا فيه العيـــال ... » . والامر الملفت للنظر ان النادى لا يملك حتى الان الارض وبالتالى لا يملك المبنى الخـــاص به فالارض التى شيد عليها النادى وملعب الكرة شأنها شأن معظم اراضى المنطقة « أرض حكر » وتعد من الناحية الرسمية تعديا على املاك الدولة ولم يحسم أمرها حتى الان وتفصح الدراسة الحقلية عن ان النادى يستثير صراعا يمتد بدوره داخل كل اسرة فالاسر التقليدية فى المنطقة والتى تنتمى للطبقة العاملة الفقيرة تعتبر النادى اضاعة للجهد والوقت الذى ينبغى أن يخصص بجهله للعمل وكسب المال والتحصيل الدراسى . والنادى هنـــا يمثل مؤسسة شبابية يلفظها المجتمع المحلى اذ أنها من وجهة نظره تتناسى المشكلات المحلية المرتبطة بالحياة اليومية رغم أن النادى يشجع على عقد اللقاءات بين كبار رؤساء العصبيات والقيادات السياسية والتنفيذية لمناقشة المشاكل الملحـــة للمجتمع المحلى أو عمل ندوات فى المناســـبات الدينيـــة والاجتماعية غير ان هذه اللقاءات تحدث لماما .

وينعكس موقف المجتمع من النادى فى **اهمـــاله** المتنـــاهى للمؤسسة ذاتها وللعادات غير المستحبة والتى تتصل بعدم احترام الناس للنـــادى فالاسرة فى المجتمع المحلى ترى — من وجهة نظرها — أن النادى لا يساعدها فى الحصول على تسهيلات معيشية وهكذا يتعرض المبنى من الخارج وملعب الكرة لالقاء القاذورات والقاء القمامة والحجارة وغيرها من النفايات الامر الذى يلزم الشباب بتنظيف الملعب والمساحة المحيطة بالمبنى يوميا هـــذا فضلا عن المعاكسات التى يتعرض لها أعضاء فريق النادى من غير الاعضاء ممن يريدون أحيانا فرض سيطرتهم على هذه الفرق الرياضية التى تشارك فى النشاط لا سيما فرق الاشبال والاحداث .

أما المساجد والجمعية الشرعية وغيرها من المؤسسات الدينية فقـــد

أفصحت عن أن النادى يمثل اللهو والانغماس فى الامور الدنيوية وان هذا الوقت المستغرق فى الرياضة يمكن استغلاله فى النشاط الدينى وحفظ القرآن والدعوة الدينية .

أما المقاهى فى المنطقة فيعتقد أصحابها أن لا لزوم للنادى فالمقهى تقوم بوظيفتها خير قيام لجذب الذكور مع توفر التليفزيون والالعاب البسيطة والمرطبات وغيرها من المشروبات داخل المقهى نهارا وليلا . ولا ينتظم مجلس ادارة النادى فى الحضور للنادى يوميا بينما يقل تردد الاعضاء فى موسم الشتاء نظرا لانشغال الطلاب فى الدراسة واستذكار دروسهم .

ولا جدال أن النادى بتركيب مجلس ادارته الحالى منذ تأسيسه سنة ١٩٧٣ قد **فشل** فى جذب الصفوة المتعلمة تعليما عاليا والشخصيات التى يمكنها أن تخدم المنطقة خدمة مخططة .

غير أن النادى فى نهاية الامر هو نادى **للذكور فقط** وقد أفصحت المقابلات التى تمت مع اناث عن امتعاضهم لموقع المجتمع المحلى وموقف الشباب الذكور منهم وقد طالبوا بن يفتح النادى أبوابه لهم فترة الصباح كمشغل للفتيات وكدار حضانة للصغار من أبناء العاملات فى المنطقة وهكذا يعكس الصراع فى النادى اصداء الصراع فى منطقة تقليدية تعرضت لاثار التصنيع والتحضر وبدأ معظم الاشخاص ينزحون للمجتمع المحلى ويتجهون للعمل فى المؤسسات غير ان **التحكيم القبلى لا يزال اهم وسائل الضبط الاجتماعى** فى المنطقة .

ومازال النادى يعكس اصداء الصراع بين العصبيات من جهة واصداء صراع المطالب الحياتية الملحة لعشرات الاسر التى تنتمى للطبقة الدنيا الفقيرة والتطلعات المشوبة بالقلق لشباب المنطقة (الذى يشعر بأن من حقه أن يشبع حاجته للترفيه كحاجة ملحة تتصل بالمرحلة العمرية التى يحياها ليحيا حياته دون تطرف أو جموح) من جهة أخرى كما أن الصراع داخل النادى يعكس بدوره **صراع ابنية القوة فى المجتمع المحلى ويجسد اختلاف الرؤى الاجتماعية والسياسية فى مجتمع الاطراف** موضوع الدراسة سواء رؤية المؤسسة الدينية أو رؤية المؤسسات الترفيهية القائمة كالمقهى وغيرها أو صوت المصالح الذاتية للصفوة التى تقود العمل الاجتماعى داخل المؤسسة نفسها .

ويعبر النادى فى نهاية المطاف عن مجتمع نوعى ينفرد فيه الذكـــور بالعمل واشباع احتياجاتهم الاجتماعية . دون الاناث حيث يحجم دور الانثى تماما فى المجتمع المحلى .

غير أن النادى قد **فشل فى نهاية المطاف فى قيادة العمل الاجتمـاعى** فى منطقة تقليدية تعرضت لاثار التصنيع والتحضر فى احـد احياء المدينـة المتروبوليتانية بينما استغرقته النظرة الرياضية (الضيقة) دون أن يهتم بالنظرة (المتسعة) التى تهتم بالاشباع الجسدى والنفسى والفعلى للشباب من سكان المنطقة ، كما فشل فى ان يعكس الخصائص الحضرية على هذا المجتمع التقليدى ليسهل ربطه اجتماعيا وثقافيا مع العاصمة الام التى تضمه وهـذه الدراسة تعبر من وجهـة نظـرنا عن كيفيـة اسـتخدام المنهج السوسيوانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية التى شارك فيها الباحث واحد الباحثين الاجانب .

الفصل العـــاشر

الانثروبولوجيـــــا الراديكـــــالية

اولا ــ الماركسية والانثروبولوجيـــــا :

يرى تيماشيف N. S. Timasheff ان ماركس قـــد اسهم فى ابراز اهمية النظام الاقتصادى كمحدد لبناء المجتمع وتطوره اذ أن تنظيم الانتاج يشكل التنظيم السياسى والقانونى والدينى والعلمى والاخلاقى للمجتمع ، وأنه قد اهتم كذلك بميكانزمات التغيير الاجتماعى لنسق الانتاج الاقتصادى والطبقى فى المجتمع الانسانى (١) وكما يذكر عنه كوزر .

Marx's focus on the process of social change it forms all his writings ets ...

فالناس يطورون قواهم الانتاجية من خلال الكفاح المشترك والصراع مع الطبيعة حيث تحدد هـــذه القوى ظروف الانتـــاج أى بناء الاشـــكال الاجتماعية وديناميتها ، وفضل الماركسية هنا انهـــا لم تحاول الفصل بين العوامل المادية والظروف الفكرية خلال العملية الانتاجية كمـــا أوضحت كذلك أن الثراء الفكرى الذى يحققه الفرد يتوقف على مدى ثراء العلاقات الاجتماعية الفعلية ولذا تجنب ماركس تصوير المجتمع ــ بالنسبة للافراد ــ كفكرة مجردة وربما يرجع الفضـــل لانجلز Engels كذلك فى ترويج أفكار ماركس الاجتماعية .

وقـــد تأثر البعض بكتابات ماركس ومن بين هـــؤلاء كارل فولجراف الالمانى Vollgraf (١٧٩٢ ــ ١٨٦٣) الذى صدر له كتاب بعنـــوان « محاولة اولية للدفاع العلمى عن الاثنولوجيا من خلال الانثروبولوجيا » .

وكذلك كوفاليفسكى Kovalevsky الروسى حتى ان الاثنوجرافيا فى روسيا قد ظلت لفترة طويلة نسبيا خاضعة لمنهج كوفاليفسكى القائم على استخدام البيانات الاثنوجرافية فى الدراسات التاريخية والسوسيولوجية للتشريعات الروسية مع التركيز على العناصر المادية فى ثقافة الشعوب المختلفة .

كما تاثر ته بوجيسيك Bogisic اليوغوسلاف الذى تتبع النظام الابوى فى المنطقة السلافية الجنوبية ويمكن ان نذكر ايضا أوليفج ماندیك الذى اهتم بالاثنوجرافيا وتسای يان بى Tsai yuan pei الذى كان يشرف على قسم الاثنولوجيا التابع لكلية العلوم الاجتماعية بالصين ، وقد اهتم هذا العالم بالدراسات الحقلية مما كان له أكبر الاثر على زملائه وطلابه (٣) .

والواقع أن الرؤية الماركسية للواقع الاجتماعى تتضمن بعض الافتراضات الاساسية عن :

ا ــ الافراد والانساق الاجتماعية .

ب ــ النظم الاجتماعية المسيطرة .

جـ ــ نظام الانتاج والطبقات الاجتماعية .

وترى الماركسية أن **الطبيعة الانسانية هى اساسا طبيعة جيدة** فالناس ليسوا أشرارا بطبيعتهم (وهى المقولة الاساسية فى علم الانسان بصفة عامة والانثروبولوجيا الراديكالية بصفة خاصة) .

فالعيوب الاجتماعية كلها ترجع للنظام الاجتماعى الذى توجهه الطبقة المستغلة فيظهر الفقر والبؤس والمشاكل الاجتماعية التى ينبغى البحث عن حلول لها ليس فى الافراد أنفسهم بل فى النظام الاجتماعى القائم لا سيما من خلال ازاحة تلك الشريحة التى تعمل على السيطرة على عملية التبادل الاقتصادى بقصد ملكية وسائل الانتاج والحصول على القوة الاجتماعية . ولنزيد من احتمالات الصراع الاجتماعى بين الجماعات المتعارضة المصالح فى الحياة الاجتماعية (٤) . ويعتقد البعض أن من أبرز المفاهيم التى تاثر بها

علمـــاء الانثروبولوجيا ــ كانعكاس للماركســـية ــ مفهـــوم ماركس عن المجتمعات البدائية حيث تتحدد طبيعة الانتاج ، اشكال أستيعاب الثقـــافة والظروف والاوضاع الاجتماعية فى مرحلة تاريخية بعينها لهذا المجتمع وكذلك رؤيته للتشكيلة الاجتماعية أو بمعنى آخر نظريته للتطور الاجتماعى حيـــث تتشكل العلاقات الانتاجية بأسلوب الانتاج الذى يعبر عن مرحلة تاريخيـــة بعينها يعد المجتمع المشاعى البدائى **أول التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية** التى ظهرت فى الوجود (٥) .

وقد ظهر فى وقتنالاحق فى الادبيات المعاصرة ما يعرف**بالماركسية الجديدة** Neomarxism ومن اقطابها ستانلى دايموند Diamond الذى اصـــدر دورية بعنوان « الانثروبولوجيا الديالكتية Dialectical Anthropology ويرى دايموند فى أعمال ماركس سواء ما كان واضـــحا أو ضمنيا ــ رؤية صالحة للتحليل الاجتماعى ومصدراً للفكر الانثروبولوجى الثورى وهـــكذا يناقش الانثروبولوجيون الماركسيون غالبا قضـــايا وموضوعات تتصـــل باصلاح الاوضاع فى المجتمعات الغربية من خلال المنظور الخاص بالمجتمعات البداية (٦) .

ثانيا ــ الاتجاهات الراديكالية والانثروبولوجيا :

اتجهت بعض التيارات الفكرية فى الغرب الى المناداةباجماع احداث تغير اجتمـــاعى متسع Massive social change فالمجتمع والعـــلوم الانسانية بحاجة الى **الايديولوجيا** Ideology ، وكما يذكـــر لازارسفيلد Lazars وسويل Sewell وويلنسكى Wilensky (٧) .

«They need the fig ideas that move men to act and introduce these social changes etc».

وهكذا بدأ الاهتمام بقضايا خاصة بالتغير فى النسق الاجتماعى والبناء الاجتماعى والتى من أبرزها تغير **ملكية وسائل الانتاج**
«Change in the ownership of the mean of production».

وقد بدا رايت ميلز Mills وغيره من العلماء يفتحون باب الحـــوار ويثيرون العديد من القضايا والتساؤلات التى لم يك أحد يفكر فى اثارتهـــا

بهذا الوضوح والصراحة فى العرض أو التنـــاول من قبـــل وبدأ العلماء ينسحبون عن الاهتمام بالاعمال اليوتوبية والمناقشات السوفسطائية التى ظلت تشـــغل وتركز على « **المركزية الاثنيـــة** » الاذهان فى المـــاضى . وقد انطلقت **الاتجاهات الراديكالية** بقوة فى الولايات المتحـــدة كانعكاس للتـــوتر وللقلق الذى يخيم على المناخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى ستينيات هذا القرن ، واذا كان طلاب علم الاجتماع قد أصيبوا بخيبة أمل كبيرة حين اكتشفوا أنهم انما يدرسون قضايا اكاديمية شكلية تؤهلهم لحمل مسئوليات مهنية محددة (٨) فان طـــلاب الانثروبولوجيا بدورهم قـــد اكتشـــفوا أن **الانثروبولوجيا التطبيقية** كانت مجرد أداة فى يد القـــوى الاستعمارية وسلاح موجه لاستغلال ثروات وشعوب الدول الفقيرة بل ان النظرية التطـــورية والنظريات الانتشارية كانت تفسر فى معظم الاحيان لاثبات تفوق الانســـان الابيض وأظهاره فى صورة الانسان العاقل الذى يمثل قمة التطور الانسانى حيث تتم عملية التثقف فى المقابل من البلدآن الغربية الى القبائل والشعوب المنعزلة والفقيرة وكأن هذه النظرياتلم يقصد بها الا تبرير تفوق الرجـــل الابيض وتبرير استعماره لدول العالم الثالث .

وترتبط الرؤية الامبريالية برفض الاعتراف بمـــا فى المجتمعـــات غير الغربية من فعاليـــات ، ومن المعـــروف كمـــا يذكـــر جـــورج كتورة أن الانثروبولوجيا الاجتماعية قـــد تطورت بشكل واضح فى بريطـــانيا وهى الامبراطورية الكبرى التى ارتبطت بالسياسة الاستعمارية التوسعية اذ أن المدرسة الوظيفية نفسها ترتبط كذلك بالاستعمار والانثروبولوجى صاحب هذه التوجهات هو الذى يعمل فى حقله وهو الذى يؤلف الصورة الخاصة مستخدما مفاهيمه الخاصة فالباحث والمنظر هنا شخص واحد .

وهو الامر الذى عبر عنه كتورة بقوله :

« باعتبار الاستعمار حقيقة موضوعية لا نظـــاما له بعـــده التاريخى والايديولوجى أقامت الانثروبولوجيا الكلاسيكية معه علاقة مزدوجة فالواقع الاستعمارى يقدم لها حقلا تجرب فيه مفاهيمها الخاصة باعتبارها علمـــا اجتماعيا ... » (٩) .

ثالثا — الانثروبولوجيا الراديكالية :

تهدف **الانثروبولوجيا الراديكاليـة باصرار لبحث احتيـاجات البشر** وأمكانياتهم الثورية كما تهدف لتكوين الباحث الذى يتخذ موقفا أيديولوجيـا محددا — والذى يقف من الظواهر موقفا ايجابيا — بالعمل مع الناس — **لتغيير الاوضاع القـائمة فى ضوء الامكانات البيئيـة والبشرية والثقـافية والاخلاقية المحيطة بهم .**

ومن أبرز القضايا التى أثارت اهتمام هؤلاء الانثروبولوجيين منـاقشة التباين القائم بين مـادية ماركس التاريخية ونظـرية المـادية الثقـافية Cultural materialism التى وضعها الانثروبولوجى المريكى المعـاصر مارفيل هاريس Marvin Marris حيث يتفق الماركسيون المحـدثون مع دعاة نظرية المادية الثقافية على أن الظروف والاوضاع المادية للحيـاة الانسانية لها أولويتها فى ضوء التسق الايكولوجى التى توجد فى ظلها هذه الاوضاع والظروف (١٠) .

ولقـد قام هرسكوفيتز Herskovits بنقـد الرؤى اللبراليـة والامبريالية التى دأفعت عنها الانثروبولوجيا الوظيفية بينمـا أعلن بعض علماء الانثروبولوجيا فى الولايات المتحدة موقفا ثوريا تجاه ما أسموه بالمسالة الاستعمارية . وأودعوا سنة ١٩٤٧ المكتب التنفيذى للجمعية الانثروبولوجية الامريكية (لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة) مشروع اعـلان أوضحوا فيهبصراحة أنه نظرا للعدد الكبير من المجتمعاتالانسانية التىادخلت فى عالمنا الحديث مرحلة احتكاك وثيق ونظرا لتعدد طرق الحياة . فان على كل اعلان لاحق لحقوق الانسان أن يسعى اساسا لحل المشكلة التاليـة : كيف يمكن تطبيق الاعلان المقترح على الكائنات البشرية كافة ، من غير أن يكون اعلانا للحقوق مصاغا بعبارات تصطبغ بسيطرة القيم الغربية السائدة فى أوروبا الغربيـة وأمريكا . ومن المعـروف أن هرسكوفتيز قـد رفض الانثروبولوجيا التطبيقية (البريطانية) التى يمـكن استغلالها من قبـل الاستعمار .

ويستحثنا علمـاء الانثروبولوجيا هنـا للتركيـز على مقـولات

الانثروبولوجيا الثقافية المرتبطة بالنسبية الثقافية Cultural relativism (*) وهكذا يقرر عالم الانثروبولوجيا ديلافينات Delavignette في كتابه « افريقيا السوداء الفرنسية وقدرها » سنة ١٩٦١ أن عملية القضاء على الايديولوجيا الاستعمارية المسيطرة تظهر في علم الانثروبولوجيا بلغة ذات نبرة امبريالية حيث ترتد ظاهريا على الاقل الى اصولها لتتحول الى اداة مناهضة للاستعمار ... الخ .

وهنا لا ينبغي أن نفترض بأن الشعوب البسيطة والمنعزلة أو ما برح أصحاب مدرسة التبعية على تسميتها بالمحيط بحاجة الى حماية المركز (أو الاستعمار) بل لابد من تقسيم جديد للعمل على المستوى العالمي والتخلص من التبعات والروابط القديمة فالتحلل من الاستعمار على ما يذكر جاك بيرك J. Berque لا يتم الا بتغيير العلاقات الاقتصادية العالمية واستبدال النرجسية الامبريالية بحوار تقف فيه المجتمعات والثقافات في موقف الاحترام المتبادل وهي ما اتفق جورج كتورة مع انور عبد الملك في تسميتها بتزكية النزعة القومية Nationalitarisme ويستشهد سيكوتورى على ذلك بأن الاستعمار الفرنسي في افريقيا قد تزامن مع الدراسات التي قدمها ليفي بريل عن العقلية البدائية التي تسخر من منطق الانسان الافريقي (**) .

وقد لفت ايميه سيزار A. Cesaire النظر في مؤلفه عن الاستعمار ١٩٥٦ الى عدم المساواة الاستعمارية كما ذكر « انى أعتقد انه لا يحق لاوروبا المستعمرة أن تبرر لاحقا العمل الاستعماري بحجة تحقيق تقدم مادي واضح في بعض المجالات ابان وجود الاستعمار » . ومن ثم ردد بعد ذلك من الاستعمار في افريقيا « الافريقي يطالب الان بالطرق والموانى فهو الذي يريد السير الى الامام والمستعمر هو الذي يريد أن يجره الى الوراء...الخ».

وقد كشف ليكلرك Lecaerc ان الانثروبولوجيا التطبيقية ومدرسة

(*) اذ تركز النسبية الثقافية على ان لكل ثقافة طابعها المميز وبالتالي لا ينبغي أن نفترض أن بعض خصائصها الثقافية بالغة السوء أو أنه من اللازم تغييرها للاحسن .

(**) المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود — روما سنة ١٩٦٥ .

التبعية الثقافية لم يتسنى لهما أن يقفا وقفة حاسمة ضد الاستعمار اذ أن لغتهم ومواقفهم ظلت تعكس الموقف الغربى ازاء شعوب العالم الثالث .

هذا بينما نادى أصحاب الاتجاهات الراديكالية باعادة تقييم موقف الانثروبولوجيا وتقيم دور عالم الانثروبولوجيا اذ يفترض أنصار الاتجاهات الراديكالية أنه مع الاعتراف بالصعوبات التى تواجه الباحث الوطنى فى دراسته لمجتمعه الخاص الا أن الباحث الوطنى هو الذى يدرك بعمق أمانى شعبه وتطلعاته وقد ظهرت هنا البيوية الانثروبولوجية حيث حاول كلود ليفى ستراوس جاهدا أن يثرى النظرية الانثروبولوجية وأن ينادى بانثروبولوجية مستقبلية مناهضة للاستعمار تدافع عن هوية العالم الثالث ، فقد رأى ستراوس أن على الباحث أن يبدأ باستخلاص القواعد والقوانين التى تحكم سلوك الافراد ثم يحاول الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وخصائص الثقافة القائمة من خلال التعمق فى تحليل البناء العقلى كما حدد ستراوس ثلاثة أنواع من أنظمة الاتصال بين الافراد والجماعات وهى **التواصل اللغوى والزواجى والاقتصادى** وبعبارة اخرى فان الامل معقود الان على الانثروبولوجيا الراديكالية التى تنطلق بدورها من منطلقات نظرية واعية لبناء علم للانسان قادر على أن يفهم الواقع ويستعد لبناء المستقبل (١١) .

فهـــــرست

اهـــــداء ص ٤

مقـــــدمة ص ٥

البـــاب الاول : علم الانسان
ظروف النشاة وفروعه الاساسية ص ٧ : ص ٣٨

الفصل الاول : نشاة علم الانثروبولوجيا ص ٩
الفصل الثانى : علم الانســان وفروعه ص ٢٧

البـــاب الثانى : مجـــالات علم الانسان ص ٣٩ : ص ٢٤٤

الفصل الثالث : الانثروبولوجيـــا الثقافية ص ٤٠
مقدمة : مجالات الانثروبولوجيا الاجتماعية ص ٦١
الفصل الرابع : الانثروبولوجيا الريفية ص ٦٣
الفصل الخامس : الانثروبولوجيا الحضرية ص ٩٥
الفصل السادس : الانثروبولوجيا الصناعية ص ١٧٣
الفصل السابع : الانثروبولوجيا الاقتصادية ص ١٩٩
الفصل الثامن : الانثروبولوجيا السياسية ص ٢٢٧

البـــاب الثالث : الاتجاه السوسيوانثروبولوجى ص ٢٤٥ : ص ٢٨٧

الفصل التاسع : الاتجاه السوسيوانثروبولوجى
المنهج والادوات ص ٢٤٧
الفصل العاشر : الانثروبولوجيا الراديكالية ص ٢٨١

الناشـــر
مكتبة الحرية
جامعة عين شمس
١٩٨٨/٣٠٣٧

Bibliotheca Alexandrina
0231766